ضياء
t.me/twinkling4

سارة النمس

ماء ومِلحْ

رواية

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضـاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمّ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بواسطة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

جميع الحقوق محفوظة

©دار الآداب

بناية بيهم، ساقية الجنزير، بيروت. ص.ب.:4123-11.

هاتف: 961 3 861633 1 961 - 861632، فاكس:9611 861633

e-mail: info@daraladab.com

www.daraladab.com

تابعونا على

DarAlAdab@

دار الآداب

DarAlAdab

يوم كان الإله يجلد عبده/ قلت: يا ناس.. نكفر؟ فروى لي أبي وطأطأ زنده:

في حوارٍ مع العذاب/ كانَ أيّوبُ يشكرُ: خالق الدودِ والسحاب

خُلِق الجرحُ لي أنا

لا لميّتٍ ولا صنم!

فدعِ الجرح والألم

وأعنّي على الندم

محمود درويش

شيء من الحزن احتفلنا به على الورق..

(١)

«كلّ شيءٍ انتهَى قبل أن يبدأ أو ربّما كلّ شيءٍ لم يبدأ إلّا لِينتهِي بهذا الشكل! لستُ أنا من يختبئ وراءَ إصبعه ليقولَ وداعًا، سأكتبها لكِ الرسالةَ الأولى والأخيرة بأبجديّةٍ واضحة وخطّ جميل. الفرقُ بيني وبينكِ يا سلمى هو أنّنا في حالِ ما أنجبنا رضيعًا مريضًا ومشوّهًا، كلانا يعلمُ أنّهُ إن لم يمُت الليلة سيموتُ غدًا، سأكونُ الأبَ الذي يقتلُ ذلكَ الابنَ المعذبَ بيدٍ باردةٍ فقط ليريحَهُ من ألمهِ، وستكونين الأمّ التي تقبلُ برؤيتهِ يئنّ على أن يفارق الحياة! لم نكن يومًا متشابهيْن، فلا أدري لماذا سمحنا لأنفسنا بالتورّطِ ببعضنا لهذا الحدّ، أنتِ صبيّة عاطفيّة، مزاجيّة، ساذجة، عنيدة، مغامِرة، غَبيّة، ذوقها رديء، مجنونة لا تعتمدُ سوى على أحاسيسِها في اتخاذِ قراراتِها الجدّيّة، وقحة بذريعةِ الصراحة، تلقي ما في فمِها كقنبلة ولا تجدُ بعد ذلك حاجةً للاعتذار.. وأنا رجلٌ عمليّ، واقعيّ، يحترمُ عقله ولا يلتفتُ لأحاسيسه خشية أن تدمره، نعم.. لا أخجل من الاعتراف بأنني رجلٌ جبان، يخافُ الاقترابَ من قلبهِ ورؤيةِ ما فيه!

أخافُ أن أجدَ نفسي أرنبًا يدخلُ الجُحر الخطأ، فيفاجئه ثعبانٌ ويقضي عليه؛ لذا أغلقُه بحجرٍ ثقيلٍ، لا أزيحه إلّا في مناسباتٍ قليلة وآمنة، أمّا أنتِ، فإنّك طفلة متمرّدة كيفما ضربَها والدها على يدها لتتركَ ما تعبث بهِ، ستنتظرُ اللحظة التي يشيحُ فيها وجهه لتعود للعبِ به، هي لعبتكِ اقتحامُ الأبوابِ المغلقة واللعبُ بالثعابين.. أنتِ الطفلة الطيّبة التي لا

ترى شرّا في العالم، ولا تنتظر غير الخّيرِ ممّن حولها، ما الذي فعلتُه بكِ؟ لقد دمّرتكِ ودمّرتُ نفسي، إلا أنّني لم أتأخّر.. أعرفُ كيفَ أتراجعُ عن أخطائي، أعرفُ كيفَ أتوبُ يا سلمى، وكيفَ أصلحُ خرابًا تسبّبتُ بهِ.

ربّما كان علينا أن نفهم فحسب أنّ ما يسمّونه حبّا هو رفاهيّة ليست لمن مثلنا. لهذا السبب، قد يشعرُ رجلٌ جافّ كالخشب مثلي بأنّه يرتكبُ إثمًا وهو يعيشُ حالةَ عشق، إذ ينشغلُ بامرأةٍ بعيدةٍ عن قضاياه الكبيرة، يتركُ همومَه كلها جانبًا ليتفرّغَ لعشقِ حبيبةٍ لم يقابلها قطّ. لكنْ اعلمي أنّني أحببتكِ حتى أصبحتِ الوطنَ الذي حرمتُ منه وأصبحتِ الأرضَ الحبيبةَ التي حرمتُ منهّا، في القلبِ جرحان لا ثالثَ لهما، جرحكِ وجرحٌ طويلٌ آخر يتألفُ منّ ستّة حروف. ها قد افترقنا قبلَ أن نلتقي، قصّةٌ كهذهِلا تحدثُ إلا على أرضٍ كهذهِ.. أن يجمعَ الفراق عاشقين قبلَ أن يجمعَ بينهما اللقاء! لا تنتظري مني رسالةً أخرى، لن أقدمَ لكِ أي شيء يا سلمى، لأنني ببساطة لا أملك شيئا..».

أنتَ تملكُ قلبَك على الأقلّ، وأنا لن أطلبَ أكثر. فهل ستبخلُ بهِ عليّ؟ امرأةٌ تلعقُ من يدكَ الفرح وتعافُ الحزن لا تحبّك، وامرأةٌ لا تنذرُ عمرها في انتظاركَ إن دخلتَ السجن لا تستحقّك، تعلنُ النهاية، والآن بدأنا؟ أنا مثلك.. لستُ من تختبئ وراءَ إصبعها حينَ ترغمكَ الظروُفُ على توديعها. أنا، أيّها العزيز، أفتحُ ذراعيّ للمصائبِ وأستقبلها واقفة، كما يستقبلُ جبلٌ هبوبَ الريح! تحدّثني عن النهاية؟ سأحدّثكَ عن البداية:

لم نحظَ ببدايةٍ عظيمةٍ كبداياتِ الأفلامِ السينمائيّة، فقد بدأ تعارُفنا بمزاح ثقيل! دخلتَ صفحتي وكتبتَ تعليقًا سخيفًا، وقبل التفكيرِ بحِظرِكَ، تأمّلتُ كم كانَ في سخريّتكَ اللاذعة ذكاءٌ استفزّني، تلصّصتُ على صفحتكَ، بدوتَ شابًا عاديًا، لا هو بالوسيم ولا هو بالقبيح، لكنْ فيهِ سحرٌ جعلني لا أشيحُ بنظري عنه، رددتُ عليكَ بتعليقٍ أسخف. وهناك في نافذةٍ فيسبوكيّة صغيرة، عرضتَ عليّ: «تتزوّجيني يا بنت؟» وافقتُ شرطَ أن تكونَ العصمة في يدي، لم تمانع بحجّةِ أنّ الزيجة افتراضيّة، كتبنا الفاتحة معًا جملةً فجملة.. وعندما فرغنا من كتابتها، أعلنتُ ممازحة: «أنا حامل» أجبتني: «لحقتي تحبلي؟ أنتِ واحدة نصّابة، خلص أنتِ طالق» قلتُ: «هل نسيتَ أنّ العصمةَ في يدي؟ أطلقكَ عندما أريد». كتبتَ لي: «بدّيش كون زوجّك، طلقيني منُ غير فضايح»، تحدّيتكَ: «لا تحلم بذلك، لن أطلقكَ أبدًا». ومنذ ذلكَ اليوم، أناديكَ بزوجي وتناديني مرتي، أذكرُ أيضًا اليوم الذي سخرت فيه من ملابسي الشتائية، لا أعرف كم قميصا ارتديت ذلكَ المساء، بدوتُ بدينةً بسببَ الصوفِ الذي أخفيتُ داخله جسدي، ابتسمتَ ثمّ سحبتَ نفسًا من الأرجيلة، وقلت: «أنا مرتي تلبس الخزانة كلها وتجي تنام جنبي»! لم نكن نبذلُ كثيرًا من الجهدِ لنضحك، وكانَ يكفي أن أرى لونكَ أخضر في السكايب ليقفزَ قلبي من السعادة.

كنتُ أشحتُ من الكهرباءِ ساعات أقضيها معكَ عبر شاشةِ حاسوبي، نتحدّثُ صوتًا وصورة، نأكلُ معًا كأنّنا معًا، تدني حبّةَ اللوزِ المالحة إلى الكاميرا، أفتحُ فمي وأتظاهرُ بمضغِها.

كنتُ أثرثرُ حتى يجرحَ الكلام حنجرتي، وكُنتَ تغنّي موّالا أحبّه حتى أنام، تندهُ باسمي هامسًا، وعندما لا أجيب، تقبّل الشاشة، تغلق الكمبيوتر بحذر، تطفئ الأنوار وتسيرُ إلى فراشكَ بهدوء، تنامُ وعلى وجهكَ ابتسامة صغيرة، كثيرًا ما عايرتني أمّي بكَ قائلة: «حياتكِ بلا معنى، تعيشين في عالم غير حقيقيّ»، لكنّ كلّ شيءٍ في حياتي كان يبدو افتراضيًا إلّا أنتْ! عدنا إلى الورق لأنّه كلّ ما تبقّى، ما عدتُ مضطرّة لتسوّلِ الكهرباء، لأراك. تكفيني ورقة وقلمًا وشمعة تضيء لي المكان. عندما وصلتني رسالتكَ، شممتُ الظرفَ لدقائق. ومثل جائعة، انتظرت الطعام طويلًا. التهمتّ السطور التي كتبتَها على عجل، ثم جلستُ أقرأ كلّ جملةٍ بتأن. لن ألحّ عليك.. إن كنتَ تراني أستحقّ راسلني، أمّا أنا فسأستمرّ بمراسلتكَ حتى لو لم أتلقّ ذلك الردّ منك، لأنّكَ في نظري رجلٌ يستحقّ ما هو أكثر من الانتظار.

(٢)

كانَ السجنُ ليكونَ مكانًا لطيفًا لو أنّهم يحتجزونَ الرجلَ معَ امرأةٍ يحبّها، كنتُ لأوقظكَ كما توقظ الأمّهاتُ الحنوناتُ أطفالهنّ، أتصفّحُ معكَ الكتابَ ذاته، نكتبُ روايةً مشتركة، نمارسُ الحبّ ليلًا حتى يتبيّن الخيطُ الأبيض من الأسود، نلتقط أنفاسنا، نشدّ الغطاء إلينا، ألمّ أطرافيَ المتعبة، وأجد مكانًا لي بينَ ذراعيكَ. أمّا سجننا نحن فهو عبارة عن متاهةٍ مغلقة، تختنقُ بنا ونختنقُ فيها، لستَ غريبًا كي أخفي عنكَ بأنّني كرهتُهَا، غزّة التي طوّقتنِي بأسلاكٍ شائكة، فّلم يعد بمقدوري التحرّك إلا ضمنَ مسافاتٍ رِبطت بإحكام وحُددت بجدران عازلة، القدَرُ الذي انتقاني لأكونَ ابنة هذه الأرض حكمَ عليّ بالنفي عليها، معظم الناس يكرهونَ النفي خارج حدودِهم، ولكنّ الحُرّيّة تتمثّلُ في امتلاكِ هذا الحقّ باختيارِ أين أضَعُ قدمي.. من حقي أن أجوبَ العالم، وبعد ذلك أختار المكان الذي يحلو لي العيش فيه، مؤلمٌ ألا يكون من حقك أن تكون لا مواطنا ولا حتى سائحا.. فلكي تستقبلكَ البلدان الأخرى، ينبغي عليكَ إثباتُ أنّكَ مواطنٌ أوّلا.

وُلدتُ في مدينةٍ صغيرةٍ اسمها خان يونس، تجاورنا من الجنوب مدينة رفح، ومن الشمال ديّر البلح؛ أمّا من الغرب فنطلّ على البحرِ.. هي مدنٌ صغيرةٌ تشكل ما يسمّى بقطاعِ غزّة. في قلبِ مدينتنا، ستجدُ قلعةً بديعةً تميّز المدينة عن غيرها، نسمّيها قلعة برقوق، بناها الأمير يونس النورزي لتكونَ نزلا للتجّار القادمين أو العائدين من مصر إلى الشام.

من القلعة وبانيها، أخذت المدينةُ اسمَها.. ها أنا أعيدُ عليكَ ما كان والدي يخبرني به في طريقنا إلى السوقِ أو القلعة، كنتُ أمسكُ بيدهِ متحمّسة ونحنُ نركبُ الحافلة إلى وسطِ خان يونس، كان يريني الأماكن، ويشرحُ لي أسماءَها ومعانيها وكيفَ عاش الناسُ قبلنا، هو التاريخ الذي نتلقّفه من أفواه آبائنا. علمتُ من أمّي أنني ولدتُ في يوم باردٍ جدّا، ما عادت تحسّ فيه بأصابعِ قدميها، رغم الجواربِ الصوفيّةِ التي ألبسها لها أبي، كانا ينتظرانِ الابن الثاني، ولم يستاءا لكوني أنثى، فقد حصلا على ذكرٍ مسبقًا سمّوه زبدًا. والدايْ من المجادلة، وكانا قد نزحا من مجدل عسقلان، ترعرعا في مخيمٍ واحدٍ. وكان يكبرها بسنتين، أغرم بها منذ ذلكَ الوقت حتى تزوّجها.

لا أعلمُ إلى أيّ حدّ أحبّ مدينتي وإلى أيّ حدّ أكرهها، كأنّ الحبّ والكراهية أصبحا شيئًا واحدًا بالنسبةِ لي! ستقولُ لي أنتِ تحبّينَها ولا تعلمين، ستغادرينها لتعودي إليها بعد شهرٍ واحدٍ؛ وأتخيل بأنني في اليوم الذي أغادر فيه لن ألتفت إلى الوراء، ولن أفكّر بالعودةِ حتى لمقابلةِ والّديّ. أنا أحفظ هذهِ المدينةَ الكئيبة عن ظهرِ قلب، دكاكينَها، أزقتَها، كلابَها وقططها، منازلها التي هُدّمت والتي لم تهدّم بعد، أعرفُ كلّ حيّ، كلّ دكّانٍ، كلّ شجرةٍ، كلّ حفرةٍ، يمكنني التجوّل في شوارعها مغمضة العينين ولن أضلّ طريقي. في المحلّات، كلّ ما أراهُ رأيتُه من قبل، حفظتُ الفساتين والحقائب وأزواج الأحذية بألوانها ومواقعِها. في المطاعم، أعرف طعمَ الطبق الذي سيقدّم لي قبل تقديمه، الأمرُ أشبه بأن تصبحَ مرغمًا على مشاهدةِ فيلم شاهدتَه عشرات المرّات، حفظتَ فيه حتى

ما يرتدي الممثلون وما الذي سيقولونه.. ترى كيفَ يعيش الناس في الخارج؟ لا بدّ أنّهم يتجوّلونَ في شوارع واسعة ونظيفة ومدنٍ مفتوحة، يذهبون إلى الحدائق، ويرتادون المسارح وصالاتِ السينما من حينٍ لآخر، لا بدّ أنّهم يجرّبونَ أكلًا لم يتذوّقُوه من قبل، وأثناء إجازاتهم يسافرون إلى بلادٍ لا يعرفون عنها شيئًا.. هذا ما يلزمني التعرّف على كلّ ما أجهلهُ حتى أتعرّفَ عليّ.

ما زلتُ يافعةً! شابّة لم تكمِل عامَها الثالث والعشرين بعد، لكنّكَ تعلمُ جيّدًا أنّنا نكبرُ بسرعةٍ هنا، والأطفال لا يتسنّى لهم عيش الطفولة ببسّاطتها وتفاهتها، علينا أن نشرحَ للعالم بأنّ الطفلّ الذي يحلمُ بتعلم استخدامِ البندقيّة ليسَ إرهابيّا، لكنّه يخافُ ألا يكونَ قادرًا على حمايةِ أمّه إن دخل جنديّ بيتَهم بنوايا سيئة! بالمناسبة توفيّ مصطفى، قريبي من بلدةِ بني سهيلا، مصطفى الرجلُ الذي يضحِكُ الجميع ويحتفظ بدموعه لليل.. لو تدري في أيّة ظروف غامضة مات؟ قيل فقد توازنه وسقط على صخرة حطّمت جمجمته، الغريب أنّ هذا السقوط المفاجئ حدث بعد إبدائه لسّخطّهِ من الحكومة في مجلسٍ عام، تصوّر أن يقتَلَ المرء فقط لأنه تكلم بصوتٍ عالٍ؟ أن يقتلنا الآخرُ هذا أمرٌ اعتدنا عليه، ولكن أن يقتل بعضنا البعض الآخر فقط لأنّنا اختلفنا في الرأي، هذا موتٌ فيه الكثير من العار والألم. هل أخطئُ إذا سمّيتُ مصطفى شهيدًا؟ إن كنتُ أؤمنُ بأنّه منحَ عمرهُ مقابلَ أن يفتحَ فمه ويقولَ كلمتَه؟

رسالتكَ الثانيةُ كتبَها رجلٌ نسيَ كيفَ يضحكُ، وخسرَ موهبتهُ في التظاهرِ بأنّه بخير. أندمُ الآن على كلّ ما كتبتُه، وصفتُ

مدينتي بالسجن، وتذمّرتُ من غزّة بوقاحةِ التي تتذمّرُ من أمّها ليتيم! أريدكَ أن تغمضَ عينيكَ في لحظاتِ إحباطك، وترحل بروحِكَ بعيدًا كما كان يرحلُ غريبُ ألبر كامو في سجنِه. قال لو أنّهم يحتجزونني في جذع شجرة كنتُ لأعدّ النجوم وأستمتعَ بمراقبةِ السحبِ والقمر، في مخيّلتك لا تتردّد بعيشِ المستحيل، فليكن الحلمُ الملجأ الذي تمارسُ فيهِ حرّيّتكَ، تذكّر أيضًا: هناك زوجُةٌ تنتظرُ عودتكَ بصبر، وأطفالٌ يشتهون الانطلاق إلى الحياة! أنا أضيء كلّ ليلةٍ شمعة في النافذة بعد منتصف الليل، كما كانت تفعل النساءُ قديمًا في الحروب، صلاةً منهنّ إلى الله كي يعود أحبّاؤهنّ سالمين.

(٣)

قصّتنا التي بدَأتْ بـ «لايك وكومنت»، كان يعقلُ لها أن تنتهي بِـ «بلوك» مثلَ قصصِ الحُبّ العنكبوتيّةِ، إلّا أنّني لا أجرؤ على نعتِكَ بالحبيبِ الافتراضيّ، لأنّكَ لستَ رجلًا وهميًا؛ وحذفكَ من ذاكرتي لا يشبهُ إلقاء ملفّ إلى سلةِ المهملات، حتى النسيانُ لا يحدثُ بنقرتين.. كنتَ لتظلّ عالقًا داخلي، سيلزمني كمّ هائلٌ من الوقت لأتعافى من جرحِ رحيلك، ما نحنُ بآلاتٍ، وما الحبّ بأسطوانةٍ نضعها في فمِ الجهاز متى شئنا لنسحبها متى مللنا، الآلةُ تحذفُ الصورَ والرسائلَ إلى الأبد، لن تهملَ شامةً سقطت، ولن تحتفظ بوردة افتراضيّة لا تذُبل. الآلة تبتلعُ كلّ شيءٍ، أمّا نحن الأشقياء فلا نُشفى تمامًا، نحتفظ دائمًا بما يسبّبُ نكستنا. مخطئ من يحسبُ النسيانَ ممحاةً تعيدُ الذاكرة إلى نقائها الأوّل، ثمّة ندوبٌ ترافقنا إلى القبر كأفعالنا الطيّبة والخبيثة. وفي النهايةِ، قد نحبّ القاتل نفسهُ الذي سنكرههُ لاحقًا، لكنّنا في الحالتين لا ننسَى ملامحَه أبدًا.

أنت إذن رجل موجود بجسده ودمه وجيناته، ولد في مدينة قديمة تسمّى الخليل، في اليومِ الرابع عشر من شهرِ نيسان، قيل إنّه لم يبكِ عندما انزلق من رحمّ والدتِه، ولم يصرخ عندما ضربت الداية مؤخرته كي تتأكّد من أنه حيّ. سعلتَ مرّتين وعدتَ إلى نومك. إذا رغبتُ بوصفك، سأقولُ بأنّكَ شابّ أسمر وطويل، يداكَ كبيرتان ملطّختان دائمًا بألوان الزيوت السوداء التي تعالجُ بها السيّارات، الليل هو لونُ عينيك وشكلهما

شكل حبّتي لوز، أنفكَ دقيق، وشفتاك رفيعتان، تواظب على حلق ذقنك، ذلك الثقب الصغير فيه أحبّه، والغمّازةُ النائية على خدّك أعشقها، شعركُ أسود، أذناك صغيرتان، ابتسامتكَ خريفيّة، أسنانكَ فاتنة، متراصّة ومرتّبة على نحوٍ جميلٍ، صدركَ عريض وساقاك طويلتان، هذا كلّ ما أعرفه عن جسدك.. الباقي سأكتشفه بنفسي عندما نلتقي.

آخر ما تنبّأ بهِ هذا الشابّ الخليليّ أن يحيكَ لهُ القدر قصّةَ حبّ من خيوطِ المستحيل، عندما ربطهُ بصبيّةٍ تعيش في مدينةٍ محاصرة لا يخرجُ منها سكّانها، ولا يدخلُ إليهم سّكّانُ المدن الأخرى. حاولتَ كثيرًا التخلص من هذهِ الورطة، وكلما حاولتَ الهرب تشبّثتُ بكَ، كأنّك الرجلُ الوحيدُ على الأرض، مثل القصّة القديمة التي يحاول فيها الأب الفقير التخلص من أطفالِه في الغابة فيجدون دائمًا طريقهم إليه. كنتُ لكَ أكثر من صبيّةٍ تسليك خلفَ الشاشةِ الصغيرة، كنتُ حياةً ووطنًا. قلتَ لي مرّةً: «نحنُ لا نبّحثُ في المرأةِ سوى عنّ وطن كيتيمٍ، مذ فتحَ عينيه يخبرونه أن أمّه ماتت، لكنّه لا يصدقهم، لأنّه يراها حيّةً في كلّ الأمّهات!» وعندما حدّثتكَ عن اللقاءِ، كتبتَ لي:

«نعيش على وطن ممزق، ننتظر بيأس أن ترتقه يد الله! تقفين أمامي على الضفّةِ الأخرى، أراكِ بملامحكِ المشرقة، بقلبِكِ المُحبّ، لكن لا يمكنني الوصولُ إليكِ لأضعَ رأسي على صدركِ وأبكي، كما لو أن بيننا بحرًا وليس ثمّة زورق. إن حاولَ أحدنا عبورهُ ليصلَ إلى الآخر يموت. ها هو ذا المسجدُ الأقصى لا يبعد عنّي أكثر من ساعة، لكنْ حتى أؤدّي صلاةَ الفجرِ فيهِ، يلزمني تصريحٌ من رجلٍ غريب؛ وهذا الغريب

الذي يتقاسمُ معي أرضي يجدُ كلّ الأسباب لمنعي! كلّا لن أعدكِ باختلاقِ معجزة، لستُ رجلًا خارقًا كي أطيرَ إلى القطاع وأحملكِ على ظهري لترَيْ البلاد من السماء، ولا إلهًا لأعيدَ صياغة الأقدار! أنا مجرّد رجلٍ بسيط يعيشُ كما يعيشُ أبناءُ شعبِه».

لا بدّ أنّكَ، وقد أسِرتَ، تفكّرّ بقصّتنا المستحيلة أكثر من أيّ وقت.. إحساسٌ داخلي يخبرني أن جدارَ المستحيل سينقضّ ذات يوم. كلّا، ليسَت شمعة الأمل التي تضيء قلبَ كلّ عاشقة، إنّه حدسٌ قويّ يشبه حدس الأمّهات...

أكتب لكَ هذهِ الرسالةَ في ظلّ شجرةٍ عجوز، أطلقت جذورها في بلدةِ عبسان، بلدة تبعد عن المدينةِ بضعة كيلومترات، أحبّها ويطيبُ لي المكوث فيها، لأنّ المساحات الخضراء المحيطة بالبيوت تبعثُ السلامَ في نفسي، أنا في زيارةٍ لعمّةٍ مريضة، وحيدة وعمياء، تعيشُ في بيتٍ كبيرٍ يزيدُ من وحشّتها، بناهُ لها ابنها وغادر البلاد.. قبل مرضِها، كانت تقومُ بكل شيءٍ بمفردها أفضل من امرأةٍ مبصِرة، سيبهركَ أثناء دخولك لمنزلها أن تجد كل شيء في مكانه، الوسادات، المزهريات، الكؤوس، إطارات الصور.. كيفَ لامرأةٍ كفيفة أن تكونَ دقيقة في ترتيبِ الأشّياء لذلكَ الحدّ؟ ستُعجبُ أيضًا بعينيها الزرقاوين الصافيتين، وتتألمُ لجمالهما الفارغِ من الرؤية..

ترهقني الأعمال المنزليّة.. أقومُ بكلّ شيء بمفردي، أنظّف هذا البيتَ الكبير، أطبخ، أغسل الأواني، وأطعم الدجاج وأهتمّ ببستانها. سأعترف بأنّني أحيانًا أنقم على والدي، لأنّه أرسلني لمساعدتها، لكنّني أنسى تعبي ونقمتي في اللحظةِ التي أضع

فيها الطعام أمامها، لأرى ابتسامتها وهي تقول: «الله يرضى عليكِ يا ابنتي». حين أنتهي من أشغالي، أتجوّل في الخارج، أتمشّى وأفكّر وأمتّعُ عينيّ مشفقةً على العمّة المسكينة: تعيشُ في جنّة تعجزُ عن رؤيتها... والآن، قبل أن أطوي هذهِ الورقة، أودّ لو تكتب لي في رسالةٍ قادمة عن تفاصيل يومك. صف لي زنزانتك وخربشاتها، الأكلَ الذي يقدّمونهُ لك، حدّثني عن رفاقك واحدًا واحدًا، أريدُ واقعكَ كما لو أنّني أراه.. اشتقتلك كتير يا قلبي، وفي المغرب العربي يقال توحّشتك. أحبّ هذه الكلمة، لأنّها تعبّر عمّا أشعرُ بهِ، أي أشتاقكَ حدّ التوحّش.

(٤)

عدتُ إلى بيتنا لأقضي عيد الأضحى مع عائلتي، وجدتُ خروفًا في الحديقةِ أزعجني بمعمعاتهِ المتواصلة، فتحتُ النافذةَ وذكّرته شامتةً بموعدِ ذبحه صباحَ الغد، حدّق إليّ مصعوقًا كما لو فهمَ لغتِي البشريّة! حرّكَ فكّه السفليّ ورمقني بنظرةٍ حزينةٍ، خرجتُ لأعتذرَ بطريقةٍ ما عن نبرتي القاسية، أطعمتهُ حزمةً من الحشيش نتفتُها من الأرض، وخاطبتهُ طويلًا، ما كانَ عليّ أن أعقدَ صداقةً مع مخلوقٍ ستكونُ جثّتهُ وليمةً على مائدةِ بيتنا! صبيحةَ يومِ العيدِ.. رأيتُ رأسَ صديقي على أرضيّةِ المطبخ بعينين نصفِ مفتوحتين، لم أفارق سريري، ظنّني كلّ من في البيتِ مريضةً، جسدي كانَ سليمًا، لا عضوَ فيهِ كانَ يؤلمني سوى قلبي، انتشرَ الوجعُ في كلّ أطرافي بعدَ الرسالةِ التي استلمتُها منكَ، كرهتُ اللحمَ ورائحته لسببين: الأوّل، يعودُ للصداقة التي ربطتني بصاحبه؛ والثاني، معرفتي للمعاناةِ التي تعيشُها في السجن، كيفَ أبتلع قطعة كبد مشوية بينما تنام بمعدة فارغة؟ ظل صوتك يتردد داخلي:

«إيش بدّي أوصفِلك لأوصفلك؟ أصعبُ ما مررتُ بهِ هو التحقيق، كان شاقًا عليّ بالذات، فقد كنتُ أحدَ المشتَبَه بهم.. في ذلكَ الصباح المشؤوم، اعتُقِلَ ما يقارب أربعين شخصًا بين شبابٍ وشيوخٍ ومراهقين لا تزالُ وجوههم تنضحُ بالطفولة.. ربطوا عيوننا وقيّدوا أيادينا وجعلونّا نمشّي في صفّ طويل، ثم ركبنا سيّارات الجيب.. طلبوا منّا ألا نكلم بعضنا بعضًا، وعندما وصلنا، تمّ احتجازنا في حجرةٍ مظلمة.

هناكَ، بدأنا نتحدّث همسًا ولا أحدَ يعرفُ إلى أين سينتهي بعد هذا الاعتقال! همسَ أحدُهُم بأنّهم يبحثون عن رجلٍ يدعى كرَم، يتزعّمُ تنظيمًا سرّيًا في الضفة الغربيّة، كنتُ أعرفُ كرمًا واحدًا درسَ معي في الثانويّة، لم يكن أكثر من زميلٍ بعيدٍ لا أعرفه شخصيًا، ولم أشرب معه حتى كأس شاي، كان الرجلُ انطوائيًا ولا يجلسُ في المقهى إلّا مع أشخاص معيّنين، يدخلُ المقهى يبحث ببصرهِ عنهم، إن وجدهم يجالسُهم، وإن لم يجدهم يغادرُ فورًا. كرم هذا لم نرهُ منذ أسبوعين، قيلَ لي بأنّه أثناءَ هذا الغياب كانَ منشغلًا ورفاقه بحفرِ نفقٍ وجهته مجهولة حتى الآن.

عندما حان موعد التحقيق معي، اقتادوني إلى مكتبٍ صغير، جلستُ هناكَ لساعاتٍ حتى فقدتُ إحساسي بالوقت، طرحوا عليّ الأسئلة ذاتَها عشرات المرّات، وكانت أجوبتي لا تتغيّر.. فأنا لا تربطني بالرجلِ أيّة قرابة أو صداقة. قد تتساءلين إن كنتَ تعرفُ مكانه هل كنت لتعترف؟ وسأجيبك في الحالتين ما كانت أجوبتي لتتغيّر! بعد التحقيق، أعادوني إلى الغرفةِ التي كنتُ فيها، غرفةٌ موحشة تتآكلُ جدرانها بالرطوبة، فيها نافذة صغيرة تدخلُ القليلَ من الضوء، كانت تأوي ضعفَ ما تسعُ، لم يكن فيها سوى أفرشة بالية نام عليها كثير من البائسين قبلي؛ كما أنّ أرضيّة الزنزانة لم تكن كافية لننام عليها جميعًا، لذلك، يا عزيزتي، كنّا ننامُ بالتناوب! بعد التحقيق العسكريّ، انتهت معاناتي، تمّ منحي ملابس جديدة وأخذني إلى غرفةٍ يصلح العيش فيها، تحتوي على أسرّة حديديّة وخزائن، أتشارك الغرفة أنا وخمسة رفاق.

الطعامُ سيّئ المذاق، حتى لو قدّموا لنا كمّيّاتٍ كبيرة يأكله المرءُ مرغمًا، كأنّهم وظّفوا عمدًا أسوأ الطبّاخين ليعاقبونا بأكلهِ، اليومَ مثلًا قدّموا لنا حساء الكرنب، اكتفيتُ بالخبز والماء وحبّة مشمش لم تنضج بعد، كم كانت حامضة يا سلمى! تمامًا بحموضة الإذلال الذي نتذوّقه منهم كلّ يوم، يبدأ الإذلال منذ لحظةِ الاعتقال الأولى، اللحظة التي يربطون فيها أعيننا بالعصّابات السوداء، ويجبروننا على الركوع، ثم المشي في صفّ - الواحد منّا متشبّث بقميصِ الآخر، يسمحُ لنا بالطبخِ في غرفتنا، لكنّ الأدوّات الحادّة ممنوعة؛ لذلك نصنعُ من غطاء الطماطم سكّينا نقشر بها الخضراوات. بالمناسبة، أنا أعمّل بنصيحتكِ يا محتالة، أغمض عينيّ وأحلم! يبدو أنّ هذا المخدر يجدي، نهارًا أقرأ صفحاتٍ من المصحف الشريف، وليلًا أضيء شمعةً وأعيدُ قراءة رسائلكِ. اقتحموا ذات ليلةٍ غرفتنا في دورةِ تفتيش، وجدّني أحد الجنود أقرأ رسالتكِ، سخرَ منّي وسلبني إيّاها، لحسنِ حظي أنه أتلفها قبل أن يحاول فهمها وترجمتها عن العربية، وإلا ما كنا لنجدَ طريقةً لتهرُيبِ الرسائل مرّةً أخرى، عندما خرجَ، طلبتُ ورقةً وقلمًا، رحتُ أعيد كتابتها كما أحفظها، كي لا تخونني الذاكرة في الأيّام المقبلة».

كان يحكى لي عن معاناةِ الأسرى، وطالما تعاطفت كأيّةِ مواطنةٍ تتعاطفُ مع أشخاصٍ يتشاركونَ معها القضيّةَ والهمومَ ذاتها، لكنّني ما كنتُ معنيّةً بالتفاصيلِ بهذا الهوس، حتى أصبحَ أحبّ الناس إلى قلبي أسيرًا، لا لشيء سوى لأنّه مرّ من الطريق الخطأ في صباحٍ كان ذاهبًا فيه لشراءِ البُنّ! أنا منشغلةٌ بنسج كنزة صوفيّة خضراء اللون، سألبسكَ إيّاها بيديّ ذاتَ

يومٍ، بعد حمّامٍ ساخن وتدليكٍ لعنقك وكتفيك، أعطّرك لأضعَ بينَ أحضانكَ الطفل الذي سننجبهُ، سنطلقُ عليه اسم والدكَ الشهيد.. أعدكَ بأنّي سأعوّضك عن كلّ أيّام الشقاء.

(٥)

مرّت ستّةُ أشهرٍ كاملةٍ! أثناءَها قسوتُ على الطفلةِ داخلي كي لا ترتكبَ الحماقات التي لا يغفرُها أحد، كانت طفلةً عنيدة لا تتعلم من أخطائها، تكسرُ الألعاب كي تعرفَ ما في داخلها، ثم تبكي طويلًا لأنّها كسرَتْها! أصبحَت مثل تلميذةٍ ترتادُ مدرسةً داخليّة، شعرُها مرتّب، حذاؤها مربوطٌ جيّدًا، تجيبُ برصانةٍ إمّا بنعم وإمّا بلا، تستيقظُ في الساعة السادسة بالضبط لا دقيقة ناقصة ولا دقيقة زائدة، تجلسُ وتقفُ بظهرٍ مستقيم، تأكلُ بفمٍ مغلق وتمضغُ اللقمةَ جيّدًا، وعندما تنهي طبقها لا تطلبُ المزيد. تدرّبت على حبسِ الدموعِ، حتى تعود أدراجها وكيفَ تموتُ بصمتٍ قبل أن يستيقظ النيام، الطفلةُ الشقيّة لم يكن يحبّها أحدٌ سواي، والطفلةُ المنضبطة يحبّها الجميعُ عدَاي!

مرّت إذن ستّة أشهرٍ كاملة، تزيّنتُ لكَ مساءَ الاثنين كعروس، انتظرتُك على شرفة السكايب، لكنّكَ لم تأتِ؛ أخبرني شقيقك أنه تم تمديد اعتقالك لستة أشهر أخرى، أجمل ما حدث أنّي تعرّفتُ على والدتكَ الطيّبة، سيّدة حلوةُ الملامح لها شامةٌ جميلة فوق حاجبها وابتسامةٌ دافئة، امرأة هادئة تحّيط بها هالةٌ من الحزن، تبدو وهي تحدّق بعينيها الدامعتين أنها جاهزة دائمًا للبكاء، تحدّثَت لي عن تفاصيل التصاريح ومشقّة زيارتك، كيفَ تنتظرُ لساعات طويلة لتتحدّث إليك لدقائق، وأحيانًا لا تراك!

اعتقلوا كلّ شبابِ الخليل بحثًا عن المدعو كرم، رجلٌ مجهولٌ، ربّما تمّ اختراعه كذريعةٍ لاعتقالِ المزيدِ من رجالنا!

حتى أنتَ تقولُ بأنّكَ لا تعرف من يكون، يقولون هو مقاومٌ شابّ من جيل الثمانينيّات، وأستغربُ كيفَ لشابّ يافعٍ لم يغادر مدينته من قبل، ولد ودُفن فيها حيّا، أن يكونَ خطّرًا على أمنِ الاحتلال؟ ما الذي تعلمه، من علمه؟ وكيفَ تعلم؟ وما الذي بإمكانهِ فعله؟ كيفَ لفردٍ واحدٍ أن يسبّب كلّ هذا الذعر لهم؟ والشقاء لنا؟ لأبرياء يعتقلون كلّ يوم بلا ذنبٍ، فقط لاحتمالٍ ضئيلٍ بأن يكونَ هو.

أتخيّله شابّا أسمر ضخمًا أو رياضيّا على الأقلّ، ملامحه حادّة وغاضبة، شخصًا معقّدًا تحيط به هالة من الغموض، قليل الضحك والكلام! ستكون صدمة لو أنّي أرى مظهرًا آخر له، إذا تمّ اعتقاله سيلتقطون له الكثير من الصور وبضعة ڤيديوهات وهو يسير إلى المحكمة، يقول كلمة أو اثنتين بثقة لإعلامِ العدوّ، تخيّل لو كان في النهايةِ شابّا قصيرًا بمُلامحَ بريئة وضحكة بلهاء، تمّ انتقاؤه لتأديةِ هذا الدور؟ ستكون خيبة كبيرة لي ولهؤلاء الذين اعتقلوا على أنه هو، سيقولون ها نحن خسرنا حريتنا، ومكثنا في السجن كلّ هذا الوقت بسببِ هذا الفأر الصغير!

أعلمُ بأنّ ما سأكتبهُ الآن سيبدو أنانيّا وصادمًا وحقيرًا إلى حد ما، إلّا أنّني سأكتبهُ رغم ذلك، لأنّني صادقة وأحترمُ في نفسي هذهِ الفضيلة، حتى لو عرّتني من فضائل أخرى! أتمنّى من قلبي أن يعتَقل كرم، أتمنّى أن يتمّ كشفهُ والتحقيق معه حتى لو كان مقاومًا كما يقولون! حتى لو كان يبذل مجهودًا عظيمًا أملًا في تحرير هذهِ الأرض الممزّقة، لسببٍ واحد.. لأنّ اعتقال وتعذيب عشرات الآخرين ليسَ عادلا، كم من الوقت سيمكث

الواحد منهم؟ بعضهم لأيّام وبعضهم لشهور وآخرون لسنوات، بعضهم لن يغادر السجنَ حتى يموت.. نعم، لأنّني أؤمنُ بأنّهُ ليسَ ثمّة بطل خارق يحرّرُ البلاد، أحلم بالحرّيّة لأفرادٍ آخرين..

دعني الآن أروي لكَ ما يدور في بيتنا، قد تضحك بينما تقرأ هذا الخبر الطريف.. تقدّمَ لخطبتي المحامي الذي جلسَ إلى جانبي في الباص، ومسحَ أنفه بتذكرته ذات صيفٍ خانق؛ كان يرتدي بذلةً رسميّة، وضع محفظته بين ساقيه، رفع القصاصة الصغيرة ومسح بها أنفّه، وأعادها إلى جيبه كمن يعيدّ منديلًا! قلتَ ساخرًا: «منيح إللي ما مسح منخاره بالمنديل إللي على راسِك».

استفسر أبي عن سببِ كراهيّتي المبالغِ فيها لهذا الرجل، حدّثتهم بأنّني رأيته تثاءبَ مرّةً ولم يضع يده على فمه، قال أبي: «شو هالجريمة هاي؟ تبقي علميه يحطّ إيده لمّا يثّاوب»، أجبتهم:

«ينفعش. هذا واحد معفن، بدي أتزوج أنا ولا بدي أربي؟!» علم أبي لاحقًا السببَ الحقيقيّ لرفضي، قال متعاطفًا «يا بنتي حتى لو طلع الأسير هاد من الحبس، هو من الخليل وأنتِ من خان يونس بيقدرش يتزوّجك». شقيقي زيد عاقبني بتغيير كلمة سرّ الإنترنت، ما بفهم ليش الشابّ عنّا هالقد شهم مع حبيبته وهالقد نذل مع أخته؟! قلتُ لهم كانت لي نافذة واحدة أتنفّسُ من خلالها، قمتم بتشميعها، لو كنتَ موجودًا كنتُ لأضربَ عن الطعام، لكنّكَ بعيدٌ.. والكمبيوتر الذي لا يحملُ لي وجهكَ لا يحمل لي أيّ فرحٍ.

(٦)

ما زلتُ أذكرُ اليوم الذي امتحّنتَ فيه ثقافتي، وجدتَ رأسِي فارغًا إلّا من قصصِ الحُبّ، كمحققٍ جنائيّ رحتَ تنبشُ باحثًا عن أثر قصيدةٍ، روايةٍ على الرفّ أو قصّة مهملة في درجٍ منسيّ، وجدتَ ثقافتي تقتصرُ على أفلام السينما والموسيقى الحديثة، رحتَ تسألّني عن شعراءٍ ومفكرين وروايات عالميّة، كدتَ تفقدُ صوابك كلما أجبتكَ بالنفي. لن أنسى خيبةَ الأمل على وجهكَ، مثل مسافرٍ قطع مسافةً طويلةً من أجّلِ زيارةِ نهر وما إن وصل حتى وجدهُ فارغًا من مائه، رحتَ تعدد أسماءً أجهلها بانفعال.. تقول كيف أنتِ فلسطينيّة ولم تقرئي الأعمالَ الكاملة لغسّان كنفاني؟ حسين البرغوثي، مريد، توفيق زياد، سميح القاسم وغيرهّم؟ لم أجد أعذارًا تكفرُ عن خطاياي، شعرتُ بالتقصير.. لم أغذ قلبي بنصوصٍ كتبها أبناءُ شعبي بدمائهم، لكن رغم هذا، أسلوبُ لومكَ كان جارحًا، قاومتُ رغبةً في البكاء: «كيفَ تنتقصُ من وطنيتي، فقط لأني لم أقرأ لهؤلاء؟ قد أكون جاهلة، كما تقول، وذوقي رديء، لكنّ أرضي أفديها بالدم، إن كنتَ ترانيلا أليقُ بك. أمامكَ عشراتُ المثقّفاتِ لتحبّهنّ».

أيّها الحبيب، منذُ توقّفي عن الدراسة، فقدتُ شهيّتي لكلّ ما يتعلق بالحبر والورق، كنتُ قد نجحتُ وأخي زيد في الامتحانِ التوجيهيّ، جمعَنا أبي في الصالون يعلنُ عن عدم مقدرتِه على التكفّل بمصاريفِ طالبيْن. وبما أنّ زيد يكونُ رجل العائلة بعد أبي، فمنَ الضروريّ أن يحصلَ على شهادةِ تخرّج. أمّا أنا، كلّ

ما كان يلزمني هو عريس! فقط لو كانَ زيدُ ذكيًا ما كنتُ لأحزن لذلكَ الحدّ، لكنّه كان طالبًا كسولا يتطلب منه النجاح إعّادةَ السنةِ مرّتين. ظلمني أبي عندما اغتصبَ منّي حقًا شرعيًا بالتعلم ليمنحَه بكلّ ذكوريّةٍ لابنهِ البكرِ، تلكَ الخيبة جعلتني أختارُ الجهلَ بمحض إرادتِي، هجرتُ الورق وطلقتُ الكتب وكسرتُ أقلامي، وكدتُ أبترُ أصابعي وأنا أرى أحلامي تبتر في هذهِ المدينةِ البائسة! بفضلكَ أنت، اكتشفتُ هذا العالم الورقيّ الجديد، لم نتحدّث لأسبوعين، خلالهما سجّلتُ اسمي في مكتبةِ البلديّةِ، أخبروني أنّها تضمّ أكثر من عشرة آلافِ كتابٍ، رحتُ أتصفّحُ كلّ ما يقع في يدي بغضبٍ.. أحاولُ حشوَ رأسي بما فاتني كي لا تعايرني بجهلي مرّةً أخرى!

إليكَ رأسِيَ الآنَ.. تعالَ وامتحنّي، افتح أدراجيّ وجرّب الأسطوانات التي أحبّ سماعها، قفْ أمامَ مكتبتي وتصفح الكتبَ التي أحبّ قراءتها.. كنتُ بحاجةٍ إلى تلكَ الصفعةِ منك، كي أعيد النظر في ما أحب وما لا أحب، نظفت أذني وهذبت ذوقي، أصغي إلى الموسيقى بكلّ لغاتِ العالم لأعثر على نغمةٍ تخترقني، أصبحتُ كذلك مدمنةً على القراءة، يعيشُ الأبطال داخلِي، وأتواجدُ ضمن المساحات التي يتواجدون فيها، أحتفلُ معهم بنهاياتهم السعيدة وأمشي في جنازاتِهم إن ماتوا، يصطحبكَ كلّ كاتبٍ في رحلةٍ معهُ، يعرّفكَ على بيئتِه وعالمِه وشخوصِه، ثم تودّعه إمّا سعيدًا أو خائبًا؛ أحبّ أن أراهن أيضًا على روايات مجهولة وكتّاب مغمورين أكتشفهم بنفسي، يشاركني في معرفتهم قلائل من القرّاء المحظوظين، أدركتُ بعد تجربتي أنّ الكوكبَ ليس سوى بيتٍ

واحد يعجّ بسكّانٍ ربّما لا يتشابهون ولا يتحدّثون باللغةِ ذاتها، ولكنّ الإنسان يبقى إنسانًا كيفما كان لونه أو لسانه، السلام هو أن يعمّ الحبّ بين هؤلاء.

بعد أن تصالحنا، قرأتَ لي قصيدةً لمحمود درويش بصوتٍ دافئ وخفيض، شرحتَ لي رمّوزَها وفككتَ القصيدةَ مثلَ طفلٍ يجدُ لذة في تفكيكِ لعبتهِ ليركبها من جديد، وبعدَ ذلكَ، أذكرُ جيّدًا كيفَ تنهّدتَ وقلت: «آخ.. كلّ فلسطينيّ هو مشروع درويش، من أينَ ينبتُ الشِعرُ؟ أليسَ في قلبِ كلّ شاعرٍ بذرّةُ ألمٍ؟ في قلبِ كلّ واحدٍ منّا إذن وجعٌ جديرٌ بأن يسجّلَ في معلقاتٍ، تخيّلي لو يتمكّنُ كلّ منّا من ترجمةِ همّهِ إلى كلماتٍ، كنّا لنكونَ بلدَ المليون ونصف المليون شاعر! لدينا الكثيرَ لنقوله، لكنّنا لا نفعل، معظمنا لا يجدُ فائدةً في ذلكَ، لا أحدَ يرغبُ بالغناءِ في أذنِ رجلٍ أصمّ، لكنْ كلّ هذا ليسَ مهمّا، أي ليسَ ضروريًا أن نتحوّل كلنا إلى شعراء، الأفضلُ من الثرثرةِ عن الألم هو إيجادُ طريقة للقضاء عليه، أتعلمين ما الأهم هو ألا نختنق بكل هذا الهمّ، فليعبّر كلّ شقيّ عن نفسهِ بما يجدهُ مناسبًا!».

تحدّثنا تلكَ الليلة عن كلّ شيء قليلًا، ولمّا بدأتُ أنتقدُ سياستنا، قاطعتني بضحكةٍ: «عن أيّةِ سياسةٍ تتحدّثينَ يا سلمى؟ تتهبليش!» أنتِ تنتقدين أشياء ليست موجودة، مثل رجل عارٍ يحدّث الآخرين بصوتٍ عالٍ عن ذوقهِ في ملابس يعجزُ عن امتلاكِها.. يومًا ما، إن استعّدنا ما لنا، سيحقّ لنا الثرثرة عن هذا والاختلاف عن أيّ حزبٍ نرشحهُ ليحكمنا، ونسبّ الساسة ونندم، لأنّنا أدلينا بأصواتنا لصالحهم كما يفعلُ

النّاسُ في كلّ مكانٍ.. مرّةً أخرى أتذكّرُ ما قالهُ درويش: «من حقنا أن نملكَ الوطن أوّلا، ثم نلعنه إن شئنا» قل لي أنت؟ بعدَ كلّ هذا، أترانَا سنبني يومًا ذلكَ البيتَ ونؤثثه على ذوقنا كما يفعلُ الناس دون خشيةِ أن تهدمه جرّافة أو صاروخ؟ هل سنحصل يومًا على تلكَ الأرض التي نزرعُ فيها بذورنا دون أن يحيط بها أحدٌ سياجًا أو جدارًا؟ أم سنظلّ نعيش على أرضٍ ممزّقة وبيتٍ مهدّد حتى نختفي من هذا الوجود؟ لو تعلم كم أحتاجكَ معي، أحتاجك وأشتاقك وأحبّكَ بكلّ نبضة!

(٧)

القصفُ هوَ أن تذهبَ إلى الحمّام كي تتوضّأ من أجلِ صلاةٍ أخيرة؛ وفي طريقكَ إلى الحمّام، لا تعلمُ إن كنتَ ستعودُ حيّا إلى غرفتكَ أم أنّكَ سترحلُ قبلَ أن تقولَ لله كلمتكَ الأخيرة، ثمّة من يموتُ على كرسيّ المرحاض قبلَ أن يقضي حاجتَه! ومن يموتُ بينما يتناولُ طعامه وملعقتُه في يدهِ، أطفالٌ يمشون معًا متشابكي الأيدي إلى السماءِ، القصفُ يحدث، فيموتُ جيرانكَ؛ أمّا أنت، فلا تعرفُ هل تحزنُ لأنّك فقدتهم أم تفرح لأنّك لم تفقد أهلكَ بعد؟ هؤلاءِ الجّيرانِ، الذين اعتقدتَ أنّكَ تكّرههم كالطفل الذي كانَ يزعجكَ كلما رمى كرته في فنائك فتهدده بأنّكَ لن ترجع لهُ الكّرة، رحلَ هو وكُرَتَه إلى الأبد! الجارة المزعجة التي كانت تدق باب بيتكم لتطلبَ حبّة ليمون أو فصّا من الثوم، لن تشمّ رائحة الطبيخِ من بيتِها بعد اليوم! الطالبةُ التي كانت لا تشاهَدُ دون دفاترها نجحت، لكنّها لن ترتاد الجامعة ولن تصبحَ طبيبة، فقد رحلت قبل أن يسعفها الطبيب الذي كان من المفترض أن يكونَ أستاذها! ذلكَ الشابّ المتيّمُ بحبيبته لم يكن ينزلُ الهاتف عن أذنِه، كان يخطّط لزفافه هذا الصيف.. مات!! في القصف يخذلكَ النسيان كما تخذلك الذاكرة، تمامًا كما خذلكَ الوطن، تمامًا كما خذلتَه أنتَ.

غزّة امرأة نصفها حيّ ونصفُها ميّت، مدنٌ تتّشحُ بالرماد تغرقُ في الدخانِ شيئًا فشيئًا. يتساقطُ الناسُ حولي كالذباب، يصلني بكاءُ أطفالٍ جرحى، نحيبُ امرأةٍ أرهقها الصمود، أنينُ

رجل لا يأتي أحدٌ لمساعدتِه، زغاريد أمّهات الشهداء، تقصَفُ حولي البيوت والمدارس وحتى المقابر، نعم.. على الواحد منّا أن يموتَ أكثر من مرّة ليقتنعوا بموتِه! أمّا نحن، لا نفرُّ من الموت، ننتظرُ في بيوتنا أن يفعلَ بنا ما يشاء..

تعوّدنا على الحربِ حتى السأم، يعدّ أبي سجائره ثم يدخّنها بحذر. أحدُق في وجهِه، وأتساءل: «أتراكَ ستموت غدًا أو بعد غد؟» أتخيّله ممدّدًا في تابوت خشبيّ، جنازته وبكاءنا عليه، ثم أطردُ الفكرة من رأسي، تضعُ أمّي العشاء البارد على الطاولة، نتناوله في الظلام على ضوءِ شمعة، يقرأ شقيقي ديوان نيرودا، نستغربُ شهيّته المفتوحة للقراءة، فيقولُ إنّ شعره مناسبٌ لأجواءِ الحرب، هديل مختفية تتحدّث عبر الهاتف مع أحدهم، تقهقه غير معنيّةٍ بما يحدث، أمّي مثل أبي لا تتوقّف عنّ التفكير، أنظرُ إليها، ثم أقول في صمتِي إيّاكِ أن تموتي.. إلا أنتِ لن أسمحَ لكِ بذلك!

يقال إننا شعب يتقن الصمود، والصمود أن يكون بوسعك الصراخ لكنّك لا تفعل، بوسعك البكاء لكنّك لا تبكِ، تبتلعُ غصّاتكَ كلها وتدّعِي أنّك لا تبالي، لكنّك في داخلكَ تبالي وتتألم وتبكي وتتوق للصراخ. تصوّر ثمّة نساء ما زلن ينجبن؟ كيف لا يؤجّلن المخاض أيّامًا أخرى؟ أيّ شقاءٍ هذا أن يصل رضيعٌ إلى العالم تحتَ صوتِ القصف، ويتذوّق مرارة الحربِ في الحليب الذي يسيل من حلمةِ أمّه؟! تبدو أقدارنا متشابهة، أشخاصٌ يظهرون فجأة وآخرون يختفون!

أفكّر الآن في الحياةِ التي عشتُها، وأكتشف أنّكَ كنتَ الفرحَ الوحيد، الوالدُ الذي لا يظلمنِي بذكوريّتِه، الأخ الذي لا

يحرمني من دفئِه، والصديق الذي يتحمّلني ويحملني في قلبِه. أشتاقكَ، وفي هذه اللحظة، لستُ أشتهي أكثر من أن أتكوّم بينَ ذراعيكَ لأنامَ حتى الصباح، وليكن نومي الأخير. قد يكون غريبًا اعترافي أنّي أحبّكَ أكثر من أيّ وقتٍ وأنا على عتبةِ الموت، والأغرب هذا الحدسُ الذي يقول ستعيشينَ عمرًا أطول أيّتها الشقيّة، يقال يشعرُ الإنسان بدنوّه من الموت، إذ يرى علاماتٍ قد يفهمها إن كان يملكُ من الذكاء ما يكفي ليفكّ طلاسم نهايته. أنا لن أرحل الآن، ليسَ قبل أن نلتقي!

أصفُ لكَ ما آلت إليهِ مدينتي، وأنتَ الذي تعاني من الألَمِ ما يكفي لأضاعفه بألمي، المسألة أنّي لا أكتبُ إليكَ إلا لأتعافى. قبل أن أكتبَ، أكون امرأةً تحتَضَر، لا مسكّن في العالم قادرٌ على تهدئة ألمِها القاتل، أكتبُ فيتحوّلُ القلمُ إلى إبرةٍ تخيط الجروح في القلب، والورق إلى ضمادات ناعمة، والحبر إلى دواءٍ سحريّ فأتعافى.. ألملمنِي بكَ، أنظفني من الحزن لأستعيد سلامي. أيّ قدرٍ هذا الذي جمعنا أيّها الحبيب؟ امرأة تعيشُ الحرب، تكتبُ مواجعها لرجلٍ معتقَل، لم يفصِل القضاة بعد في قضيّتِه ليقرّروا إن كان معتقلًا إداريًا أم سياسيًا.

كرَم.. رجلٌ لستُ بحاجةٍ إلى معرفتِه لأكرهه، لا أحبّ أن يدفعَ الناسُ دماءهم وحرّيّتهم ثمنًا لأفعالِ أشخاصٍ آخرين.. لا أحبّ! قد تجيبنِي بما أجبتني بهِ في الرسالةِ السابقة بأنّ المقاومة هي فعلٌ جماعيّ وليست فعلًا فرديًا، لم تدافع عنه ولم تنتقده بشكلٍ مباشر، كنتَ محايدًا في الحديثِ عنه. قلت: «نحنُ لا نعرَفُ شيئًا عن هذا الرجل، إذا كانَ نبيلًا كما يدّعي فداه، وإذا كان خائنًا فنحنُ ندفعُ ثمنَ الاحتلال على أيّةِ حال. وبعدين تعي

لهون! بدّيش تضيّعي حبر وورق وإنتِ عم تحكي عن رجّال تاني وحّياة إلي خلقِك بغار».. أنتَ مجنون الحبر والورق. والكلام كله أدّخرهُ لكَ وحدك.

الموت.. أكثر دروس الحياة تعقيدا

(٨)

ماتَ زيد! لا أصدّقُ أنّهُ فعلَها ومات، كانَ جالسًا إلى جانبي على الأريكةِ ذاتِها، كانَ قريبًا بما يكفي لأتركَ قبلةً على خدّهِ أو أضعَ رأسي على صدرهِ، لكنّي لم أفعل.. آخرُ ما تنبّأتُ بهِ لزيد هو قدر الموت، لم يخطر ببالي أن يكون ذلك الجلوس الرتيب هو اللقاءُ الأخير الذي سيجمعني بأخي، كانَ موجودًا هناك مثل أيّ شيء، مثل مزهريّة أو طاولة أو سجّاد، في تلك اللحظة، لم يكن وجوده مهمًا. لو أنّه اختار المكوث في غرفتِه ما كنتُ لألحق بهِ لأطلبَ منهُ البقاءَ. في ذلكَ الصالونِ المظلمِ، جلسَ بيننا شاردًا لساعةٍ كاملةٍ، كانَ عليهِ قولُ كلمةٍ قبلَ الرحيل كأن يقف ويودّعنا بعناقٍ طويلٍ، يغمرنا بقبلاتٍ حارّة، يخبرنا أنّه هذهِ المرّة وهو يخرجُ من ذلكَ الباب لن يعود، كلّا ما كانَ عليهِ أنَ يموت! لو كنّا نعلمُ أنّه سيفعل، ما كنّا لنجلسَ مثل الحمقى، كان ليُقالَ كلامٌ كثير، كنتُ لأقول له دعني أمتلئ بكَ يا زيد. في تلكَ الليلة، كما لو أن الموت لن يحدث، جلسنا.

كلّ شيءٍ حدثَ بسرعةٍ، تمدّدت أمّي فيُ فراشِها تئنّ بشفتين يابستين، تهذي عن أمّها التي رحلت منذ ربع قرنٍ، عن بيتِ جدّها في عسقلان، عن ينابيعِ الماء وأشجارِ اللوز والرمّانّ، كانت تتحدّث عن أمكنةٍ نجهلها وأشخاصٍ لا نعرفهم، كلما استعادَت وعيها لدقائق تطلبُ رؤيتنا، وعندما تطمئنّ أنّنا نجلسُ حولها تعودُ إلى هذيانِها. على ضوءِ شمعةٍ، حاولتُ تخفيض حرارتِها بالكمّاداتِ الباردة، جسدها كان يحترق

بالحمّى، لكنّ أسنانُها كانت تصطكّ من البرد، غرقت في عرقِها البارد كالتي ستلفظ أنفاسها! جلسنا قلقين نتضرّعُ لله أن تتحسّن حالتها، كلّ اهتمامنا انصبّ عليها، لا أحد منّا رأى الموت يحومُ حولَ زيد، ليلًا كنّا نقصفُ في مدينةِ خان يونس، كنّا نقصفُ بحرًا وجوًا والتجوّل كان محظورًا! وحدهُ زيد قرّر الخروج ليأتي بالطبيب فيعاينَ أمّي، أمسكَه أبي من ذراعيه يطلبُ منه الانتظار حتى الصباح، لكنّ زيد تحرّر من أبي قائلًا: «لا سببَ يدعو للانتظار، منزلُ الطبيب لا يبعد عنّا سوى حيّ واحد».

لم يكترث للطائرات التي تحلّق فوق رؤوسنا، لم يردعه الظلام، لم يرعبه أزيزُ الرصاص الذي كانَ ينزل على رؤوسنا كالمطر، مشى في الشارع واثقَ الخطوات، وكلنا نراقبه من النافذة، نراهُ يغيب! وفي نهايةِ الشارع، تمّ قصفه، سقط زيد، وبعدها لم يتحرّك. كدتُ أصرخ عندما وضع أبي يدهُ على فمي، قال نحنُ لا ننوح إن استُشهِد أبناؤنا، لكنّه ضمّني إليه وبكى! من الغرفة الأخرى، أتانا صوت أمي وقد استيقظت من هذيانها بسبب هلعِنا:

- أينَ زيد؟ ندّعي أنّنا لا نسمع، ابني وين راح بهالقصف؟

يقولُ والدي بصوتٍ يخالطه البكاء: زيد نام!

توقّف القصف، فحملوهُ إلينا من أجل وداعٍ أخير، بدا أجمل من أيّ وقت، رأيته نائمًا كمن يشاهد أثناء نومه حلمًا طفوليًا، سمعتُه يقول لي: «لا يرتاح الفلسطينيّ من هذا الشقاء إلا إذا حصل على هذا النوم الجميل»؛ وحين لم يحتمل قلبي وداعَه بكيت! سمعته يسخر مني: «تزعليش ع الشهيد يا هبلة!»

بكيتُ أكثر! منذ الآن أفتقد شقيقي، أتمنّى أن يستيقظ من موته مرّة واحدة لأخبرَه كم أحبّه، أريده أن يعود مرّة واحدة لأكّون له أختًا أفضل، لكنّه لن يستيقظ ولن يعود. تمشي أمّي مترنحة بسبب مرضِها، تزغرد بصوتٍ مبحوح ودموع تتسرّب من عينيها، لا يفهمُ من يسمعُ هل تزغرد أم تبكي! تحاولُ أن تسأل الله: لماذا زيد؟ ثم تنظر إلينا، فيهربُ منها السؤال، تفهمُ أنّ زيد لن يعود، نحنُ كلّ من تبقّى، تطلب منّا جميعًا أن نجلس تحتَ جناحيها، لا تنام، تعانقنا خائفةً أن يسرقَ منها الموتُ أحدنا.

كلّ شيءٍ يخصّه هنا إلّا هو، ها هيَ ملابسهُ معلّقة خلفَ الباب، كأنّه سيعوُد بعد دقائق ليرتديهَا، ها هي أحذيته الرياضيّة تنتظرُ أقدامًا تنتعلها، هاتفه الجديدُ على الطاولة يرنّ، أحدهم يعتقدُ أنّه ما زال حيّا! جهازُ الكمبيوتر مفتوح، إشعاراتُ الفيسبوك ما زالت تصله، إعجابات لصورته، سريره ممدّدٌ ينتظر عودته، ملاءاته مكومة كما تركها، قطته جالسة في زاوية الغرفة كأنها تستوُعبُ رحيله أو بدأت تشتاقه، على الطاولةِ علبة سجائره، أوراق الجامعة، كم حسدته فقط لأنّه رجل يعيش الحياة كما يشتهيها! ها قد خسرَ هذه الحياة التي كنتُ أحسده عليها، لا أصدّق أنّي لم أدرك كم أحبّكَ إلّا بعدَ انتهاءِ كلّ شيء..

السؤال الذي لا أكفّ عن طرحه على نفسي هو لماذا كنتُ سيّئة لذلك الحدّ؟ لقد أهملتُ أخي، لم أعاملهُ يومًا بحبّ! كنتُ ألعنُ القدر الذي جعله سيّدًا في بيته، لأنّه ولدَ ذكرًا، وجعلني خادمة في بيتي فقط، لأنّني ولدتُ أنثى! لماذا لم أعانقه كما

تعانق الأخوات أشقّاءهنّ، لماذا؟ أكتبُ لكَ ولأخي في محاولة بائسة للتعافي، أريدُ الآن أنّ أغمض عينيّ وأحظى بنومٍ عميق. عندما أصحو منه، أدرك أن كلّ ما حدث كان مجرّد كابوس، أريد لأيّ أحد أن يوقظني ويقول لي زيد يطلب منكِ أن تعدّي له كوبًا من الشاي، ولكنّي لستُ نائمة ولن يوقظني أحد ليطلبَ منّي أن أعدّ الشاي لأخي، لأنّ زيد ما عاد يريدُ شايًا!

(٩)

أثناء شرودي، يحدثُ أن أضعَ على الطاولةِ طبقًا إضافيًا لزيد فتنسكب دمعة. يحدثُ أن أسمعَ رنينَ مفاتيح وراء الباب، فأرتعش إذ أتخيّل زيدًا عادَ للتوّ مرهقًا من الجامعةِ، سيرمي محفظته البنيّة على الأريكة، يتّجهُ بعد ذلك إلى الثلّاجةِ مباشرة، يقف متأمّلًا لدقيقتين ليبحث بعينيه عن أيّ أكلٍ يسدّ بهِ الجوع، يعود إلى الصالون وفي يده اليمنى طبق، وفي يدهِ اليسرى كوب عصير. يتابعُ التلفاز، بينما يتناول أكله بهدوء.. كان دائمَ الشرود! ترى، ما الذي كان يشغلُ باله طيلة تلك السنوات؟

كيف فاتتني محاولة الغوص في رأسِه وقلبِه، لم أبذل أيّ مجهود، لم أكن معنيّةً بعالمه، اليومُ كلّ ما أقومُ به هو محاولة التعرّفِ على غريبٍ كانّ أخِي! أتخيّله حاضِرًا، وعندما يصفق والدي البابّ، أتذكّرّ أن الموتى لا يعودون، لا بدّ من قبولِ هذه الحقيقة لكني لم أتعلم بعد كيف أقبلها، ستقول لي سيمضي وقتٌ وتنسين، لست أول ولا آخر من فقد عزيزا، لا أعتقد بأنني سأتعافى من هذا الوجع بهذه السهولةِ! رحيله غيّرني، جعلني أكتشفُ أعماق أعماقَي، حبّي لهُ يشبه بركانًا كان خامدًا داخلي، وانفجر فجأةً ليحرق ويغرق كلّ شيءٍ بحمَمِه، كم يحزنني هذا الاكتشاف المتأخّر! أؤكّدُ لكَ: أحبّاؤنا نحبّهم أكثر وهم يرحلون!

زيد لم يكن يشبهنَا، بل كان يشبهُ عمّاتي، والدي يشبه جدّي الأسمر، وعمّاتي يشبهن جدّتي الشقراء. كان زيد الأشقرَ

الوحيدَ في عائلتنا، الفرد الفريد بيننا! بقامته الباسقة وشعره البنيّ وعينيه الزرقاوين، حتى ابتسامته كانت مختلفة، نادرًا ما يكشف عن أسنانه الأماميّة، وحين يفعل يذهلُ الجميعَ بأسنانِه البيضاءِ والمتراصّة، طالما حسدته على كلّ شيء، على الوسامة والتعليم ومحبّة أبي العظيمة له، كلّ العالم كان يدورُ حولَ زيد، وأنا وهديل ولينا لم نكن سوى نجوم صغيرة تسبح في فلكِ زيد!

ينبغي أن أعترف الآن أنّ شقيقي لم يكن غبيًا، كما ذكرتُ في رسالةٍ سابقة، كان يميلُ للأدب ووالدي قرّر له أن يكون طبيبًا، ولذلك السبب كان يرسبُ كلّ سنةٍ، لأنّه كرهَ المجالَ الذي وجد نفسه مرغمًا على دراستِه.. الآن، وأنا أتصفّحُ النصوص التي كان يكتبُها أندهش لعمقِها. أخي كان شاعرًا، وهذه حقيقة أخرى، الآن فقط اكتشفتُها. هل كان شرقيًا ذكوريًا كما كنتُ أدّعي؟ ربّما! كان يغار عليّ كما يغار العاشق على حبيبته، يجنّ إن حدّق بي رجل بعينين خبيثتين، ما كنت أكرهُه هو حرصُه المبالغ فيه، لقد أحبّني أخي حقًا ولم يقلها يومًا وأحببته ولم أقل.. لماذا لم نعترف بهذا الحب الأخوي الطاهر ببساطة، كما يعترفُ العشّاق لبعضهم بعضًا؟ لماذا لا نحبّ بعضنا بعضًا كما يجب إلا وأحدنا يرحل إلى عالمٍ بعيد؟!

كان مولعًا بمسرحيّاتِ الممثّلِ المصري عادل إمام، لا يملّ من مشاهدتِها، حتى إنّه كان يحفظ حرفيًا حوارات من المسرحيّات، يُعيدها على مسامعنا ممازحًا، أتذكّرُ الآن تقمّصهِ لدور بهجت الأباصيري في مسرحيّة مدرسة المشاغبين: «شفتيني وأنا ميّت؟ بجنّن وأنا ميّت ها؟ «أبكي وأنا أتذكّرُه

يقول هذه الجملة بالذات. أبكي، لأني رأيته وهو مستلق قبل أن يحملوه بعيدًا.. أبكي، لأنّه فعلًا كان يجنّن وهو ميّت! هل كان عليه أن يحفظ هذه الجملة؟ هل كان عليّ استعادة هذه الذكرى الآن؟ أمس كانت مضحكة، اليوم أصبحت موجعة في العمق.

أدخلُ غرفتَه وأفتّشُ أغراضه، كلّ شيءٍ وقعت عليهِ يدُه ألامسُه، أتخيّلُ من خلالِ هذهِ الملامسة للأشياء أنّني أصافحه، أشمّ قميصهُ وأرتديه، أتعطّرُ من عطرهِ المفضّل، أشاهدُ صوره، يبدو في معظمها حزينًا، مثلما لو كان يدري أنّهُ لن يعمّر، أتجسّسُ على صفحةِ الصبيّةِ التي كان يحبّها، زميلتُه في الجامعة وملهمةُ قصائدِه، وجدتُها مجرّد امرأة عاديّة، لم تكن فاتنة كما توقّعت، تسكنُ في مدينةِ رفح، وتدرسُ الطبّ وتكتبُ قصصًا قصيرة، من مواليدِ برجِ القوس، أيْ امرأة متمرّدة وجارحة، أمّا زيد فكان من مواليدِ برجِ العقرب، رجلًا هادئًا، غامضًا وغيورًا، تجمعُ بينهما قواسم مشتركة، بالإضافةِ إلى أنّهما من مواليدِ الشهرِ ذاته تشرين الثاني، لا عجب أنها من القطاع. لم يكن يحبذ إقامة علاقاتٍ عن بعدٍ، بل يشفقُ على الذين يختارون المستحيل بمحض إرادتهم، كان رجلًا جديرًا بالحُبّ، ذكيًا ووسيمًا وشاعرًا.

وجدتُ مفكّرة سوداء تحمل ما كان يخطرُ ببالِه أو قد يغيب، أسماءُ كتّاب وشعراء، عناوين أفلامٍ وكتب، قصائد مبعثرة، رسومات تشبهُ الطلاسم لا يفهمها سواه، وجدتُ جملةً تحملُ اسمي، كانت بمثابةِ ولادةٍ جديدةٍ، كتبَ عنّي: «سلمى الصغيرة تجهل كلّ شيء، لأنّها تعتقدُ أنّها تعرف كلّ شيء! مصيبةُ

جهلها تكمن في هذا الاعتقّاد، لن تتعلم حتى تؤمن بأنّها لا تعرف شيئًا» هذا كلّ ما كتبه عني، شقيقي الذي لم أصغِ إليه حتى فارق الحياة.

(١٠)

في غرفتكَ قد تعلّقُ لوحةً على الجدار لسنواتٍ طويلةٍ، حتّى تصبحَ جزءًا ثابتًا من الجدار والغرفة والبيت.. لا تفكر بالتخلي عنها، لأنّها مثل شامةٍ ولدت معّك أو أصبع زائد تعوّدتَ على تواجده في نهايةِ يدك، يعقلُ للوحةِ أن تسرق ذاتَ يوم مثلما تُسرقُ كلّ الأشياءِ الثمينة، أحيانًا لا تسرقُ الأشياء لقيمتها.. لا تؤخذ منك إلّا لأنّها عزيزة عليك، ستعودُ إلى البيتِ منهكًا، وتشعر بأنّ شيئًا ناقصًا في غرفتك، شيئًا تحرّكَ من مكانه! وتلاحظ الجدار بعد تأمّله خاليًا منها، آثار مستطيلٍ من الفراغ، ستستعيد تفاصيلها في ذاكرتك، فأنتَ تذكر جيّدًا ألوانها، خطوطها، حجمها وأبعادها، كلّ تفصيلٍ منها حاضرٌ في ذهنك، لكنّك لن تراها بعد اليوم.

التسمية الدقيقة لهذا الإحساس هوَ «الفقد». لم تكن تعلمُ أنّها تعني لكَ كلّ هذا بسببِ اعتيادكَ عليها.. لم تعلم، لأن الحضور الدائم يبني جدارا من الغياب الافتراضي بيننا وبين من نحِبّ، والغياب الكليّ يخلقُ حالةً كاملةً من الحضور. ذلكَ الألم سبّبته مجرّدُ لوحّةٍ أحببتَها، شيءٌ تمّ صنعُه من كرتونٍ وزيوتٍ ملوّنة، ماذا لو تعلق الغياب بإنسانٍ يفيضُ بالتفاصيل؟ شخصٌ أتى إلى العالمِ من الرحمِ ذاتِه الذي أتيتَ منه، يحملُ دمكَ في عروقِه وبعضًا من جيناتك، عشتَ معه في البيتِ نفسه لأكثر من عشرين سنة، ولدَ في قلبكَ في اللحظةِ التي ماتَ فيها.

لينا أصغرُ شقيقتيّ وأجملنا، لم تكمل عامَها الخامس بعد،

أتت إلى هذا الكونِ بغلطةٍ، كما تسمّيها أمّي، لكنّها تضيفُ دائمًا بابتسامةٍ «لينا أجملُ غلطةٍ ارتكبتُها!» ربّما عندما تكبرُ لينا لن تغفرَ لأمّي هذهِ الغّلطةِ الفادحة.. تمضي الصغيرةُ وقتها في اللعبِ بدميتِها، تمشطُ لها شعرها، تغيّرُ ملابسها وتطمئنها قائلة: «تخّافيش إذا استشهدنا منروح سوا عالجنّة ونكمّل لعبنا هناك». كلما سمِعت صوتَ انفجُارٍ تنتفض، لكنّها تحبّ رؤية نيران القذائفِ في السماء، تخالها ألعابًا ناريّةً.. يحدثُ أن تصحو لينا من غيبوبةِ الطفولة مثل عجوزٍ استعادت ذاكرتها، لتوجّهَ سؤالًا قاتلًا:

«متى يعودُ زيد؟»

شقيقتي هديل تصغرني بعامَينّ، يحسبنا من يقابلُنا توأمًا، إلّا أنّها النسخةُ الأجمل والمنقّحةُ عني، تمضِي نهارها في الضحكِ، إلقاءِ النكتِ ومشاهدةِ التلفزيون، تحّاربُ البكاءَ بالضّحك والحزن بالنسيان، تتحدّث عن كلّ شيءٍ إلا عن زيد، وكلما خلدنا إلى نومنا أسمعها تئن وتتلوى في فراشها، تدفن رأسها في الوسادة باكية حتى يباغتها النوم. سأحدثكَ عن أبي كلما نادوه بِـ «أبو زيد» أشاحَ بوجّههِ باكيًا، أصبحَ والدًا لرجلٍ غائب، كثير الاختلاء بنفسهِ، كأنه في انطوائه يجتمعُ بروح ابنِه. أمّي فقدت صوابها، وما عادت تتحدّث عن سواه، أصبح الناس يتجنّبونَ الحديث إليها، تلقّت المسكينةُ صفعةً عندما سمِعَت الجارة تقول لزوجها: «هالست بتحكيش غير عن ابنها إلي استشهد. كنّه فش حدا غير ابنها مات بهالقصف».. ستلزم أمّي الصمت، وستدفن ابنها في قلبها.

يُقالُ ستتوصّل حكومة حماس والاحتلال إلى هدنةٍ قريبة

تتضمّنُ قضايَا الأسرَى والمَعابر... لن أكابر، أعترف أنّني أنتظرُ هذهِ الهدنة بكل ما أحملهُ من تعب، أفتقدُ الروتين الذي كنتُ أتذمّرُ منه، أي والله! لمَ الكذب؟ الموتُ ضجرًا أرحمُ من الموتِ قصفًا. أبي أصبحَ يفكر أخيرًا في مستقبلي، اقترحَ عليّ تكملة دراستي الجامعيّة، إلّا أنّني فقدتُ شهيّتِي.. ألا تعتقدُ أنّني تأخّرت لأخطو خطوةً كهذه؟ قالْ بعدَ رحيل زيد أصبح يعدّني رجلَ العائلة! يخافُ علينا من يومٍ لن يكونَ فيهِ موجودًا.

في غمرةِ الانفجارات، لا أنساكَ حبيبي، تريحني الفضفضة على ورقٍ سيصلُ إليك، الكتابة علاجٌ جيّد لكائناتٍ هشّةٍ مثلي، أعيشُ أيّامًا عصيبةً أتمنّى لو تنتهي، لو كنتَ قريبًا فتُمسكُ بيدي، وتّساعدني على تخطّي هذا الألم! أرغبُ بكتابةِ المزيد، لكُنْ يبدو أن الكلمات نفدت قبل نفادِ الحبر، ستظلّ هنالك أوارق عذراء نتمنى لو نملأها بهذياننا، لكننا لا نفعل، لأننا أضعف من أن نواجهَ بياضَها الفاضح، البياضُ الذي يرعبنا أكثر من السواد نفسه، تخيّلتُني مرّةً أصبتُ بالعمى، يتحوّل عالم بعض العميان إلى سوادٍ حالك، وبعضهم إلى بياضٍ حليبيّ، سأفضّل العتمة، لن يحتملَ قلبي كلّ ذلك النور!

هذه الرسائل التي أكتبها ستتأخّرُ مثل كلّ الأشياء الجميلة، لكنّها ستصل.

(١١)

كأنّ عينًا لم تدمَع وقلبًا لم يعطَب، بيتًا لم يهدم وساقًا لم تُبتَر، طفلًا لم يدفَن وأبًا لم يرحل.. عادت الحياةُ إلى المدينةِ. استيقظت غزّة من غيبوبةِ الحربِ منَ أجلِ هؤلاءِ الذين ماتوا في سبيلِ قضيّةٍ، وهؤلاءِ الذينَ يعيشون من أجلها. مثلَ سيّدةٍ مسنّة غادرت فراشَ المرض ووقفت لتنفض الترابَ عنها، اغتسلت بمطرِ دموعها، كفّنَت أطفالها، دفنتهم، ثم خاطت جروحَها المفتوحة.. تستعدّ لإنجابِ الأبطالِ من جديدٍ. مشهدٌ كهذا لا تراهُ إلّا هنا: أن تنبثق الحياةُ من الموت، هذهِ هي مدينتُنا لمن يجهلهّا، هكذا نحّن لمن لا يعرفُنا، ألفنا الحربَ والخراب، حتى تعلمنا كيفَ نرتبُ تفاصيلَ الحياةِ من جديد.

عادَ الأطفالُ إلى مدارِسهم والموظّفون إلى مكاتبِهم والأمّهاتُ إلى مطابخهنّ.. وأنا مشيتُ إلى مكتبِ البريدِ، في يدي ظرفٌ يحملُ رسائل ربطتُها بشريطٍ حريريّ أحمر داخل ظرفٍ كبير، سرت بين أحياء محطمة، بعض المحلات تهشمت واجهاتُها، ذلكَ المحلّ كان أفضل محل يبيعُ الشوكولاتة المُهرّبة، وآخر مالت لافتته، اشتريتُ من صاحبِه أجمُل فساتيني، هناكَ في آخرِ الشارع، كان ثمّة مكتبة صغيرة تبيعُ الكتُب المستعملة، كتبًا قديمة معظمها بلا أغلفة، على أوراقِها بقعٌ من الزيتِ أو القهوة وسطورٌ تحدّد نصوصًا أحبّها قارئ سابق، فيّ المكتبةِ المنكوبة أرى شابًا يبحثُ بينها عن عناوينِه المفضّلة، عله يحصلُ على كتبٍ مجّانيّة.

أقفُ أمام عمارةٍ تمّ قصفُ نصفِها، فأرى امرأةً تعلّقُ ملابس

مُبللة، أسيرُ بينَ أشخاصٍ يحملونَ على ظهورهم ما تبقّى لهم من أمتعة، أرى أطفالا يبحثون بعناد عن ألعابهم الضائعة وأمّهات يتوسّلن رجال الإسعاف من أجلِ العثورِ على أبنائهنّ.

أَمّا المرأةُ التِي تحبّها لم تكن تحلمُ بمَا هو أكثر من هدوءٍ يتيحُ لها الإصغاء إلى الأصواتِ الطبيعيّةِ للحياةِ: صياحِ الديوكِ فجرًا، صوت الأذان في أوقاتِه الخمسة، تغريدُ العصافيرِ الطليقة، نباح كلبٍ في وجهِ غريبٍ، ضجيجُ أطفالٍ يلعبون كرةَ القدمِ في الحيّ، امرأةٌ تتذمّرُ من زوجِها بصوتٍ مرتفع، شجارٌ بين شابّين لسببٍ تافه، وقهقهة خليعة لعابرةٍ فاتنة! أصواتٌ كهذهِ لا تسمعها أثناءَ الحرب، لأنّ صوتَ الموت أقوى من صوتِ الحياة. افتقدتُ أيضًا هذا السُبُات، نومٌ عميقٌ بلا أحلامٍ جميلة ولا كوابيس مفجعة، فقط غرق في الأعماق واستسلامٌ للغياب الموقت عن هذا الكون، استراحةٌ من التفكيرِ المزمن بكل ما مضى وما لم يمضِ.

توقف القصف حقا، أزحت الستائر لأفتح نوافذ البيت. نحن بحاجةٍ إلى هواءٍ نظيفٍ لنتخلص من الرائحة الكريهةِ للموت، لملمتُ الملابسَ المبعثرة في الخزائن، نفضتُ الغبارَ عن الأشياءِ، مسحتُ أرضيّة البيت بمنظفٍ عطِر لهُ رائحة الليمون، في المزهريّةِ الفارغة، وضعتُ وردةً بيضاء، وفي الإطاراتِ الفارغة أعدتُ وضعَ صورنَا.. كنتُ قد توقّفتُ عن ترتيبِ البيتِ مذ خلتُه سينقضّ في أيّةِ لحظة، ما كنتُ لأغسلَ جدرانًا ستهدمُ، ولا لألمّع أرضيّةً ستتفتّتُ في ظرفِ دقيقةٍ واحدةٍ! كلّ ما كنّا نفعله هو الجلوسُ معًا في انتظارِ ضيفٍ ثقيل، ما عدنا نرغبُ باستقبالِه مرّةً أخرى.

حتى الأكْل خارجَ زمنِ الحَرب مختلِف، إذ تأكلُ مطمئنّا، وبكَ توق الصائمِ الذي يشتاق لقمةً منعها عن نفسِه، أكلتُ كما لم آكُل من قبل، أو كما لو كنتُ أتعرّفُ على طعامٍ أجهلهُ، رائحةُ القهوةِ المنعشة تسرّبت إلى رأسي فأيقظت كلّ خلاياهُ النائمة، الرشفة الأولى كانت لذيذة مثل قبلةٍ أولى، أغمضتُ عينيّ واستمتعتُ بهذا الشرابِ الأسودِ السحريّ، الزبدة كانت طريّةً وناعمة على الخبز مثل ملمسِ أنثى، والمربّى كان مغريًا بحلاوتِه الحامضة، الماء.. كان نقيًا مثلَ قلبِ أمّي.

قريبًا، سأصبحُ طالبةً! تمكّن أبي من إقناعي، ما إن سمعَ منّي الموّافقة حتى راح يجمعُ الأوراق اللازمة لألتحق بالكليّة، كأنّه يكفرُ عن تَقصيرٍ قديمٍ، أو ربّما ليجعلَ منّي زيدًا آخر! من يستطيعُ أن يكون زيدًا غيره؟ نحنُ متناقضان كما لو كنّا من أبوين مختلفين، ربّما القاسمُ المشتركُ الوحيد هو هذهِ الرغبة الجامحة بالكتابة، كان (أتألم لاستخدام فعل كان. إنه فعل ناقص بكل ما يحملهُ من نقصٍ في الزمنِ الموجود) كانَ زيد يعبّر عن نفسِه من خلالِ قصائد مضغوطة، أمّا أنا، فإن النثر يمنحني مساحةً جيّدّة للثرثرة، لم أطمح يومًا لأن أكون كاتبة، في الواقع لستُ أبدعُ إلا وأنا أكتبُ إليك، لا بدّ أنّه الحُبّ الذي يجعلُ العشّاق بعفويّتهم أكثر قدرةً على العطاء! الحُبّ والألم.

السجين يحلم بحريته والحر يحلم بأشياءَ أخرى!

(١٢)

أنا من هؤلاءِ الذين يحلمون كثيرًا، أحلمُ كما أتنفّس بعينين مغمضتين أو مفتوحتين، أتساءل: «هل يحلمُ السعداء بقدر ما يحلمُ التعساء؟» لا أعتقد! إذا كانت امرأة حزينة تحلمُ بقليلٍ من الفرح، فبماذا ستحلمُ امرأة سعيدة؟ كذلك السجين يحلمُ بحرّيّتِه والحُرّ يحلمُ بأشياء أخرى، نحنُ البؤساء نمتلكُ ثروةً من الأحلامِ تُقاسُ بحجمِ حرماننا، قل لي: امرأةٌ مثلي فاقدة للفرح والحرّيّة والوطن، لماذا لا تحلمُ؟ ثم إليكَ ما هو أهمّ: «هناكَ ما لا تكتشفه إلا وعيناكَ مغمضتان، بينما تعيشُ حياتكَ الأخرى بنصفِ وعي» رأيتني أتجوّلُ في مدينةِ القدس.. لكَ أن تتصوّر صبيّةً من مدينةِ خان يونس تتوغّلُ في دهاليزِ القّدسِ الضيّقة، تصافحُ جدرانَها القديمة، تجرّبُ قبّعات معلقة، وتقيسُ الخواتم والأساور، تخيّلْ لذة التسوّقِ في مدينةٍ تحبّها، تعرفُ عنها كلّ شيءٍ لكنّك تكتشفها لأوّل مرّة.. ما أشقى أن تجهلَ مدنًا راسخة في القلب وذهنك فارغ من ملامحها!

في محلّ صغير، تأمّلتُ ساعة رمليّة، كرتان كبيرتان من الزجاج تحمل إحداهما رملًا برتقاليًا. البائعة كرهتني ورفضت بيعها لي، استدرتُ لأخرجَ خائبة، عندما أمسكت يدي زبونة يهوديّة حدّثتها بلغة عبريّة، في نبرتِها شيء من اللوم، واشترتها لي من مالها الخاصّ. أثناء مغادرتي المدينةِ، لاحقني ضابطٌ إسرائيليّ من زقاقٍ لآخر، حاصرني إلى الجدار في حارةٍ فارغة، طبع قبلات على عنقي، فاستيقظتُ كالتي اقترفت في حلمها ذنبًا حوّلهُ إلى كابوسٍ..

الساعة الرمليّة لم تكن سوى أحلام حياتي! فالساعة ترمز إلى الوقت، وما الوقت سوى امتداد للحياة؟ اليهوديّة البائعة والزبونة الطيّبة تعكسان واقع المجتمع اليهوديّ الذي لم أتواجد فيه يومًا. هنالك يهوديّ طيّب وآخر سيّئ، إن كان عليّ توجيه كلمةٍ للطيّبين، لن أناقشهم في التاريخ. سأطرحُ عليهم فقط هذا السؤال: أنتم الذين تقدّرون السلام وتحلمون بدولتين متجاورتين، كيف تصمتون، بينما ترون بيوتًا تنهار فوق رؤوس سكّانها؟ شبابًا بدلا من أن يتوجّهوا إلى مدارسهم يقادون مكبّلين إلى الزنازين؟ وأنتم تشاهدون دموعنا ودماءنا قولوا كلمةً.. قد تؤجّل دموعَ أمٍ وتؤخّر رحيلَ أبٍ، اعتقال شابّ أو هدم بيت.. أمّا أنتَ الماكث وراء جدران زنزانتك، أعود لمخاطبتك، لأقول: أشتاقك حدّ الوهن، وفي الحلمِ القادم قد نلتقي.

(١٣)

متى تخرجُ من سجنكَ اللعينِ لنلتقي كما يلتقي أيّ رجلٍ بامرأتِهِ؟ أحسدُ العاشقات اللاتي يلتقينَ عشّاقهنّ، تستفزّني رؤيتُهم معًا يتبجّحونّ بذلكَ الفرح، أرغبَ باغتيالِهم جميعًا، كأن أختلِس البندقيّةَ المعلقة على الجدارِ لأفرغ رصاصاتها في قلوبِهم السعيدة. أكرهُ عيدَ الحُبّ، إنّه يعنِي لي ما يعنيهِ عيدُ الأمّ ليتيم شقيّ! اللونُ الأحمر هو أسوأ لونٍ يعبّرُ عن الحُبّ، نحنُ الذينَ ولدنا على هذهِ الأرضِ رأينا من الأحمرِ ما يكفي لنكرههُ إلى الأبد. أشاهدُ أغبياءَ يهدون حبيباتهم دباديب حمراء، يا عيب الشوم! ماذا يعني أن يهدي رجلٌ حبيبتِه وردةً بلاستيكيّة لا حياةَ فيها؟ دميةً قطنيّةً تعانقُها ليلًا أو بطاقاتٍ موسيقيّةً لا تتوقّفُ عن الرنينِ؟ كنتُ لأهبكَ جديلتي، وكنتَ لتخلعَ كوفيّة والدكَ التي لا تفارقُ كتفيك لتلفّها حولَ عنقي.

ذاكرتي لا تحتفظُ بموعدٍ غراميّ جمعنا، نحنُ لم نتقابل في مقهى عريق لنشرب القهوة على صوت فيروز، لذا لا يمكنني أن أغنّي لكَ: «وتشرب من فنجانِك وأشرب من عينيك!» أنا وأنت لم نرتد مطعمًا، فتذمّرتُ من الأكلِ السيّئ واغتظتَ من معاكسةِ النادل، لا أذكرُ أنكَ وقفتَ ليلا، في الشارعِ المقابلِ لنافذتي تطلبُ منّي إضاءة الغرفة لتراني قليلًا وأنا لم أتسلّل في وقتِ الظهيرةِ إلى مرآبك كي نقضي القيلولةَ سويًا في سيّارةِ أحدهم.. كلّ هذا لم يحدث بيننا، لأنّنا لم نلتقِ قطّ، ما أشقى امرأةً تجهلُ رائحةَ حبيبِها وطعمَ شفتيه! امرأةٌ رغم جهلها مستعدّةٌ لقضاءِ عمرها في انتظاره.

سأتوقّفُ عن التذمّر لأزفّ لكَ هذهِ البشرى.. التحقتُ أخيرًا بجامعةِ الأزهر في مدينةِ غزّة، التي تبعد عنّا بما يقارب نصف ساعة من أجل دراسةِ اللغةِ الإنجليزيّة، حاول عمّي إقناعَ والدي ليلحقني بفرعِ الجنوبِ للجامعةِ الإسلاميّة في منطقةِ معن بخان يونس، قال له: «كيفَ ترسلُ البنت بمفردها كلّ يوم إلى مدينةٍ أخرى، والتعليمُ هنا جيّد وأرخص وليسَ مختلطًا؟ اعمل برأيي، وستذهبُ إلى عملك مطمئنًا، وابنتكَ تدرسُ في مكانٍ قريبٍ مع مثيلاتها»، والدي سأل عن الجامعةِ الأفضل وسجّلني بها، أخبرني بأنّه يثقُ بي، شرط ألّا أتخلى عن تعليمي، وأواصله لأنال أعلى درجةٍ ممكنة.

هناكَ، في الجامعة، استعدتُ ذكرى يومي الدراسيّ الأوّل، طفلةٌ تختالُ بمئزرِها وبجديلتيها السوداوين، تحملُ حقيبةً أكبر من ظهرها، تكتبُ بخط مائل وتفتّتُ الطبشور على لوحتِها. في المدرسة، علمونا كيف نرسم خريطة هذا الوطن وأين نكتب أسماءَ المدن، لم أقتنع بذلكَ الشكلِ الهندسيّ الضيّق، دون أن أدركَ بأن ما نملكهُ في الحقيقةِ أقّلّ وأصغر بكثير، أي حتى ذلك الشكل الهندسيّ الضيّق لم يكن كله لنا! رسمتُ وطني كما تمنّيتُه، فبدا يشبهُ أيّ بلدٍ آخر إلّا فلسطين! كي يعاقبني والدِي، قدّمَ لي عشرين ورقة بيضاء، وطلب منّي إعادة رسم الخريطةِ عشرين مرّة لأبلغ الكمال في رسمِها.

كانت عقوبةً قاسيةً لطفلةٍ لا تستوعبُ درسًا وطنيًا كهذا، كنتُ أطرحُ سؤالا يكبرني بعشرينَ سنة: «لماذا يثرثرُ أبي عن مدنٍ يسكنها شعبٌ غيرنا؟ سيظلّ المسكينُ يتحدّث عن عكّا وحيفا وطبريّا حتى يموت، ما الفرق يا أبي إن أتقنتُ رسمَها أم

لم أتقن، والله العظيم مش حاسّة هالأرضَ إلنا».. اليوم أفهمُ لماذا كان أبي يلحّ، ولماذا كان يغتاظ المعلم، اليوم اربط عينيّ بعصابةٍ سوداء وامنحني ورقةً، وسأرسم لكَ فلسطين، وأحدّد عليها المدن بطرفِ إصبعي، تلكَ الخريطة أصبحت مطبوعةً في ذاكرتِي وموشومةً على قلبي.

وقفتُ أحدّقُ بعينينِ مذهولتين إلى مباني الجامعة وطوابقِها، إلى الطلّاب القادمين والذاهبين، الدكاترة الذين لا ينتبهون لمن حولهم. والدي أمسكَ بيدي كطفلةٍ لم تكمل عامها السادس خشية أن أتوه، وعندما تركني، تصرّفتُ ببلهٍ، بقيتُ في مكاني لا أعرفُ بأيّ القاعاتِ ألتحق؟ حتى الطالبات المستعجلاتُ اللاتي سألتهنّ كنّ يمنحنني معلوماتٍ مختصرة تجعلني أتوه بدلا من العثورِ على القاعة، تعرفت على طالبة طيبة، عرضت علي أن نتواعد كي تعرّفني على الجامعة، وتساعدني على نسخِ المحاضرات.. أمّا الاختلاط الذي استنكره عمّي لا أساسَ لهُ من الصحّة، ربّما تخيّل عمّي ابنة شقيقه جالسة إلى جانب زميلٍ وسيم، تحدّثه عن الأفلام المفضّلة والأغاني، أو تدردش في الباحةِ مع شبّانٍ يروقونها! صحيح، نحن الطالبات نرى الشباب يأتون ويذهبون ونجتمع بهم في قاعة دراسيّةٍ واحدة، ولكنّ المقاعد منفصلة، وأيّ دردشة تجمع بين طالبين من جنسين مختلفين خارج قاعاتِ الدراسة ممنوعة.

سأصدقك القول.. هذهِ الحياة الجديدة غريبةٌ عنّي، لم أتعوّد على إيقاعِها بعد، غير أنّي أحبّها، فقد سمحت لي بمغادرةِ شرنقتي. ها أنا أكتشفُ العالمَ بمفردي لأوّل مرّة دون رقابةٍ من أحد، ستكونُ فخورًا بي وأنتَ تتلقّى هذا الخبر الجميل، أنتَ

الذي كنت تقول لي «أنتِ طيّبة، لكنْ الله يرضى عليكِ لا ترحلي عن هذا العالم برأسٍ فارغ!» هل تعلم كيفَ كنتُ أعيش أيّامي منذ رحيل زيد؟ كلّ ما كنتُ أقوم به هو معاقبة نفسي والبكاء لساعات طويلة.. سأذكرُ زيدًا دائمًا، وسأنتظركَ دائمًا.

(١٤)

علمتُ بأنّ مكروهًا أصابكَ عندما فتحتُ الظرفَ الذي أرسلتَه لي، وجدتُ فيهِ ورقةً صفراء كتبتَها بخطّ رديءٍ، الأصابعُ التي خطّتها كانت ترتجفُ، إمّا تحتَ تأثيرِ البردِ أو الألم! طالما تأمّلتُ خطّكَ الجميل، الألفُ مستقيمة وممشوقة مثلَ قامتكَ الساحرة، والباءُ ممتدّة مفتوحةٌ كابتسامتكَ الفاتنة، النقاط تبدو متموضعةً بدقّة في أماكنِها، والهاءُ أحد حروفكَ البديعة لها قمّةٌ حادّةٌ تشبهُ قمّةَ الهرم ثم تفيض ضمنَ عقدةٍ عجيبة، الكاف ملتوية على نفسِها مثلَ ثعبانٍ جالسٍ، والسين أسنانُها متفاوتة الطول. هذهِ المرّة وجدتُ خطّا مائلًا والنقاط هاربة عن الحروف كما لو طيّرتها الريح من أماكنِها! توقّفتُ طويلًا عندَ تلكَ البقعةِ المستديرةِ (أثرُ دمعةٍ سكبتَها). لم يكن بمقدروي منع نفسي عن البكاء، فقد كنتُ حاضرةً داخلك، أختبرُ كلّ ذلكَ الغضب والوجع، أعيدُ الآن قراءة رسالتك، ولا تفارق الغصّات حنجرتي:

«لن أسمح لك بتصفح القرآن لأنه يغتاب اليهود، هذا ما قاله لي الحارسُ المتطرّف وهو يسلبُني مصحفي، ما استفزّني لم يكن جملتُه بل رؤيتُه يكوّم صفحاتٍ من القرآن على الأرضّ ويدوسهّا بحذائهِ العسكريّ، تلبّسني الغضبُ. لم أدر بنفسي إلا وأنا أسدد لهُ لكمةً كسّرت أنفه، وقبل أن أحطّم ما تبقّى من وجهه حماهُ رفاقه المسلحون. سدّدوا نحوي مسدّساتهم ونقلوني إلى حجرةِ التحقيق. هناك قيّدتُ إلى كرسيّ في وضعيّةٍ كادت تكسر عمودي الفقريّ، أنتظرُ قدوم الضابط الذي

سيحّقق معي. رويتُ لهُ ما حدث، لكنّه كان يأمرني بالسكوت كلما ألقيتُ باللومِ على الجنديّ. هم علموا أنّ زميلهم أخطأ في حقي، لكنّه تمرّدي ما أزعجهم! كان عليهم معاقبتي عقابًا قاسيًا، لأفكر مليّا قبل أن أقوم بردّةِ فعلٍ كهذهِ مرّة أخرى.

فكّوا رباطي ليطلبوا منّي أن أتموضعَ مثلَ الكلبِ وأنبح! مثّلتُ أنّني لا أفهم أوامرهم، يقولونَ أنبح فأردّ: كيف؟ بعرفش! ألصق الضابط الغاضبُ فوهة مسدّسِه بصدغي. سمعتُ رصاصةً تستعدُ لاختراقِ جمجمتي، لكنّي لم أتحرّك. دفعني الضابط بقدمِه، فسقطتُ أرضًا. جنديّ يبصق على وجهي وآخر يركل رأسي وثالثٌ يضّربني على صدري ورابعٌ بين ساقيّ.. حتى شعّرتُ بجسدي كله تخدّر من الألم، وصلتُ إلى مرحلةٍ ما عدتُ أتألم فيها، فقط أرى جسدي يتمزّق أمام عينيّ لينسكبَ الدم خارجه، جرّدوني من ثيابي وتركوني في سروالٍ قصيرٍ، قيّدوني إلى عمودِ إنارةٍ في الساحةِ، أمضيتُ ليلي أرتجف من البرد، فقدتُ حاسّتي بجسدي نهائيًا، أشرقت الشمس، فقدم إليّ جنديّان وأعادانني إلى الزنزانة.

أوّل ما فعلته هو تفقّد رسائِلك، أنا أخبّئ رسائلكِ كيلا تُصَادر. فما يحدث هنا يا سلمى لا ينبغي أن يصل إليكِ، وما تعبّرين به عن فلسطين كوطن لا ينبغي أن يصل إليّ، أنتِ تعلمين أنّ محاميّ جابر يكونُ أخًا غير شقيقٍ لأبي، يحملُ الهويّةَ الزرقاء، وهو أكثر من محامٍ لامع، فهو رجل ذو نفوذٍ وعلاقاتٍ واسعة، بالرّغم من ذلك لم يستطع إخراجي. فقضيّتِي معقّدة.. كلّ ما استطاع فعله من أجلي هو تهريبُ هذهِ الرسائل ضمنَ الأوراقِ الكثيرة التي يحضرها في محفظتِه.

رفعتُ حبّةَ البلاط، وسحبتُ نفَسًا عميقًا حين عثرتُ على رسائلكِ. راجعتُ الرسائل واحدة تلو الأخرى لأستعيد طمأنينتي، وحدها كلماتكِ ما سكّن آلامي؛ وبعد أن سلبوني المصحف، أصبحت رسائلكِ قرآني، لم أرَ العسكريّ المتطّرف بعد ما حدث، أخبرني زميلٌ له بأنّهم فصلوه، طردهُ اعترافٌ صريحٌ منهم بخطئه، إلّا أنّه لا يحقّ لي مقاضاته، لا حقّ لي هنا، هذا ما ردّدُوهُ في أذني معَ كلّ ضربةٍ تلقّيتُها، وليكن في علمكِ: قريبًا قد أحاكم بتُهمة الاعتداء عليه، وتُهمٍ أخرى ستعرفينَها لاحقًا».

قضيّتكَ معقّدة؟ وستحاكمُ بتهمٍ أخرى أعرفها لاحقًا؟ بالِله عليك ما الذي تخفيهِ عنّي؟ لأوّلِ مرّةٍ أحسّ بجدارٍ من الأسرارِ يفصلُ بيننا، ما أعلمُه أنّكَ معتقل إداريّ، تمّ اعتقالك مع عشرات مثلك أثناء ذهابك إلى الدكّان لتشتري البنّ، فعن أيّةِ قضيّةٍ معقّدة تتحدّث؟ ثم لماذا لم تحاكم حتى الآن؟ أرجو توضيحًا يطمئنُ قلبي، أما إن كان علي التحدث عما حدث، سأقول ما كنت لأكون أكثر منك هدوءًا لو تعرّضتُ لموقفٍ مماثل، لقد دافعتَ عن كلمة الله آمل أنّ يشفع لك هذا عنده، ليهوّن عليك بعض العذابات، ولتعلم أن هذا الغياب ليس يزيدني سوى ارتباطًا بكَ، سواءً مكثت خمسًا أو عشرًا أو خمسين.. لقد عشتُ أيّامًا عصيبة أثناء القصف، وكنتَ تعيش أيّامًا أكثر مرارة بالحبس، أعرفك رجلًا منذ لحظة الحُبّ الأولى، ما دمتَ حيّا وفي جسدكَ قلبٌ ينبض:

قاوم لآخر نبضة!

(١٥)

كأنّي أراكَ هناكَ واقفًا في ساحةِ السجنِ بظهرٍ مستقيمٍ تحتَ زخّاتِ المطر، يداكَ مغلقتان في جيوبك، تقبضُ على الألمِ بقوّةٍ حتى لا يراهُ أحد، من يراك يخالك لا تكترثُ للكدماتِ التي لوّنت وجهك ولا للجروح التي لم تلتئم بعد! من غيري يراها الكدمات التي غيّرت لونَ القلب ويستوعبُها جروحه المفتوحة التي سيطولُ شفاؤها، لن أواسيكَ، ولن أبحث عن كلماتٍ مناسبة أحشو بها رسالتي لأظهرَ في ثوبِ المحبّةِ المتعاطفة، لا أتعاطفُ معَ ألمك لسببٍ واحدٍ لأنّ ألمكَ ألمِي، لن أتحدّثَ كذبًا لأنّك أناي، أيّ كلامٍ منمّق لن تستسيغه منّي.

أنتَ تفضّلُ ألّا يقتربَ الغريبُ منكَ ليتصفّحَ حزنك، مثلما يقلبُ قارئ نزِق صفحات كتابٍ بلا شهيّة، لا تحبّ من يعبثَ بجرحكَ وهو يعّرضُ المداواة، حتى الأطبّاء لا تثقُ بهم، رجلٌ عنيد مثلك يفضل أن يعضّ على شفتِه ويخيط جرحَه بنفسِه ويمضي، الشفقة تصنفها ضمن الإهانات الراقية.. أن يشفق عليك أحدهم، أي يعتقد نفسه أفضل منك في أمرٍ ما، تكرهُ المواعظ أيضًا، هؤلَاء من يحسبون أنفسهم يعرفون أكثر من غيرهم. وأنتَ واقفٌ هناك لا تكابر! اجلسْ على الأرض أو تمدّدْ لتنسى ما حدث، إذا أردتَ التعافي تعلّم متى تستسلمُ في الوقتِ المناسب، الاستسلامُ ليسَ مخزيًا عندما يكونُ لنفسك وأثناء وحدتك. القويّ الذي لا يمنحُ نفسه أوقاتًا للراحةِ والتأمّلِ والبكاء يتحوّل مع مرورِ الوقت إلى كائنٍ ضعيف أو وحشٍ يخلو قلبه من الرحمة!

لم يعلّمونا كيفَ نبكي، وهنا يكمنُ شقاؤنا! قيلَ كونوا كالجبال التي لا تصرخُ بينما تحرَق أشجارُها، ولا تعبّرُ عن حزنِها سوى بفراغٍ حزين.. قيل كونوا كالفيلة تقضي نحبَها فتموت واقفة وتستمرّ بالوقوفِ طويلًا قبلَ أن تسقط. قيل اسخروا من الموتِ بابتسامةٍ، ولذلك يرحلُ رجالنا سعداء، هل تعرفُ لماذا يرحلُ شهداؤنا ضاحكين؟ لأنّهم يستقيلونَ من الحربِ ليستقرّوا في رحمِ الأرض، الأرض نفسها التي عاشوا عليها مهدّدين، ينامون في قلبِها، تهدهدهم الملائكة ولا يهدّد أحلامهم أحد.

أنتَ بحاجةٍ إلى البكاءِ، لو تضعَ رأسكَ على صدري وتبكي وأنا سأحترم صلاة بكائك، لن أتفوّه بكلمة تفسِد قداسة البَوح، كما يصمتُ الرهبان في الكنائس خلف كراسي الاعتراف سأصمُت، كلّ ما سأفعله هو مداعبة شعركَ حتى تنام مطُمئنًا بين ذراعيّ، سأطبعُ قبلةً بين عينيكَ وألهو بأصابع يديك، أقبّلها إصبعًا إصبعًا، ستنزلق يدي إلى رقبتك وتدلكُ عنقك حتى تسترخي أعصابك المشدودة، ثم إلى صدرك لأزيل منه ما أستطيع إزالته من وجّع. وعندما أشعر أنّكَ انتهيت من دفق الآهات من فمك، سأتخلى عن خرسي لأغني لكَ أغنيةً نحبّها لفيروز ووديع الصافي: «كانوا زغار وعمرهم بعدُه طري/ ولا من عرف بهمّن ولا من دري/ يقلّها بجيب الريح.. تتلعب معي/ وبكّتب عيونِك عالشتي تتكبري/ وكان يا مكان في بنت وصبي/ يقلها بعمّرلك قصر تتلعبي/ وطار الزمان.. وبعد في كومة احجار/ تصرخ يا أيّام الصغر لا تهربي/ وطليت ع حيّهن بعد غيبة سنِي/ لقيْت الدّني متغيّرة بهيك الدنِي/

متل الغريبة.. مرقت قدّام البْواب/ وما حدا منهم سألني شو بني».. لستُ بعيدةً أنا، بعيدة فقط بجسدِي، أعيشُ داخلك، أغرفُ من قلبكَ الفرح إن كنتَ سعيدًا والألم إن كنتَ حزينًا، ما دمتَ لستَ بخير لن أكون حتى تكون، أريدكَ قويّا من أجلي، من الداخلِ أقوى، أقوى من الحزن والألم وخيباتِ الأسرِ والاحتلال.

(١٦)

أرغبُ بالركضِ بعيدًا إلى أعلى نقطةٍ في الأرض، ليسمعني كلّ سكّانِ العالمِ أصرُخ، يتوقّف جميعهم عمّا يقومون بهِ لدقيقةٍ واحدةٍ، يتوقّفُ معلمٌ عن شرحِ درسِه، طبيبةٌ عن إجراءِ عمليّةٍ، كاتبٌ عن كتابةِ روايتِه، فلّاحٌ عن حرثِ أرضِه، جميلةٌ تلوّنُ شفاهها ومراهقٌ يدخّنُ سيجارته، حتى ترفعَ خيّاطةٌ قدمها عن ماكينةِ الخياطةِ، ويرفع لصّ يدَه عن اختلاسِ خزنةٍ، يصمتُ إمامٌ أثناءَ إلقاءِ خطبتِه، ويضع السكّينَ قاتلٌ ينحرُ ضحيّتَه، أن يتوقّف كلبٌ عن النباح وقطّ عن مضاجعةِ قطّتِه، عصفورٌ عن التغريد وغزالةٌ عن الركض، تنتظرُ قليلًا امرأةٌ جاءها المخاض، ويؤخّرُ رجلٌ على فراشِ الموتِ رحيلَه دقيقة واحدةً.. ويسمعوا جميعهم صرختي!

أتوقُ للهرب.. الهربُ ليسَ دائمًا قرارًا جبانًا، أحيانًا لا بدّ للإنسانِ من هربٍ ليجدَ نفسَه وطريقه إلى الحياة. أتخيّلني في هذا الليلِ الأخرس واقفة أمام حقيبةٍ فارغة، ألمّ فيها أشيائي المهمّة، سآخذ صورة عائلية التقطناها ذات عيد بعيد، ودفترا أدون عليه حماقاتي، فستانًا واحدًا وزوجَ حذاءٍ لن يفارق قدميّ ووشاحًا أسود، رسائلك كلها سآخذها، هويّتي الفلسطينيّة سأحتاجها، سآخذ حفنة من ترابِ الأرض وأمشي على أطرافِ أصابعي تاركة البيت إلى الأبد. لكن إلى أينَ؟ كيفَ أخطّطُ لكلّ هذا بينما أجهلُ وجهتي؟ أين وكيف! سؤالان مهمّان، الإجابة عنهما هي: «لا أملكُ مكانًا أذهبُ إليه!» لا توجدُ طريقةٌ للخروجِ من هذهِ المدينةِ المغلقة! سأظلّ أدورُ في متاهةِ

غزّة حتى يجدني أبي بسهولةٍ ليقتلني! سيقتلني، لأنّي فكّرتُ بالتفتيشِ عن حياةٍ تشبهني.

أحدّثكَ عن فكرةِ الهروبِ المستحيلة قبل التحدّث عمّا جعلني أفكّرُ بها، قد تتساءل ممّن تهربين؟ أهربُ من الجميع ومن كلّ شيء! من الجامعةِ التي كرهتُها بقدرِ ما تمنّيتُها، من الدكاترة المتعجرفين، من الدروسِ المعقّدة.. بريطانيا وملوكها، أميركا وحروبِها، أهربُ من هذا البيتِ الحزين، من استبدادِ أبي، تذمّر أمّي، لوُمِ زيد، استهتارِ هديل وبكاءِ لينا. أهربُ من غرفةٍ يسخرُ منّي أثاثُها، من سريرِ ما عادَ يتحمّلني والوسادة التي لا تمنحني نومًا لذيذا - بالمناسبة، أريدُ وسادةً جديدةً! وسادةً بسيطةً بلونِ الوردِ الفاتح، مطرّزة في زواياها، متوسّطةَ الارتفاع ناعمة، لا تؤذي وجهي بقماشِها الخشن، وسادةً سحريّةً تمنحني أحلامًا شهيّةً، من الصعبِ العثور على وسادةٍ كهذهِ في زمنٍ كهذا. أهربُ من هذهِ المدينةِ المعذبة وهذا الوطن المُحتلّ، أهربُ أخيرًا من نفسي وهواجسي، من كلّ شيءٍ إليك.

أمّا شقيقتي هديل، تعيشُ أسعدَ أيّامِها. فهيَ مغرمة منذُ بضعةِ أشهر، فرحها لا يتطلب أسبابا عظيمة، إنها ترى الكون بعين شمس وتعيشُ الحياة بقلبٍ متسامح، لا تلعنُ العادات ولا تستفزّ أبِي بتمرّدِها الأنثويّ، تتكيّفُ في هذا المجتمع مثل سمكةٍ تنتمي إلى بحرٍ وجدت فيه، رغم أنها ليست بالمخلوقةِ العاجزة بغبائِها عن رسمِ أحلام عظيمةٍ. كلّا، هيَ تقدّر دائمًا المسافة بينها وبين المستحيل، وتفضّلُ القبول بالممكن على تعذيبِ نفسِها بعناءٍ كذاك، عندما كانت تحدّثني عن حبيبِها،

ظننتُ ما بينهما نزوة عابرِة حتى بدأتُ أجسّ نبضَ مشاعرها، امرأة لا تحبّ رجلًا لا تتخيّله أبدًا أبًا لأطفالِها.

هذا الرجلُ أثبتَ حسن نواياه من خلالِ التقدّمِ لخطبتِها، شابّ وسيم يعملُ في البنك ومن عائلة عريقة، ليسَ فيهِ عيبٌ يدعو للرفض؛ لكنّ والدي وجدَ سببًا لرفضه، أعلنَ أنّه لن يزوّجَ هديل قبلَ أن يزوّجنِي، قرارُه أثارَ استياءنا جميعًا؛ لكنْ بدلا من مناقشتِه، رمقوني بنظرةِ اتهامٍ كما لو كنتُ المذنبة! ما يريدُه الجميع هو أن أتوقّف عن انتظارك، لا أحدَ في البيت يؤمن بقصّتي، هكذا وجدتُ أبي يبتزّني بسعادةِ شقيقتي، يحمّلني مسؤوليّةِ تعاستِها من خلالِ ربطِ قدري بقدرِها، أمّي نصحتني بالتفكير جدّيًا بمستقبلي ومستقبلِها. هديل لم تقل شيئًا، عيناها الحزينتان قالتا كلّ شيء، أصبحتُ أدركُ الآن بعد ما حدث أنّ متابعة التعليم لا تكفي كي أشعر أنّني أحيا، أحتاجُ إلى ما هوَ أهمّ.. «حرّيّتي». بعيدًا عن كلّ هذا اشتقتلك كتير، أشتهي أن أنجبَ منكَ أطفالًا نعلمهم كيف يعيشون الحياة، حدسي يخبرني أنّني سأكون أمّا صالحة وستكون أبًا رائعًا، لا أتخيّلُ أبًا غيركَ لأطفالي.

(١٧)

إلى جانبِ مظلّةٍ كسرتها الريح، جلستُ على عتبةِ بيتنا أبكي، ورأسي غارقٌ بينَ ركبتيّ، السببُ الذي دفعني للبكاء ربّما لم يكن سببًا عظيمًا، مصائبُ صغيرةٌ قد لا تبكي امرأةً راشدة، هل يعودُ هذا إلى أنّني لم أنضج بعد، أم لأنّني ولدتُ ناضجةً وبدأتُ لتوّي أعيشُ طفولةً متأخّرة؟ ما أعلمهُ أنّ الحزنَ الذي تكبتهُ في قلبكَ لوقتٍ طويلٍ سيفيضُ يومًا، ليجدَ سبيلهُ في مناسباتٍ يبدو فيها البُكاءُ سّخيفًا، لو رأيتني هناك كنتَ لتلاحظَ كم كنتُ لا أشبه شيئًا غير مظلتي.. اختارني أستاذ مادّة اللسانيّات لأقرأ مقالا كتبه نايومي تشومسكي، وما كدتُ أنهي الجملةَ الأولى حتى وضعَ يدهُ على قلبِه: «يا ليتني متّ ولم أعش لحظةً أسمعُ فيها أحد طلّابي يتحدّثُ بهذهِ اللكنة السيّئة!» لماذا اخترتِ الأدب الإنجليزي؟ ما له الأدب العربيّ؟ حقوق، تاريخ، أيّ شعبة أخرى يا ظالمة؟» كرهتُه وتمنّيتُ لو يموت، كرهتُ الطلّاب الذينَ ضحكوا عليّ، حتى تشومسكي لعنته.. انتهت الحصة، فهربت من عيونهم بهرولاتٍ سريعةٍ وقهقهاتهم تلاحقني.

هبّت ريحٌ قويّة كسَرت مظلّتي، ثم بدأ المطرُ بالهطول بغزارة، حين وصلتُ إلى البيت، اكتشفتُ أنّي أضعتُ المفتاح، دققتُ الباب حتى جرحتُ يدي، ولا أحدَ كان هناك ليفتَح. هناكَ، استسلمتُ للبكاء حتى أفرغتُ عينيّ من مائهما المالح، مكثتُ بعدَ ذلك في بيتِ جارتنا، أعارتني ملابسها، شعرتُ بنفسي في تلك الملابس إنسانةً أخرى، رائحتي تبخّرت وملامحي

ذابت داخلها. هكذا تبدأ النهاراتُ السيّئة وهكذا تنتهي، تبدأ بإشاراتٍ مقلقة تبعث على التشاؤم، وتنتهي بخيبةٍ تهربُ منها بالنومِ لينتهي اليوم الفظيع.

رويتُ لأبي ما حدث، قال: «الأستاذ كانَ صارمًا، لكنّكِ حسّاسة زيادة! هناكَ في الحياةِ ما هو أكثر بؤسًا ممّا تتحدّثين عنه». والدي ما كانَ ليكون بالحكمةِ ذاتها لو تعرّض لموقفٍ مماثل، نحنُ هنا نعاني من عقدة الإذلال، كيفَ يتصرّفُ الواحدُ منّا برصُانةٍ وهو يتعرّضُ للإذلال من كلّ الجهات؟ حتى أنتَ تذلني! أحِسّكَ اليوم أبعد من أيّ وقت، منذ أسِرتَ ونحنُ نتقاسمُ الأحلام والأحزان بحلاوة الأولى ومرارةِ الثانية، لكنّ اليوم.. تفصل بيننا مسافات شاسعة من الغياب، لم ترسل لي رسالةً منذ أيّامٍ طويلة، ستكتملُ بشهرين، ولم تشرحَ لي حتى الآن «التهم التي ستحاكمُ بشأنِها». ربّما كانَ والدي محقّا، كنتُ أبحثُ عن ذريعةٍ للبكاء، لكنْ كلّ ما ذرفتهُ من دمعٍ لم يغسلني من هذا الحزن. أكتب لي! أرجوك، أنا بحاجة إليك.

(١٨)

أفتحُ صندوق البريدِ بأصابع مرتبكة لأجدهُ فارغًا، مظلمًا وباردًا. لماذا توقّفتَ فجأةً عن الكتابةِ إليّ؟ أحيانًا، أتخيّلكَ معاقبًا في زنزانةٍ انفراديّةٍ وقد منعوا عنك ما كان مسموحًا، أحيانًا أقولُ لنفسي ربّما عمدًا لا تراسلني لأنّكَ تخطّطُ لتركي، وأكثر الأفكارِ سوادًا فكرةُ إبعادكَ في سجنٍ سرّي، كنتُ قد قرأتُ مقالًا عنه يسمّونه ١٣٩١؛ سجنٍ لا أثر لهُ على الخرائط، قالت عنه محاميّة إسرائيليّة تدعى لياه تسيميل: «أيّ شخصٍ يدخلُ هذا السجن يختفي، ومن المُحتمَل إلى الأبد!».

لماذا قد يشكّل وجودك تهديدًا إلى حدّ إخفائك نهائيًا؟ أنتَ لم تكن ضمنَ من خطّطوا لانتفاضةٍ ثانيةٍ أو ثالثةٍ، ولا زاولتَ نشاطًا سياسيًا! مواطن بسيط كانَ يعيشُ حياته مثلما يعيشُها معظمُ البسطاءِ في مدينتكَ. تذهبُ إلى عملك كلّ صباحٍ، تفتحُ بابَ المرآب لتختفي تحتَ السيّاراتِ والشاحنات، يقولون إنّك أمهرُ ميكانيكي في المدينة، مثل الذي يحل معادلة رياضية تتيقظ كل الخلايا في ذهنك، تجسّ نبض السيّارة فتعرفَ مرضها! تمرّر أناملك السحريّة وفي يدك الأدواتُ المناسبة، تؤدّي عملك بحبّ، وتفرحُ بمالٍ تكسبه بعرقِ جبينك.. ما الذي حلّ بكَ إذن؟ لا يمكنني أن أعرف إلّا من خلالكَ أنت!

شهرٌ واحد يفصلني عن الامتحانات النهائيّة، لم أكن خائفة من الفشل بقدر خوفي من مواجهة أبي بهِ، الحلّ الوّحيد الذي كان بحوزتي هو مصارحته باحتمالِ الرسوب! هل تصدق أنّه

قبّل رأسي، وكادَ يقبّل يدي لولا أنّي سحبتُها؟ رأيتُ في عينيه رجاءً لم أستطع صدّه، لذا قرّرتُ تحدّي نفسي وأساتذتي وكلّ من سخرَ منّي. أستعينُ بصديقةٍ وبالقواميس وكتب المكتبة، ما صدمني هو فهمي لما اعتقدتُني لن أفهمه، تشجيع والدي صنع بي معجزةً، مثل أرضٍ تحسبها بورًا لا تصلح للزراعة، ما إن تعتني بها حتى تتفاجأ بقدرتها على العطاء! قال أيضًا سيحدّث عمّهُ المقيم في لندن عله يتكفّلُ بنقلي إلى هناك، لأحصل على عملٍ محترم، وأتزوّج فأؤسّس عائلة بعيدًا عن الموت هنا، أرأيتَ كم أصبحت أحّلامُ والدي شاهقة؟! أمّا أنا، فلستُ أحلمُ بأكثر من بيتٍ صغير أؤثثه على ذوقي، تكونُ أنتَ ربّه وأنا ربّته. بنهاية رسالتي، أقول لكَ «أنتَ تتفنّنُ بتجاهلي (زوّدتها كتير! أنا مطوّلة بالي عليك بس عشان مقدّرة ظروفك، لمّا تطلع من الحبس بورجيك الوش التاني.. والِله لأبهدلك بهدلة متبهدلتش متلها بحياتَك).

(١٩)

انتهت صلاحيّة رسائلي، أصبحت ثرثرةً معلّبةً لامرأةٍ يقول لها حبيبها في صمتهِ: ما عدتُ أريدكِ، لكنّها تتمادى في البلاهةِ بالإلحاح! ربّما كان جيّدًا لو تقشّفتُ في لغتي وادّخرتُ شغفي ليوم كهذا، لكنْ كيفَ أتقشّف ولم يخطر ببالي بأن يومًا كهذا قد يأتي؟ ها أنا أخسرك شيئًا فشيئًا، دون أن أفهم كيف أو لماذا؟ أجلسُ كالمعتوهة مقابلَ صوَرك. أراكَ تبسمُ لي بعطفٍ، وأحيانًا تتحوّل إلى شيطانٍ يبرزُ أنيابه وينفجر عليّ ضاحكًا، مرّةً أراكَ تغمزُ مشاكِسًا كطفلٍ لم يتقن الغمز بعد، ومرّةً تغادر الصورة لتعانقني، ثم تعود إلى وضعيّتك الأولى، كم أفتقدك معي وحولي! في الواقع، أنتَ داخلي. لكنْ هذا لا يكفي كي أطمئنّ، عليّ أن أحسّ بنفسي داخلكَ أيضًا.

بالنبرةِ الحزينةِ ذاتها أزفّ لكّ خبرًا سعيدًا: «احتفلنا أخيرًا بخطوبةِ هديل بعد محاولاتٍ شاقةٍ لإقناع أبي بعلاقةٍ رسميّة في الحلال، إلا أنه ما زال يصر على عدم تزويجها قبل تزويجي! لم نحتفل كما ينبغي. فلم يمضِ على رحيل زيد كثيرٌ من الوقت. في هذهَ المناسبة، كان زيد الغائب الحاضر، افتقدناه جميعًا، تخيّلتُ طيفه في المطبخِ يستعجلني في إعدادِ أطباقِ الحلوى، بينما يستفزّني قائلًا: «عنّستي يا وحشة! خليكي مستنيّة الأسير يطلع من حبسه، بكرا بتكبر لينا وتتزوّج وأنتي لسّاتك بتستنّي!» حين استفقتُ من شرودي تلاشى طيفُه، وبدا ذلكَ الركنُ فارغًا منه. انسكبت من عيني دمعة وانفرجت من فمي ابتسامة.

زبّنتُ هديل بنفسي، كانت تشبهُ ثمرة توشكُ على النضوج، لا هي فتيّة ولا هي ناضجة تمامًا، صبيّة تحملُ الطفولة والأنوثةَ معًا. الحزن ضيفٌ ثقيل في مناسباتٍ كهذه، لذلك كان عليّ أن أبدو سعيدة بينَهم، وأؤجّلَ دمعتي إلى منتصف الليل، وحده ليلي يقبلني بأيّ مزاج كنت.. سأعترف لكَ بسرّ لستُ أدوّنه إلّا لاعتبارك أناي، فيٍ رأسي حامت ذبابة الغيرة وأزعجتني بطنينها، يؤسفني الاعترافُ بالحسدِ، لم يكن شعورًا خبيثًا سيطر عليّ، فأنا لم أكره سعادتها، بل كنتُ أكثر منها فرحًا بها، المسألة التي جعلتني أستسلمُ للغيرة ليست الزواج بل فكرة ارتباطِها برجلٍ تحبّه، في واقعنا لا تتزوّجُ كلّ امرأةٍ من رجلٍ تحبّه، ولا تحبّ كلّ امرأة رجّلًا تتزوّجهُ. رغم تفرّغي للمذاكرة، لا تغادر ذكراك ذاكرتي، كلما ردّدتُ جملة تردّدَ اسمكَ بصداه داخلي مع كلّ نبضة، لا شيء في العالم بإمكانه أن يشغلني عن ذكركَ، حتى أنتَ!

(٢٠)

لقد نجحتُ إن كنتَ تهتّم! انتقلتُ إلى السنةِ الثانية بعد مشقّةٍ كبيرة، ووالدي لم أرهُ بهذهِ السعادةِ منذ وقتٍ طويل.. دعانا إلى مطعمِ السمّاك من أجلِ الاحتفالِ بي، مطعمٌ نحبّهُ في شارعِ جمال عبدالناصر، ارتديتُ أجملَ ثيابي لمرافقتهم، وأنتْ خبّأتكَ في مكانٍ معتمٍ بقلبي لا يراهُ أحد، تمرّنتُ على الضحك، وتعالت قهقهاتي حتى أوشكتُ على الاستسلامِ للبكاء، هنالك شعرةٌ تفصل بين ذروةِ الفرح وذروةِ الحزن. في ثانيةٍ واحدة، قد ينقلبُ الضحكُ إلى بكاء أو البكاءُ إلى ضحك! في ذلكَ المطعمِ الجميل، ادّعيتُ بأنّني أستمتعُ بالأكل، لكنّ استمتاعكَ بالأشياءِ يتوقّفُ على مزاجكَ، قد يوضعُ أمامكَ طبقٌ لذيذ لن تعرفَ كيفَ تحبّه وتستمتعَ بهِ في لحظاتِ حزنكُ، وقد تفرحُ بطبقٍ تأكله كلّ يومٍ إذا كان مزاجكَ جيّدًا، الحزن مرضٌ يفقِد الأشياء جمالها ولذتها..

من أنت؟ أنا لا أعرفك.. أنت لست من أعاد كتابة الرسالة بعد أن مزّقها العسكريّ، ولا الذي يخبّئ رسائلي تحتَ بلاطة في زنزانة موحشّة! حتى أفراد عائلتك يرفضون مخاطبتي. وهذا لا يعني سوى أنها مؤامرة منكَ، كلّ هذا.. وهل أكرهك؟ ولا حتى أتمنّى! أينَ أنت؟ لا أريدُ أن أعرف أكثر من أنّك بخير، كلّ من أحدّثهُ عنك يشفقُ عليّ.. أقصّ عليهم سببَ اكتئابي، ويعرضون عليّ حلّ النسيان، يريدونني أن أطردك من ذاكرتي ببساطةِ الذهاب إلى الحلّاق من أجل قصّ شعرٍ أو طبيب من أجل خلع ضرس! الذاكرة ليست خزانةً نفرغها من الحاجاتِ

الزائدة لنرميها في قمامةِ النسيان، ما يعلقُ بالذاكرة يلتّصقُ بها، هناكَ من الأحبّاء كي تنساهم عليك أن تفقدَ ذاكرتكَ كلها.

قل لي على الأقلّ كيفَ أنت؟ أتعوّدتَ أخيرًا على معاناةِ الأسر أم أنّ المرء لا يمكنهُ أبدًا التعوّد على ظروفٍ كتلك؟ هل أخطرُ ببالك؟ كاذبٌ إن نفيت. لا أصدّقُ أنّ ساعة واحدة تمّر دون أن أراود ذاكرتك بالإصرار ذاتِه الذي راودت بهِ زليخة يوسف. أيّها المتمنّع، هل تقرأ الرسائل التي أرسلها لك؟ هل تقرأ كيفَ ألومكَ على ما لم تقترفه في حقي؟ فأنتَ لم تقترف شيئًا غير الصمت! لقد نجحتُ إن كنتَ تهتمّ، لكنّني لستُ سعيدةً، لا شيء في العالم بوسعه أن يسعدني كمكتوبٍ منك، وحدكَ من تقول للبسمةِ كوني فتكون. شيء ما تغيّر، ربّما أنت، لكنْ ليس ما كان بيننا. وإذا أنتَ خليليّ وراسك يابس.. أنا قلبي أيبس من راسي!

(٢١)

قد تكونُ الرسالةَ الأخيرة.. قد يكونُ خلاصًا لكلينا! ربّما كان من الأفضل أن يكون ما أردتَه، أوّلُ رسالةٍ هي آخرُ رسالةٍ بدلا من العتاب والعذاب.. فليكن. سأخرسُ إلى الأبد، لن تقرأ مكتوبًا منّي بعدَ اليوم! سأختفي من حياتكَ لأكون مجرّد كائنةٍ شبحيّةٍ، تعرّفتَ عليها عبر الإنترنيت ذاتَ ساعة ملل.. طالما كنتُ امرأةً تعرفها بملامحها وصوتِها ومشاعرها، وتجهلُ رائحتها وملمسها وتفاصيل جسدِها! لستَ بحاجةٍ لأخبرك بأنّك لم تكن حبيبًا افتراضيًا، أجملُ ما عشتُه كان في أروقةِ هذا العالمِ الافتراضيّ.

لستُ أوثّقُ هذا الوداع، لأنّي بصددِ الارتباطِ بغيرك. فأنا لن أتزوّج رجلًا أمارس معه الحُبّ بعينين مغمضتين.. أتخيّلهُ أنت، لن أحملَ في رحمي جنينًا، ثم أضع يدي على بطني أتمنّى لو كان يشبهك وهو ليسَ منك! انقطعت صلاتي بأهلكَ، شقيقكَ ما عاد يستخدم السكايب، أمك غيرت رقم هاتفها، والعم جابر لا يرد على مكالماتيّ، لا بدّ أنّك من أوصيتهم بقصّ التواصل من الجذور كي أتوقفَ عن انتظارك وألتفتَ لحياتي، خصوصًا بعد الجلسة الأولى التي لا أعرفُ عنها شيئًا، كيفَ استطعت؟ كيفَ لم تستوعب أيّها الأحمق أنّي ولدتُ لسببين.. لأمنح روحي لك أو لهذه الأرض. والآن، لا أرى نفسي سوى امرأة ضعيفة وتعسة تعيش مسلوبة القلب والوطن..

أجلس فّي غرفةٍ مغلقة بملابس متّسخة، رائحتي كريهة، شعري لم أمشطه منذ أيّام، أقضم أظافري التي تلاشى نصفها،

كلّ شيء يبدو سيّئًا.. المدينة وسكّانها وأشياؤها. قلبي قدرٌ من الدماء تغلي فوق حطبٍ من الأضلع منذ ستّين يومًا! إذا أردتُ عدّ الأيّامِ التي انقضت في انتظارك ستكون النتيجة خمسمائة وأربع وأربعون يوُمًا، وإذا أردتُ التعبير عنها بشكلٍ آخر، فسأقول أنتظرك منذ سنة ونصف السنة. لم أعتقد أنّ ذلك اليوم الذي تخذلني فيهِ سيأتي، لكنّه أتى، وأنتَ تجتهدُ في إسعادي أتعستني إلى الأبد! في رسالةٍ سابقة، قطعتُ لكَ عهدَ الانتظار، وليس انتظارك ما كسرني بل رحيلك الصاعق.. قلتُ لكَ في اليوم الذيلا تتلقّى فيه منّي رسائل.. اعلم بأنّي غادرتُ هذا العالم، وليكن. فلن تتلُقّى منّي شيئًا بعد اليوم، سأنتظر ردّكَ بصبر.. وبعد ذلك، سيكون ما هو مقدّر أن يكون، فلتغفر، وليغفر الله لي رحيلي المبكّر.

(٢٢)

مضى ما يقدّرُ بعشرين يومًا، مشيتُ إلى مكتبِ البريد، أحدّثُ نفسي بأنّ هذهِ ستكونُ آخر مرّةٍ أسلكُ فيها هذا الدرب الذي أحفظه عن ظهرِ قلب.. بدت المسافةُ بعيدة جدّا حتى شعرتُ بجسدِي شاخَ نصفَ قرنٍ، وخيطُ المفتاحِ يتأرجحُ في يدي. عندما فتحتُ صندوقي، لم أصدّق ما رأيتُ. كي أتيقّن.. أغمضتُ عينيّ ثم فتحتهُما، وكان الظرفُ الأصفر ما يزال موجودًا، مددتُ يدي وقرأتُ اسمكَ على الظرف، بكيتُ مثل أمّ أعادوا إليها طفلها المسروق! أغلقتُ الصندوق، ومزّقتُ الظرفَ، ثم انزويتُ على أحدِ الكراسي ألتهمُ الورقة، عاتبتَني ببهدلةٍ على طريقتك، البهدلة التي أحبّها، التي اشتقتُها، وبّختني على قراري المجنون، كما أخبرتني أنّك ستمكث في السجن لسنواتٍ أخرى، فضّلتَ أن أتعذب قليلًا وأتابع حياتي على تمضيةِ عمري في انتظارِ رجلٍ قد لا أقابله:

«يما حبيبتي شو عنيدة قال وأنا الي شايف حالي خليلي وفش حدا أعند مني ولك مجنونّة بحبّك! بعشقِك، بعبُدِك بتعرفي إيش يعني بعبُدك؟ غبيّة أنتِ تفكري بالانتحار؟ أنا حمار عشان عذبتك هالقد! ببوس رجلك تسامحيني والِله بستاهلش نصّ ساعة من عمرك يا هبلة، وبالمناسبة غلطتي لمّا حكيتي «لا أعتقد أنّ ساعة تمرّ دون أن أخطر ببالك» غلطانة كتير، وحياتك ما في دقيقة بتمرّ من غير ما أسبّحْ باسمِك!» في رسالتكَ اعتذرتَ وغازلتَ، ثم شرحتَ موقفك:

«أدركُ حجمَ الألمِ الذي سبّبتُه لكِ، لكنْ هل تدركين إلى أيّ

حد كانت كلّ رسالةٍ منكِ تمزّق قلبي؟ يا الله ما أقساكِ! من أينَ تأتين بهذهِ اللغة يا امرأة؟ هذا الخليط القاتل من الاعتداد واللؤم واللوم؟ تنازلين صمتي بجملٍ حادّة، تقطّعينني إلى أشلاءٍ لتتبيّني إن كنتُ ميّتًا أو لا أزالُ حيًا؟ وكلما نزفتُ لا ترينَهُ الدم، وإذا رأيتِه تقولين هذا الدم دمِي! أيّتها العاشقة التي كلّما افتُتِنّت برجلٍ لعنته، أيّ كاهنٍ هذا الذي يأتي ليتلو عليّ إنجيله، ويثلثني مثنى وثلاث لأتحرّر من لعنتي؟ أيّ إمامٍ هذا الذي يتلو عليّ قرآنَه، ويدهنني بمسكِ النبيّ كي تغادرني شياطين الحُبّ؟ لكنّ كارثتي معكِ أنّني أعشقُ خطيئتي وأضربّ المواعيدَ مع الشياطين، أجدُ في لعنتكِ قداسة وفي هوسكِ لذة شاذّة! أجدُ في عذابنا هذا السلام الغريب.

كانَ صوتكِ داخلي مثل أنينِ نايٍ يتكرّرُ رنينه بالصدى، انتابني ضعفُ الألم، لأنّني أسبّبهُ لأقدسِ إنسانةٍ على وجهِ الأرض، هل تحسبينني كنت أستمتع برؤية دمعك الذي كان يسيل مع الحبر؟ لا يا سلمى، لستُ أنا الذي تتضخّمُ ذكورتُه وهو يشاهدُ معانّاة المرأة التي يحبّ، لستُ أنا من يجدُ متعةً في إذلالِ امرأتِه، كلما كنتِ تتوسّلينني كنتُ أنكسرُ أكثر، أنا رجلٌ إن ركعت لي امرأتي تتشبّثُ بركبتي كي لا أرحل، أحبو على الأرض وأقبّلُ قدميها وأغرِقُ طرف ثوبها بدموعي معتذرًا.. لستِ امرأةً عابرة، يشهدُ الله أنّ نيّتي تمثّلت في إيجاد حياةٍ أجمل لكِ حتى مع غيري - بس حبيبتي عبيطة ومُصرّة تستنّاني - وجدتُ نفسي أفكّر في غدِك بأنانيّةٍ أقلّ، خصوّصًا بعدما حدّثتني عن الضغوطات التي يمارسها أهلكِ عليكِ لتكفي عن انتظاري، حتى إنّهم ربطوا مصيرَ شقيقتكِ

بمصيركِ، قلتُ لنفسي لم أعد أعيق حياة المرأة التي أحبّها فحسب بل أعيق حياة شقيقتها! إلى متى ستنتظرني حبيبتي، وهل شقيقتُها مضطرّة لانتظاري أيضًا؟

راودني شعورٌ بالذنب. لم أعرف كيفَ أكفّر عنه إلّا بطريقةٍ واحدةٍ هي أن أرسم لكِ دربًا مختلفًا رغمًا عن قلبكِ العنيد، ظننتُ الزمن كفيلًا بمعالجة جروحٍ كهذه، وأخطأت. لم يخطر ببالي أنّني أوجعتكِ حدّ أن تتمّنّي الموت، في البدايةِ بدت رسالتكِ مبهمة، فأنتِ لم تتحدثي عن الانتحار حرفيًا، فقط لمّحتّ، لكن حين قرأتُ آخر جملة «فلتغفر وليغفر الله لي رحيلي المبكر» صعِقت! فجأة أصبح جسدي عاجزًا عن حملي، سرَت فيهِ قشّعريرة باردة وتصبّبتُ عرقًا، بينما أتخيّلُ مكروهًا أصابكِ، تملكني الهلع وأنا بصددِ أن أخسركِ إلى الأبد، كانت من أمرّ اللحظات التي مررتُ بها في الحبس، لم يحدث أن اشتهيتُ حريتي كذلك اليوم لأصل إليك وأصفعك، كي لا تعيدي التفكير بهذا مرّةً أخرى، يا الله! كيف تفكرين بالانّتحار؟ أينَ ذهب إيمانكِ بالحياة؟ أكرهُ رؤيتكِ ضعيفة، أعلم أن الحبّ يكسرنا، اعترفنا أم لم نعترف، لكنْ ما دام الحبّ موجودًا في قلوبنا، يجب أن يكونَ حافزًا للحياة وليس للموت، الله يرضى عليكِ خلّي هالحكي حلقة بودانك بدّيش عيده مرّة تانية، قال تنتحر قال، إيش هالحكي الفاضي؟»

طويتُ الرسالة وخمدَ بركانُ قلبي أخيرًا، كأنّي لم أنزفَ كلّ تلك الأيّام، صحيحٌ أنّني تمنّيتُ الموتَ على فراقك، لكنني لم أكن واثقة إلى أيّ حد أمتلكُ الشجاعةَ لاختيارِ مصيرٍ حاسّمٍ ومجهولٍ كذاك، ربّما كانت طريقةً غبيّةً أضغط بها عليك، إلا

أنّني لم أمتلك طريقةً غيرها! عدتُ إلى البيتِ وملأتُ حوض الاستحمام، واستمتعت بدفء الماء وعبير الشامبو؛ بعد ذلكَ، استمتعت بالأكل وأصغيتُ إلى الموسيقى ورقصتُ على أنغامها. كم كان يومي خارقًا للروتين بسبب المكتوب الذي وصلني منك! بوصفٍ أدقّ، عشتُ عيدًا متأخّرًا.

كرم.. الرجل الذي يعرف الجميع ولا يعرفُهُ أحد

(٢٣)

كلّ يوم يمّرّ عليّ أدركُ فيهِ كم أجهلك! أنتَ تشبهُ جبلًا يبدُو قريبًا، لكنْ كلما ركضتُ نحوَه اكتشفتُ أنّهُ ليسَ بالقربِ الذي يبدو عليهِ، بل موغلًا في البعدِ والهروب. أرهقني الركضُ ولم أصل بعدُ إلى حقيقتك. كم من عمْرٍ يلزمني لأجتاز امتحاناتكَ؟ تتركُ لي إشاراتٍ غامضة لأجدك وصِراطكَ ليسَ مستقيمًا.. في نهايتِه لن أجدَ جنّتي، سأجدُ بابًا عملاقًا، أخرِجُ أمامهُ مفاتيحي، ثم لا أجدَ في البابِ مكانًا لمفتاح ولا فيهِ ثقبٌ يريني ما خلفه، ربّما لو كانت امرأةٌ غيري حبيبتك ما كانت لتعرفَ نصفَ ما عرّفتُه عنك، أمّا أنا أعرفُ نصفَ ما أنتَ عليه، لكنّ امرأةً تحبّكَ بكلها من البخلِ أن تمنحها نصفَ قلبكَ ونصف حقيقتك. لستُ غاضبةً.. الغضبُ عاصفة عابرة، والحزنُ موسمٌ طويلٌ من الخيبةِ والألمِ! ما حدثَ أنّي كنتُ أشرّعُ أبوابَ قلبِي لرجلٍ يوصدُ أبوابَه بمئاتِ الأقفال، أتعرّى لرجلٍ يختبئ في عباءاتٍ من الأسرار.

رجاء، في رسالتك القادمة لا تبرر.. الأسوأ من الكذب هي تلك الأعذارُ السخيفة، مهدئاتٌ انتهت صلاحيّتها.

اتّصلَ بي شقيقكَ مجد، حدّثني لساعتين متواصلتين عن رجلٍ غريبٍ كانَ أنت، بالرّغم من حيرتي، استسلمتُ للإصغاء: «نحنُ الذين كنّا نعيشُ معه، لم نكن نعرفُ متى يكونُ حزينًا ومتى يكونُ سعيدًا، كانَ دائم الهدوءِ وملامحُه محايدة، تلك الابتسامة على وجههِ لا تعني شيئًا، إذ يبسمُ للناسِ مجاملة كي لا يقابلهم بالعبوس، لا تعرفين أبدًا بماذا يفكرُ أو بماذا

يحسّ، ذلكَ الغموض يمنحُه جاذبيّةً تجعلُ النساء يقعنَ في شباكِه.

لا نعرفُ كم مرّة أحبّ قبلكِ وأيّ النساءِ أحبّ.. حتى أنتِ لم يكن يتحدّث عنكِ بشكلٍ خاصّ، عرفناكِ عن طريقِ المصادفة عندما اتّصلتِ بي العام الماضي قلقةً عليه، لأنّه أغلق هاتفه المحمول لثلاثةِ أيّام، ضغَطت عليه أمّي لتعرفَ من تكونين، كانَ مُحرَجًا من الاعترافِ بأنّه عرفكِ من خلالِ الإنترنيت، قال اسمُها سلمى. سألته الحجّة من أين؟ أدار ظهرهُ ليغادرَ البيت وأجاب بسرعةٍ دون أن يلتفتّ إلينا: «من خان يونس». لن أخفي عليكِ وقع المفاجأة، إذ كلنا نعرفُه واقعيًا وعمليًا.. كنتُ لأتخيّل أيّ رجلٍ يحبّ امرأة تعرّف عليها عبر الهاتفِ أو الإنترنيت إلا أخي.

ذات سهرةٍ، جلسنا نحن الثلاثةِ في الصالون، نشربُ الشاي ونصغي إلى السيّدة أم كلثوم. بدا منتشيًا بالموسيقى، رأت أمّي مزاجه جيّدًا، فقرّرت استجوابه عنكِ: «احكيلنا شوي عن سلمى.. حلوة؟» شرد قليلًا وابتسم: «حلوة كتير»، ذلكَ اللمعان في عينيه كان يقول: «هي أجملُ امرأةٍ في الكون». حرّك شفتيه قليلا، ثم أضاف: «سلمى طفلة كبيرة ولهذا أحبها، تضحك مثل طفلة وتبكي مثل طفلة، ملامحها بريئة وتصرّفاتها شيطانيّة، لا تتوقّفُ عن ارتكابِ الحماقات، ثرثرتُها جميلة تجعلك تترك كلّ أشغالك لتسمعها تتحدّث عن أيّ شيءٍ، وإن كان تافهًا! تمتلكُ ذلك الشغف في الحديث عمّا تحبّ وما لا تحبّ، يضايقها هدوئي كثيرًا، تتماسك لدقائق ثم تنفعل: «أنتَ إيش؟ بتحسّش؟» تكونُ جادّة وهي بصددِ المزاح، وتستخفّ

بالمواضيع الكبيرة، نبرتُها ساخرة طوال الوقت، ثم بقدر ما هيَ جارحة حسّاسة للغاية!».

سحبَ هاتفه من جيبِه، بحث عن صورتكِ، ثم أرانا إيّاها: «هذهِ هي سلمى»! لا أحدَ منّا امتلك الشجاعة لثنيه عن هذا الحُبّ المستحيل، كان يرفضُ خوضَ هذا الموضوع قطعًا. بعدَ اعتقالِه، لاحظت أمّي أنّكِ أصبحتِ لهُ أكثر من امرأةٍ يحبّها. قالت بأسف: «حبّ كهذا لا ينسى مع مرورِ الوقت»؛ أمّا الآن، دعيني أحدّثك في أمرٍ آخر، كتبتِ لهُ تسألين لماذا طالت محاكمته، ولماذا لم يصدروا حكمًا في حقه ليقضي سنوات سجنِه ويخرج، هل تعلمين أوّلا لماذا اعتُقِل؟ أجبت: «كما اعتُقل عشراتٌ غيره في ذلك الشارع، لأنّهم كانوا يبحثون عن مقاومٍ يدعى كرم!» أجاب:

«كرم أسّس حزبًا سرّيًا، أحد مبادئِه المقاومة المسلّحة. قد تعتقدين أنّ هذِه الحركة تتبنّى مبادئ حركة حماس، لكن لا، هذا التنظيم يوافقها في الكفاحِ المسلح فقط. هي ترفض اقتران فكرة المقاومة السياسيّة بالدين، ولا تردّد شعارات إسلاميّة، أي ليسَ جهادًا في سبيل الله، ولكنّهُ في سبيل الوطن. واجب كلّ شخص باعتباره مواطنا سواء كان مسلما، مسيحيا أو ملحدا، بالإضافة إلى أنّه يحلمُ بفلسطين علمانيّة.. هل تتخيّلين هذا؟ كيفَ علمتَ بكلّ هذا؟

«كرم يوزّعُ بيانات من حينٍ لآخر ليعبّر عن توجّهاتِه، ينسخها الشّباب ويوّزعها على بعضهم بعضًا، الجيلُ الذي سبقنا يرفضُ تبني هذه الأفكار، ويراها دخيلة على مجتمعنا، لا تنسَيْ أنّ الفلسطينيّ يواسي نفسه بفكرةِ الشهادةِ والجنّة،

بحيث لا يذهبُ كلّ هذا الدم والتضحيات هباءً. تخيّلي شابًا يقولُ لهؤلاء: «لا أحد بوسعه الجزم بوجودِ هذهِ الجنّة التي تتحدّثون عنها، لكنّنا جميعًا نعلمُ أنّ هذهِ الأرض موجودة، الله لن يترك سماءَه ليحرّر لكم أرضكم، والشهداء ما كان عليهم أن يصعدوا إلى السماء بتلك الطريقة الشنيعة، أطفالنا يستحقّون مدنًا للملاهي، وأمّهاتنا يستحقِقْن عطلةً من البكاء! آباؤنا نريدهم إلى جانبنا، وحبيباتنا ما زلن ينتظرن أن نلبسهنّ الخواتم والفساتين البيضاء، نحنُ أيضًا نستحقّ وطنًا آمنًا لنرتكبَ خطايانا على مهل، نعيش حياةً طبيعيّة؛ وبعدها، فلينظر الله إلى قلوبنا وليصطفِ الأنقياء إلى جنّته، وليذهب الباقون إلى الجحيم».

«بالإضافةِ إلى مبادئه هذه، كرم هندس أنفاقًا تمتدّ إلى الأراضي المحتلة، يزوّرُ هويّاتٍ إسرائيليّة، العملة يزوّرها أيضًا، يخطّط لعمليّاتٍ فدائيّة في قلب المستوطنات، فكيفَ لا يشكل رجلٌ كهذا تهديدًا على أمن الاحتلال؟ أخبرني.. كيف لم تعثر المخابرات الإسرائيليّة عليهِ حتى الآن؟» «لأنّه لا يحيطُ نفسه إلّا بأصدقاءٍ يعدّون على رؤوسِ الأصابع، وجههُ ليسَ معروفًا، ولا يستخدم أبدا الوسائل التكنولوجية الحديثة، حتى اسمه لم يعرف إلا مؤخّرًا من خلالِ أحدِ المقاومين الذين اعترفوا تحتَ التعذيب، قال إنّه لا يعرف عنه سوى اسمه: كرَمّ، وليس واثقًا إن كان اسمًا حقيقيّا أو حركيّا! أخي طلبَ منّي الاتصال بكِ لأشرحَ لكِ ما حدث» لكن ما علاقتُه بكلّ هذا؟

«لأنّ أخي هو المشتبهُ الأوّل بكونه كرم!».

آخرُ جملةٍ قالَها مجد صعقتني، أنا الغبيّة التي تعتقد أنّك

معتقل إداريّ طوال هذا الوقت، أتفاجأ بكَ معتقلًا سياسيًا يشبّهونك بشخصٍ لا أملكُ عنه أدنى فكرة. مجد لم يؤكّد ليّ إن كنتَ كرم أم لم تكن، قالَ ما عليهِ قوله كما هو مدرجٌ في ملفكَ، كلّ ما قاله لا يصدّق، لا يناسبك ولا يشبهك، أنتَ مواطن عاديّ، لا تبدو رجلًا يزوّر الهويّات ويهندس الأنفاق ويخطّطُ لعمليّاتٍ فدائيّة! عندما طلبتُ من مجد أن يشرحَ لي سببَ اشتباههم بكَ، قال: «لا أدري كيفَ وصلوا إلى معلوماتهم، ولكنْ إن لم يكونوا واثقين بشأن الاسم، فهم واثقون بشأنِ موقعه، أصبحَ مؤكّدًا لهم بأن كرم يعيش في منطقتنا، لهذا لا يتوقّفون عن مراقبة وتفتيش بيوتِ حارتنا، في المنطقة كلها، عثروا على ثلاثةِ رجالٍ يحملون اسم «كرم»، الأوّل رجلٌ أربعينيّ مشلولٌ لا يغادرُ بيتَه تمّ اعتقاله، والثاني مراهقٌ لم يكمل عامَه السادس عشر، اعتقلوه أيضًا وحقّقوا معه، أمّا الثالث الذي يحملُ اسمَ كرم توفي بعد أيّامٍ من ولادتِه».

«هل تريد أن تفقدني صوابي؟ رجل مشلول وآخر مراهق وثالث توفي قبل أن يكبر؟ ما علاقة أخيك بكلّ هذا؟ «الثالثُ الذي توفي بعد ولادته بشهر يكون توأم أخي، أمي كانت حبلى بتوأم، كرم مات وأخي عاش، كلّ هذا موثقٌ في السجلّاتِ المدنيّة»، «تريدُ القول بأن المخابرات تشكّ باحتمالِ ممارستهِ هذا النشاط السياسيّ منتحلا اسم وهويّة شقيقه الميّت؟ مرّة من أجلِ سلامته ومرّة من أجلِ إحياءِ ذكرى شقيقه؟ لكن لماذا لم يحاكم حتى الآن؟ لأنّهم لا يملكونَ دليلًا واحدًا على أنّه كرَم، لا أحد من المعتقلين تعرّف عليه، ليس في السجلّات

الهاتفيّة مكالمة مشبوهة واحدة! تمّ اختراقُ حسابه الفيسبوكيّ ومراقبة بريده الإلكترونيّ، وراقبوه شخصيًا في الفترة الأخيرة، لكنْ لم يعثروا على دليلٍ يحاكمُ بهِ، كأنّ كرم هذا خياليّ! لا أحد واثقٌ من وجودِه، أخي يحملُ اسمًا آخر ويعيشُ حياةً عاديّة، هل تصدقين أنّهم حقّقوا معه في البدّاية ثقافيًا؟ طرحوا عليهِ أسئلةً لا علاقة لها بالسياسة، أسئلة تتعلق بالطبيعةِ والجغرافيا والفنّ والتاريخ والفيزياء، كلّ هذا ليختبروا ذكاءه، معظمُ إجاباتِه كانت خاطئة، المواضيع الوحيدة التي أصابها هي مواضيع الموسيقى والسينما والأدب «أخذ نصف العلامات، لم يكن نابغة بل مجرّد رجلٍ متوسّطَ الذكاء، حتى الساعة التي أحدّثكِ فيها يجرون جلسةً ويؤجّلون أخرى، مماطلةً ليعثروا على دليلٍ يحاكمونَه بهِ».

«أتوسّلُك! فقط أخبرني من يكون» «أقسمُ لكِ برحمةِ والدي إنّني لا أعلّمُ شيئًا، ما أعرفُه عن أخي هو ما تعرفينه، لا أحدَ من الناس يصدق هذا الاتهام، وحدهُ الله يعلم! المرّة السابقة عندما زرتُه في السجن، تحدّثنا عبر الهاتف من خلفِ الحاجز الزجاجيّ. وقبل مغادرتي، أوصاني: «اتّصل بسلمى.. أريدكَ أن تشرح لها لماذا لم أحاكم حتى الآن، هي لا تعلم تفاصيل قضيّتي، أطلب منها الغفران، قلْ لها لم أجد طريقةً للقول، إخفاء هذا لم يكن من أجلِ التمسّكّ بها، فأنا أعلم أنّها ستخلصُ لي وستنتظرني وإن مكثتُ العمر كله، لكنْ في تلك الرسائل، آخر ما كنت أرغب بالحديث عنه الحبس وظروف الاعتقال».

أيّها الغبيّ! ما دمتَ تعلمُ بأنّي نذرتُ حياتي لانتظارِك، لمَ

تجنّبتَ مصارحتِي؟ بقاؤكَ في السجنِ يحزنني، لكنّ هذا الحزن لا يقارنُ بالألمِ الذي أعيشهُ؛ فأنا ما عدتُ أعرفُ من يكونُ الرجلُ الذي أحبّ، أعيشُ هذا الشكّ منذ أيّامٍ.. وأتساءل!! هل كلّ ما أخفاه هو تلك الشبهة؟ أغفرُ لكَ هذا التكتّم، وأجدُ أعذارًا له مثلًا أقول خشيَ أن يقلقني عليه ويحطّم معنويّاتي، وأحيانًا أفكر بأنّ بوحًا كهذا قد يمسّ سلامتك، أو ربّما لا يناسبُ رسائل قد تصنّفها أنتَ غراميّةً.. لكن أن تكونَ رجلًا آخر، هذا ما يقلقني.

قل لي.. كلّ ما جمع بيننا، ألم يستحقّ أن تكونَ صادقًا معي من أجله؟ لو تلقّت امرأة غيري هذا الخبر، ربّما كانت لتفرح، لكنّني أعدّك بطلًا منذ البداية، بطلًا بإنسانيّتك ومحبّتك، كنتَ العاشق البطل في عينيّ، لم تكن بحاجةٍ إلى أن تتلثّم وتذهب للقتال كي أراك رجلًا استثنائيًا، وفكرةُ أنّك مقاوم لا تزعجني ولا تسعدني، ما تزال غامضة في ذهني.. غير أنّ فكرة الانتحال هي ما تجعلني أتوجّع، فكرةَ إخفاءِ حياة كاملة وتفاصيلَ خطيرة كتلك. إنّي أرغبُ بلكمك وركلك وشدّك منّ شعرك، غير أنّي أحبّكَ يا رجل.. أيًا كنتَ، يجبُ أن تعدني بألا تخفي عني المزيدَ من الأسرار.

(٢٤)

حبيبتي سلمى!

كلّ يومٍ يمرّ عليكِ تدركينَ فيهِ كم تجّهلينني، وأدركُ فيهِ أنّني لستُ الرجلَ الذي يستحقّكِ.. تستحقين رجلًا يرتدِي المئزر ويقف في المطبخِ لساعاتٍ كي يعدّ لكِ الطعامَ الذي تحبّين. يُحمّمكِ في حوضٍ مليءٍ بالحليب، يقلمُ أظافركِ ويطليها، يجففُ شعركِ ويجدّله، يلبسكِ الذهب والحرير، يراقصكِ ويصحبكِ إلى الحدائقِ والسينما، تجلسين أمامه عاريةً إلا من تاجِ الورد، ليبدعَ لوحةً توضعُ في متحفٍ تحتَ الحراسةِ المشدّدة، يحجّ إليها العشّاق من كلّ صوبٍ، ليتفرّجوا على المرأةِ التي فتنت الرسّام، ربّما من الأفضل أن يخلدكِ في روايّةٍ، ليعرفَ العالمُ بأسرِه أيّ النساءِ تكونين. أنتِ إلهتي التي أصلي لها لتباركني ولا تعاقبني بلعنُاتِها! المرأةُ التي وددتُ لو كانت أمّي أو ابنتي، أي امرأة أكون بعضًا من دمائها أو تكون بعضًا من مائي.

تسألين من أكون؟ أنا نفسي ما عدت أعرف من أكون.. أنا مرضُكِ المزمنُ يا سلمى، الألمُ الذي تعانين، الدمعةُ الحارّة التي تذرفينها فتسيلُ على الوسادة، الغصّةُ المحتجزةُ فيُ حلقكِ، أنا الصداعُ الذي يسيطرُ على نصفِ رأسكِ، الحرقة في معدتكِ والتصلّبُ في أصابعِ قدميكِ، أنا الوسادةُ الخشنةُ التي لا تمنحكِ الأحلامَ الشهيّة، والغطاءُ الخفيفُ الذي لا يزيدكِ إلّا بردًا في أيّامِ الشتاء، أنا الطعامُ الرديءُ والماءُ الملوّث، إبرةٌ مهملةٌ في قلبكِ لا تتوقّفُ عن وخزكِ، والرصاصةُ التي تخترقُ

صدركِ حبّا، الجرحُ المفتوحُ في ذاكرتكِ أبدًا، أنا يا سلمى الرجلُ الافتراضيّ والوهميّ والمسخُ المشبوه وراء قضبان سجنِه، ألم تكتفي بعدُ من الألمِ أيّتُها الشقيّة؟ يا امرأةً مصابةً بي، ألا تعزمين أبدًا على تناول مهدّئاتٍ تقضي على الوجع، أو أعشابٍ سحريّةٍ تساعدكِ على النسيان؟

فعلتُ كلّ ما في وسعي لتركِك، فماذا فعلتِ أنتِ؟ هل ساعدتني؟ منذ البداية، تجنّبتُ التسبّبَ في أيّ عذابٍ، رفضتُ أن تضيّعي ساعةً واحدةً في انتظاري، فقط لأنّ عمركِ أثمن، أردتُ لكِ حياةً مختلفةً أن تتزوّجي رجلًا شهمًا من القطاعِ أو خارجه، ليمنحكِ حياةً تستحقينها. إيّاكِ أن تعتقدي أنّ التضحية بكِ من أجلكِ كانت سهلّةً كما تبدو! أصعبُ ما عشتُه، هذهِ المحاولة القاسية في التخلي عنكِ، الأمرُ كان كما لو اضطرّ رجلٌ لبترِ ذراعِه بنفسِه بمنشارٍ صدئ ودونَ تخدير، كنتِ الجزءَ الطاهر والطريّ والحسّاس منّي، جزءًا أهمّ من القلبِ نفسِه، ما القلب سوى عضلةٍ تضخّ الدماء من أجلِ العيش، فهل كلّ الذين تنبضُ قلوبهم سعداء؟ آخ.. أحبك بكل النبضات التي ضخها قلبي، بكل الدماءِ التي تتدفّق في جسدي، وبكل الهواءِ الذي تنفّستُه وزفرتُه. قطعتُ إذن عهدًا لنفسي، قررّتُ ألا أردّ على رسائلكِ كيفما وجدتُ مضمونها، وكنتِ أعندَ عاشقةٍ عرفها التاريخ! علمتُ بأنّكِ لن تستسلمي بسهولة، دون أن يخطر ببالي أنّكِ لن تستسلمي مطلقًا، رحتِ تستمرّين بثرثرتكِ المعتادة، مثلَ طفلةٍ تضع أصابعها في أذنيها وتستمرّ بالبكاءِ والصراخ. كلّ ذلك الأنينُ الذي كان يصلني كان يقطّعُ قلبي، إلّا أنّني صمدتُ لأجلكِ، وإذ بي أجدني أقتلكِ

بينما أظنّني أحييكِ، كنتِ تموتين بين يديْ رجلٍ غبيّ وضعَ جسد حبيبتِه على ساقيه، وراح يسحب من فمِها الهواء بدلا من منحها إيّاه! يقوم بالتنفّس الاصطناعيّ بالطريقة العكسيّة والخاطئة، وإذ بها تختنق بدلا من أن تعيش.

سأغادرُ هذا السجنِ اللعين يا حبيبتي، لن أمكث هنا نصفَ قرنٍ حتى ينحني ظهري ويبيضّ شعري، لن يجعلوا منّي أسيرًا أبله يخرجُ فلا يتعرّفُ على ملامحِ أناسٍ يحبّهم، مثلَ كلبٍ تمّ ربطُه وتعذيبه فينتحرُ بإلقاءِ نفسِه أمام أوّلِ شاحنةٍ، لأنّه تعوّد على العيش في العتمة حتى ما عاد يحتملُ رؤيةَ النور، لن أتعفّنَ في زنزانةٍ انفراديّةٍ يا سلمى، سأخرجُ وأمشي إليكِ من الخليلِ إلى خان يونس، زحفًا إن تطلب الأمر، نعم سأزحفُ مثل دودةٍ لأقبّل الحياة بين يديك..

سأدقّ بابكِ ذاتَ يومٍ وألبسكِ الخاتم وفستانَ الزفاف، سأتزوّجكِ، وسنعيش تحتَ سقفٍ واحدٍ، سأفرغ مائي في رحمكِ وأنجب منك جيشا من الأطفال، ستكون غرف بيتنا بلا أبواب، لا أريدُ لأيّ بابٍ يفصلني عنكِ.. وقد أبني بيتًا بلا جدران ليكونَ غرفةً كبيرةً ومفتوحةً، فيها نأكل وفيها ننام وفيها نمارسُ الحُبّ ونقرأ ونكتب ونشاهد الأفلام. كوني قويّة دائمًا كما عرفتُكِ، وتحمّلي. سلمى! إن تمّ اقتيادي إلى منصّة الشنق، وعندما يعلقون الحبلَ في عنقي ويسألونني عن أمنيتي الأخيرة، سأقول لهم: «اجلبوا حبيبتي أعانقُها مرّة واحدةً، وخذوا روحي بعد ذلك».. بحبّك.

(٢٥)

أرسلَ لي مجد صورةً جديدةً التقطها لكَ المحامي، رغم لهجتكَ الشديدة بألّا يرسلها، أنتَ لم ترغب بأن أراكَ مرتديًا البدلة البنّيّة المكتوب عليها بحروفٍ عبريّة، أردتني أن أحتفظَ بصورتكَ في ذهني حرًا بملابسَ عاديّة وبدَيْن طليقتين، رأيتكَ تبسمُ للكاميرا ابتسامتكَ الصغيرة، تحدّق بنظرةٍ مائلة وواثقة، دافئة وحادّة في الوقتِ ذاته، نظرتكَ وحدها تهمة مستقلة، القيودُ لم تسلبكَ ربع اعتدادكَ يا رجل! ما أجملكَ وما أقبحَ عالمًا لستَ فيه. أقبّلُ صورتكَ على شاشةِ هاتفِي كما لو كانَ وجهكَ بينَ يديّ، أتأمّلُ عينيكَ، تسحرني دائمًا النقطةُ المُشعّة في كلّ واحدةٍ منهما، نقطةٌ من نورٍ ساطعةٍ مثلَ نجمةٍ منعزلةٍ في سماءٍ كالحةِ السواد، كأنّها تبحثُ عنّي أو ربّما لتضيء طريقي إليك.. أضعُ فمي على شفتين نصفِ مفتوحتين، أنزلُ قليلًا لأقبّل الفجوةَ الفاتنة في ذقنكَ. وبعدَ كلّ هذا التقبيل، أبكي سذاجتي. وعندما ألطّخُ هاتفِي يخيّلُ إليّ أني تركتُ دمعةً على خدّك، أمسحُها بطرفِ كمي، وأحدثك طويلا، تماما كما أحدثك أثناء الكتابة إليك. لَو تعلمُ كم يفتنُني جسدكَ البرّي! لا تعتقد أنّ المرأة تشتهي رَجُلها أقلّ ممّا يشتهيها، فقط لأنّها تتفوّقُ عليهِ بانحناءاتِها وتكوّراتِها، للرجلِ أيضًا جسدٌ مثيرٌ للإعجاب، بقدر ما يرغبُها ناعمةً بقدر ما تشتهيهِ مثلَ رجل الغابة البدائيّ.. هيَ لا تريده ناعمًا، حليقًا، مؤدّبًا وملتزمًا بالقواعدِ، لا تحبّه روتينيًا يتّبعُ ترتيبَ أبجديّةِ جسدِها، تريدهُ قادمًا بكل شعرِه وشِعرِه، مشاغبًا، مشاكسًا، لمّاحًا، راغبًا،

حارًا، مشتاقًا، متوهّجًا، متوحّشًا. أمّا لجسدكَ أنت حكايةٌ أخرى، عدا شعرك وملامحكَ التي أحبّها، يروقني عنقكَ المزيّن بشاماتٍ متلاحقة، وذلكَ العرق البارزُ فيهِ الذي يتشنّجُ كلما غضبت..

أحبّ صدركَ، بطنك وسُرّتها البديعة، ذراعيك القويّتين وساقيك الطويلتين، تسعدنِي رؤيتكَ ضاحكًا كما أستمتعُ برؤيتكَ غاضبًا، تزّمّ شفتيك ويتسارعُ تنفّسك لتنزوي عنّي بصمتك، أنتَلا تعاقبنِي إلا بالصمت، والصمتُ أقّسى عقوبة لامرأةٍ مثلي! أحبّ رؤيتكَ باكيًا ونادرًا ما تبكي، تتأثرُ كلُما كنتُ صادقةً أكثر ممّا يجبّ، تتجمّد ملامحك مثلَ رجلٍ تمّ إطلاق النارِ عليه، تتكوّم دموعٌ شفافةٌ في عينيك، تخفي وجهك وراءَ يديك: «ما الذي تفعلينَه بي؟ أنتِ المخلوقة الوحيدة التي تجعلني أصطدمُ بكلّ هذهِ المرايا داخلي!».

لغتكَ شلّالٌ من الكلماتِ العنيفةِ تصبّ في قلبي، أستحمّ فيها لأخرجَ منها امرأةً جديدةً، صوتُكَ دهليزٌ حلزونيّ طويلٌ مضاءٌ بالشموعِ، كلما سمعتُه رغبتُ بالصلاة، لكنتكَ الخليليّة تشبهُ امرأةً إفريقيّةً تدبك على صوتِ الطبول، بحّتُكَ نهرٌ من عسلِ الجنّة يسبّبُ لي حريقًا لذيذا يمتدّ من أذني حتى القلب، تعجبني أيضًا حماستكَ في الحديث عن التاريخ، السياسة أو الأدب. كيف يستمر نقاشنا لساعاتٍ حولَ روايةٍ قرأناها، تعرفُ ما يريدُ الكاتبُ قوله وما لا يريدُ، تحلل الرموزَ كناقدٍ أمضى عمرهُ في تشريح الروايات. أعشقُ الأقلامَ التي حظيتْ بشرفِ الوقوفِ بينَ أصابعك، والكتبَ التي غفت على صدركَ.. وسراويلك التي تلبسُها أرغبُ بارتدائِها.

أغارُ عليكَ من الجارات والممثلاتِ والغانيات والكفيفاتِ والعرّافات والمتسوّلات، أغارُ عليكَ من الوسادةِ والملاءةِ والقهوةِ والسيجارة والورقة والملعقةِ، تأسرُني رؤيةُ السيجارةِ البيضاءِ ممدّدة بينَ أصابعكَ الطويلة مثلَ امرأةٍ شبقةٍ مستسلمةٍ لغوايتكَ الذكوريّة، تضعها بلطفٍ بينَ شفتيكْ.. توقدُها، تسحبُ نفَسًا طويلًا لتخرجَ من فمك دوائر عجيبة من الدخان. أراقبُ بدهشةٍ مساراتها في الهواء.. حتى طريقتّكَ في الأكلِ أحبّها، كيفَ تضعُ اللقمةَ في فمك وتمضغها بينَ فكين قويّين ببطءٍ مغرٍ يسلبني أنفاسي، أراقبُ عبور الماء لحلقك، دفقاتٌ من الماءِ تعبرُ لسانك كالموج، تتوقّفُ قليلًا عند صخرةِ تفّاحتك الصلبة ثم تواصلُ طريقَها. أحبّك عندما تضعُ يدكَ على ذقنكَ لتتأمّلني باسمًا بلؤم! أرى انعكاسي في عينيك الشفّافتين عاريةً، وأقرأ في صمتكٍ أفكارك الإيروتيكيّة. أنتَ الرجلُ الذي حلمتُ بهِ عندما كنتُ في رحمِ أمّي! الفارسُ الذي يجعلُ الحزنَ جميلًا والحلمَ ممكنًا، أريدكَ أن تعلم أنّي توقّفتُ عن طرحِ ذلكَ السؤال عن نفسي، ما عاد يهمّني من تكونُ، كن أسامة، فارس أو كرم، كلّ ما أنتَ عليهِ لي.

(٢٦)

من الجنوبِ بدأتُ رحلتي.. من الزاويةِ الضيّقة التي تشبهُ في الخريطة نصلَ خنجر، أنسخُ لكَ حلمًا جميلًا لأصحبكَ معي في رحلةٍ، نكتشف فيها مدنًا نجهلها، مثل أيّ مواطنيْن يسافران داخل وطنهما العاديّ، أقول وطنًا عاديًا، وأقصدُ وطنًا لا تنتظر فيه تصريحًا كي تترك مدينةً لتزور أخرى.. تقفُ فيهِ لساعاتٍ طويلة عند المعابر، أتحدّث عن وطنٍ بلا حواجز ولا جدرانٍ فاصلة ولا أسلاكٍ شائكة ولا علمينِ يرفرفان بألوانٍ متناقضة. دعكَ من هذا الكلام، في هذهِ الرسالة لا أنوي إيقاظ جروحٍ نائمة، سترى بعينك كيف ستتّفتحُ في كلّ جرحٍ وردة.

في الحلمِ، فتحتُ عينيّ لأجدَني في جسدِ حمامةٍ! ارتشفتُ الندى وفردتُ جناحيّ، وحلقت.. لو تدري كم بدت المدينةُ جميلة من فوق! فتحَ الناسُ نوّافذهم، فتسرّبت رائحة القهوةِ من المطابخ وروائحُ الكعكِ المُحلى من المخابز ممتزجة بعبقِ زعتر المناقيش، رأيت الأطفال يذهبون إلى مدارسهم، وسمعت فيروز تغنّي من مكانٍ ما.. سألتكَ حبيبي لوين رايحين خلينا خلّينا تسبقنا السنين.. وأنا حمامةٌ تعرفُ وجهتها جيّدًا، قرّرَت أن تتفقد جسدَ وطنِها قبلَ أن تستقرّ على كفّ حبيبِها.

من الجنوبِ، بدأتُ رحلتي، من الزاوية الضيّقةِ التي تشبهُ في الخريطةِ نصلَ خنجر.. بدأتُها من صحرائنا، مدنِنا الجنوبيّةِ في النقب، حييتُ جمالَ رهط، وحلقتُ حولَ مئذنةِ مسجدِ السلام، ثم تجوّلتُ في الأحياءِ القديمة لحورة؛ وفي قريةِ أمّ الحيران، أنصتّ لحكاياتِ العجائزِ صباحًا بينما يرتشفنَ قهوتهنّ،

جالساتٍ على حصيرةٍ، متّكئاتٍ على جدارٍ طويلٍ لبيتٍ قديمٍ.. حدّثونَا كثيرًا عن العنبِ والبرتقال والتينِ والزيتون.. لماذا لم يكتبوا عن نخيلِ النقبِ وحلاوةِ التمرِ الشهيّ؟ لماذا تغزّلوا بحيفا ويافا وللصحراءِ أيضًا وجهٌ جميل؟ من هناك أيّها العزيز حلقتُ فوق بئرِ السبع، ستجدُ أنّهم غيّروا ملامحَ المدينةِ ووجهَ المباني، لكنْ تلمّسْ جذعَ الشجرة، وسيُخيّلُ إليكَ أنّك تتلمّسُ وجهَ جدّك.

من بئرِ السبع، واصلتُ رحلتي إلى الخليل، هناكَ في الظاهريّةِ، رأيتُ مباني مسنّة، عمرُها خمسة آلافِ سنة، أحجارٌ متراصّة فوق بعضِها، كلّ حجرٍ يروي حكاية قبيلةٍ رحلت، أبوابٌ مقوّسة وأحياء مهجورة تنتظر عودة سكّانها، كما تنتظرُ الجدّاتُ عودةَ الأحفاد. في بيتِ كاحل، رأيتُ شيخًا يربطُ رأسَه بكوفيّةٍ قديمة، تركَ الأغنام ترعى وجلس على صخرةٍ يمسك بقبضتهِ العصا كالتي قد تهربُ منه! ينظرُ إلى اللاشيء بينما يفكر بكل شيء، تجاعيده تروي سنوات من الهم. في مدينة بيت لحم، هناكَ في بيّتِ جالا، رأيتُ امرأة تعلق على حبل الغسيل قمصان زوجها المُبللة، تحاول إخفاءَ دموعها عن زوج توقفَ عن حبّها.

دعني أحدّثك عن القدس.. من بعيد، رأيتُ المدينة لوحة فسيفسائيّة من مكعّباتِ البيوت، تتوسّطها ساحة المسجد الأقصى والقبّة الذهبيّة تلمعُ من بعيد. كنتُ منهكةً، لكنّني واصلتُ التحليق إلى أن وقفتُ فوق الهلال الذي يشبهُ تاجًا يزيّنُ قبّة الصخرة، تملكني إحساس ملكةٍ تمّ تتويجها للتوّ، لم أكن بحاجة إلى تصرّيح، لم أستأذن أحدًا، لم يطردني شرطيّ،

كنتُ حرّة تمامًا بكل ما تحمله الحُرّيّة من فرح وثقةٍ وطمأنينة، نزلتّ إلى الباحة المجاورة للمسجد الأقصى، وصليتُ كما يصلي الحَمام، أخفضتُ جناحيّ لله، أغمضتُ عينيّ، وتلوتُ صلواتي التي احتفظتُ بها لحلمٍ كهذا.

من القدسِ، حلّقتُ إلى مدينةِ القمر.. أقدمُ مدنِ الأرض، هناكَ تمنّيتُ لو كنّا معًا مثل عاشقين بدائيّيْن، نستلقي سويًا في قلبِ واحةٍ تحتَ ظلالِ النخيل، أو كعاشقين حداثيّيْن نرّكبُ التليفيرك لنشاهدَ أريحَا من فوق، ونتبادلَ القّبلات ونحنُ معلقانِ في السماء. في قريةِ الرام، رأيتُ شبابًا يتسلقون الجدار العازل ليذهبوا إلى الصلاة. ما ألذ عنادنا، نحنُ شعبٌ إن صمّمنا على فكرةٍ ننفذها بطريقةٍ تعجزُ عن تنفيذِها الشياطين! نجترّ أكثر من خيبةٍ ونرفضُ الاعترافَ بالهزيمةِ، ولا زالت هناكَ أمّ تملكُ من الجرأةِ ما يكفي لتبصقَ في وجهِ جنديّ، وما زال في الطفلِ غضبٌ ليركض وراء دبابة ويرجمها بحجر، وثمة رجل مثلك فضل أن تخترق رصاصةٌ رأسه على أن ينبحَ كالكلاب!

في كفر عقب، رأيتُ مراهقًا يقذفُ نافذة حبيبته بنواة زيتون، ورأيتها تلوّح بيدها مبتسمة تقول روح! في البيرة، رأيتُ امرأة مسنّة موشومة الجبين، في كفّيها حمرةُ حنّاء، كانت تحملُ مسبحة طويلةً، عقدت أصابعها تعدّ أسماء أحبّائها من الأسرى، وعندما تنتهي، تترحّم على أرواحِ الشهداء. ذاكرتها موسوعة ضخمةٌ لأسماءٍ كثيرة تحفظهّا عن ظهرِ قلب، كأنّها أنا عندما أكبرُ أو هكذا تمنّيت. لم أحلق كثيرًا في البيرة حتى سمعتهم يقولون هنا رام الله.. في سوقٍ مزدحم، رأيتُ بعض

الباعة والزبائن يتبادلون الشتائم بسبب غلاءِ الأسعار، وامرأة تتذمّرُ من طباعِ زوجها لابنتها، تهزّ رأسَها ضجرةً مثل التي تسمعُ الأسطوانةَ ذاتها للمرّةِ الألف! ساقني صوتُ العودِ إلى مقهى يحملُ اسم المدينة، يجتمعُ فيه الشعراء يتذوّقون معًا الموسيقى وأشهى القصائد..

مررتُ ببلدة بيت فوريك في الطريقِ إلى نابلس، شممتُ عبير الوردِ، ودُهشتُ لجمالِ النابلسيّات، رأيتُ كيفَ يقطفُ الأطفال السنابل الخضراء ليأكلوا من القمحِ الغضّ قبل أن ييبس، وتذوّقتُ الكنافة النابلسيّة؛ تجوّلتُ في الأسواقِ القديمة، ورأيتُ كيفَ يُعجنُ الصابونُ في نابلس. في هذهِ المدينةِ، كلّ شيء يبدو أشهى! حتى الألوان تراها أصفى، كأنّك تكتشفُ كلّ شيء عرفتَه لأوّل مرّة حتى نفسك.. ساقني جناحاي إلى مدينة طولكرم، تعرّفتُ على شوارعها وأشجارها ومبانيها، لكنّي بكيتُ حين وصلت إلى المخيم، ورأيت بؤس أبناء شعبي. في تلك المنطقة، ثمّة من يفوقنا أكثر خيبةً وحزنًا وفقرًا! لستُ أتحدّثُ عن مبانٍ مكدّسة فوق بعضها بعضًا، أتحدّث عن أطفالٍ ينامون بلا عشاء، عن صبيّة تحلمُ بفستانٍ جديد وشابّ لا يملك في جيبه ثمن خاتم لفتاة يودّ لو يخطبها. في جنين، توقّفتُ طويلًا عند كنيسة برقين، قيل مرّ المسيحُ من هنا، ومسحَ على عشر وجوهٍ فبرأت من البَرص، كأنّ المسيح كان هنا منذ ساعات، أو لا يزالُ حاضرًا بروحِه. أمامَ الكنيسة العتيقة، أخفضت جناحي وصليتُ مرّة أخرى، الصلاةُ الأولى في القدس كانت من أجل الأرضِ، والصلاة الثانية في جنين كانت لكَ.

إن زرتَ أرضَ الجليل ستبكي، من فرطِ جمالها تبكي، فتنتها مؤلمَة! سيوجعك أن هذه الجنّة المسروقة لكَ؛ في الناصَرة، نفخَ الملك جبرائيل في كمّ مريم العذراء من روحِ الله، وهناك أنجَبت يسوع، بساحة عين العذراء، شربتُ جرعات ماءٍ من العين التي كانت تملأ السيّدة مريم جرّتها. تجوّلتُ في السوق القديمة، في السرايا، في مقام النبي سعين، في كنيسة البشارة، وتابعتُ صلواتي.. في كلّ دار عبادة أهدي صلاةً للذين أحبّهم، وفي طبريّا يا حبيبي هنالكَ حياةٌ! ماءٌ، عشبٌ نديّ، وبصماتٌ بصمها المهاجرون بأرواحهم قبل الرحيل، هناكَ أزهارٌ بهيّة، وبحيرة تمنّيتُ لو نقضي شهر عسلنا على شاطئها.. في طبريّا، هناكَ أحلامٌ موؤودة ستنهض من أنقاضها يومًا لتكونَ لنا.

هل تصدّق أنّي وصلتُ لمدينة عكّا؟ عليكَ أن تصدّق..

وأنت نائم كل الأحلام ممكنة، لقد تواجدت هناك بروحي حقا، تجوّلتُ في بلدة عكّا القديمة بحاراتها القديمة الثلاث والعشرين، رأيتُ الجدران المتآكلة وحصيرة ملوّنة معلقة على شرفةِ أحدِ البيوت العربيّة، رأيتُ أسوارها.. قلعتها، مساجدها.. مسجد الزيتونة، الميناء والجزّار، كنيسة القدّيس يوحنّا، جوارجيوس، الفرنسيسكان وبرج الأجراس..

وقفتُ في منارة عكّا، أحدّق إلى البحر وأبكي، وصوتُ درويش يدوّي داخلي (هذا البحرُ لي). ومن حيفا، أطلقتُ صرختي وذاكرتي تعود إلى العام الثامن والأربعين، كما لو كنتُ داخل قصّة العائد إلى حيفا، رأيتُ الهاربين من الموت من بينهم سعد وصفيّة، رأيت الراحلين في قواربهم يتركون

كلّ شيء خلفهم ويبتعدون بقلوبٍ ممزّقة.. ما أصعب أن تطردَ من أرضكَ، يأخذكَ الموجُ إلى ضفةٍ أخرى فيها حياة وليس فيها وطن! من جبل الكرمل، حلّقتُ عائدةً، فهمتُ لماذا يطلقُ الناسُ على بناتهم اسم: «كرمل». يا له من جبل عظيم بطوله ومغاراته! جبلٌ يمتدّ من نابلس ليطلّ على عكّا وحيفا. فوق قمّةِ عين الحايك، رأيتُ الشمس قريبة جدًا، تكتبُ لي بأشعّتِها على غيومٍ ممزّقة: «لا تحزني يا ابنتي. اليوم لا يشبهُ الأمس.. وغدًا لن يشبهَ اليوم».

مررتُ بقريةِ جسر الزرقاء ورمّانة ويَعبد، حتى وصلتُ إلى قلقيلية، ثم إلى مدينةِ يافا، الطفلة الفلسطينيّة المُدللة التيلا أتخيّلها سوى صبيّة شقراء زرقاء العينين بجدائل ذهبيّة وفستان أخضر قصير، ثم إلى مدينةِ تلّ الربيع... الصورة الناضجة عن يافا، من الغباء ألا أعترف أنها مدينة لا تشبهنا، تشبه مدينة أميركيّة ببناياتِها وقطاراتها وناطحاتِ السحاب.. أجبني! هل سيأتي يومٌ نعيد فيه ترتيبَ المدينة على ذوّقنا؟ أسمعُ صوتكَ يردّ داخلي: «وحياتِك ليجي». في العودة، حلقتُ فوق حدائق الرملة ثم مررتُ بعَسقلان، المدينة التي جاءت منها أمّي وعمرُها سنتان، والمدينة التي يعتقلُ فيها الرجلُ الذي أحبّ.

أصبح اسم المدينةِ «أشكلون». رأيتُ فيها بيتَ جدّي، البساتين وأشجار البرتقال وينابيع الماء تروي مزارعنا المسلوبة، ختمتُ رحلتي بزيارة سجنك. في البداية، وقفتُ على حافّةِ نافذة المطعمِ الزجاجيّة، رأيتكَ تمشي في صفّ طويل لتأخذ صينيّتك، بدوتَ أنحف عن المعتاد، جلستَ تقلبُ الأكل بملعقتكَ لا أدري في ما كنتَ تفكّر! هل كنتَ تعدّ كم

تبقّى لكَ في السجن؟ هل كنتَ تفكرُ بي وبورطةِ علاقتنا المستحيلة، أم أنك كنتَ تتذمّرُ في صمتكَ فحسب من طعام لم يعجبك طعمُه؟

رأيتكَ تبتلعُ لقمةً واثنتين ثم ثلاث، تجبرُ فمكَ على مضغِ الطعام.. شربتَ بعد ذلك الماء دفعةً واحدة كمن يشربُ الدواء، وخرجتَ مع رفاقّك إلى الساحة، ابتعدتَ عنهم قدر الإمكان.. لا أفهم لماذا تقدس الوحدة لهذا الحدّ؟ وقفتَ تستندُ بكتفك على عمودِ إنارة، كنتَ تقرأ رسالة من رسائلي، راقني تصفّحُ ملامحك وأنتَ تلتهمُ الورقة بعينيك، حططتُ على كتفكَ، شعرتُ بنبضك، قبّلتكَ على طريقةِ الحمام بنقرةٍ واحدة من منقاري المعقوف على كتفكَ، فالتفتّ وابتسمتَ لي، كأنّكَ حدَست من أكون. حملتني بيدك وحدثتني عني، فدمعت عيناي. وقبل أن تسقط الدمعة استيقظتُ من الحلمِ! سأعترفُ بأنّ ما كتبتهُ هنا تجاوز ما شاهدتهُ أثناء نومي، كلّ ما رأيتهُ أنّني أحلق في السماء، وأرى بلادي من فوق، على هذهِ الورقة أضفتُ الأحلامَ الأخرى التي ننسجُ تفاصيلها ونحن نصف يقظين، الأحلام التي لفرط تعلّقنا بها نغيبُ عن الوعي كالسكارى، بينما ننسجها في مخيّلتنا، راسِلني وأخّبرني كيف تعيش أيّامك. أنتظرُ خطابك بشوق... أحبّك بكلي.

(٢٧)

أحتفظُ بالورقِ الذي تُرسلهُ لي في صندوقٍ أنيقٍ مغلّفٍ من الداخل بالقطيفةِ الزرقاء، أعيدُ قراءة رسائلكَ بحذر خشيةً على هشاشُةِ ورقٍ قد يمزّق إذا قدّ بانفعال، أشمّها وأتفاجأ بالورقِلا يخون رائحته، إحدى الرسائل التصقت بها رائحة التبغ، أتفقّد كلّ كلمةٍ كتبتَها مثلما تتفقّد أمّ جسد رضيعها، أتفقّد كلّ نقطةٍ وكلّ فاصلة وعلامات الاستفهامِ المنّحنية، أجدُ لذة لا أعرفُ كيف أصفها في اكتشافِ لغتك، أفكك أزرار النصّ وأرخي جدائل الجُمل، أتعلم منكَ كيفَ تحاكُ الكلمات بأنامل عاشقٍ يقدّم نصّا يقطرُ بالحبّ، بعضهُ حلمٌ وبعضه ألمٌ وما تبقّى منهُ شهوة.

تركت رسالتكَ الأخيرة في نفسي الكثيرّ من الدهشة: «بوركت أحلامكِ يا ملاكي، لا تعلمين إلى أيّ حد أسعدتني بمشاركتكِ لي هذهِ الرؤيا، منذ أيّام كنتُ واقفا في ساحةِ السجن عندما حملتُ حمامةً بينَ يديّ.. تفحّصتُ أجنحتها وشممتُ الحرّيّةَ في ريشها الرمادي، الحرية أيضا تشم وتلمس، ويعقل للواحد منا أن يتذوّقها بكل حواسّهِ إن حصل عليها بعدَ انتظارٍ طويل، حدّثتها عنكِ وأفلتّها، وضعتِ عقلي في كفي وجعلتني أتساءل، أهيَ المصادفة؟ أكانت أنتِ؟ هل سكنت روحُكِ جسدَ الحمامة لتَصِلي إليّ بأيّة طريقةٍ كانت؟ من ماذا خلقتِ بربّكِ؟ من ماءٍ ودم أم من نور ونار؟ فلتعلمي بأنّي كنتُ لأحبّكِ أيّا كنتِ ومن أيّ مادّةٍ خُلقت، لو كنتِ شجرةً كنتُ لأتصوّفكِ، أعانق جذعكِ وأسقيكِ بدمعي، آكل ثمركِ، أراقصكِ، أرسمكِ،

أتّكئ عليكِ لأنامَ وأحلم».

قرأتُ مرّة أنّ النائم يمارسُ موتًا موقّتًا، تغادرُ روحه إلى السماء لتلتقي بأرواح تحبّها أو أرواح لم تقابلها بعد، لكنْ إذا كانت روحي إلى جانبك وأنا يقِظة فكيفَ وأنا نائمة؟ دعني أحدّثك الآن عن شيءٍ من جسدي.. قصصتُ شعرِي، أعلمُ أنّك لا تستطيعُ استحضاري في ذاكرتكَ إلّا بشعرٍ طويلٍ وأسود.. لا تسألني لمَ فعلتِ هذا؟ ما عدتُ قادرةً على حملِه والاعتناء بهِ. أصبحَ مرهِقًا حتى يخيّل إليّ أنّني أحملُ كائنًا آخر على ظهري، أسيرُ بهِ كالمُعَاقبةِ أينما ذهبت! رغبةٌ داخلي ربطت نموّ شعري القصير بعهدِ انتظارك، سأتركُه يطول حتى تغادر سجنك، ستقول ساخرًا: «قد تدخلين موسوعة غينيس بشعركِ الطويل بعد هذا الانتظار ولا أخرج»، بل سأقطف ثمرة صبري. إنّ الله يجازي العاشقات على صبرهنّ بأن يفتح في وجوههنّ أبوابَ المستحيل.

(٢٨)

لو كانَ النومُ رجلًا لتزوّجتُه! أنتَ لا تعلم إلى أيّ حدّ أنفعل إن أفسدَ أحدهم نومي، على من يدخلَ غرفتي لإيقاظي أن يمتلكَ سببًا عظيمًا لذلك، وإلا سيقابلُ بوَصْلةِ نق طويلةٍ تفسدُ مزاجهُ هو الآخر، كلما تقاطعت نظراتُنا سأرشقه بنظراتٍ غاضبة، معاتبة، وسأستمرّ بتذكيرهِ كلّ النهار بأنّه أفسدَ يومي ولحظةً شهيّةً كنتُ أستمتعُ بها. إذا عشنا في البيتِ ذاته، عليكَ أن تمشي على أطرافِ أصابعك وتغلقَ الباب بحذرٍ، وألّا تنسى إبقاء هاتفك في الوضعِ الصامت. كما ينبغي ألّا تشخر أو تتحدّث وأنتَ نائم، ولا تتقلب كثيرًا على السرير. سيكونُ أفضل لكلينا لو نمتَ في وضعيّةٍ تحبّها كلّ الليل كي نتفادى المشاكلَ صباحًا!

أمّا الصباحُ الذي أيقظتني فيهِ هديل كان استثنائيًا، رغم فظاظتِها وهي تسحبُ الغطاء في صباحٍ بارد، استغربتُ اقتحامها غرفتي في ذلكَ الوقتِ المبكر من يومِ عطلتي، قالت: «أحدهم ينتظرك على الهاتف وهو في عجلة من أمره»، استغربت كيف يجرؤ غريبٌ على الاتصال بهاتفِ البيّتِ وطلبي بالاسم: «إيش الهبل هاد؟ لأ وطالبني بالاسم هالمتخلف! لو كان بابا هون كان قوّصني ودفنّي بالجنينة!»

عندما رفعتُ السمّاعة، اخترقَني صوتكَ، عرفتكَ من الـ «ألو»، من أنفاسكَ وبحّتكَ الظريفة. حصلتَ على هاتفٍ مهرّبٍ بصعوبةٍ من أجل إجراءِ مكالمة ادّخرتَ ثمنَها، تقشّفتَ في التدخين وأصبحتَ تدخّنُ كلّ أسبوع سيجارة واحدة، وفي

النهاية وجدتَ حبيبتكَ نائمة! فكيفَ لا تخاطرُ بمُهاتفتي في البيت؟ بدا صوتُك العميقُ متوهّجًا، سعيدًا، رغم السعالِ الذي كان يتخللُ حديثك، آلمني سعالكَ! قلتَ: «اشتقتلك كتير سلمى! فش إشي بالكون بيبعدني عنك غير الموت/ اخرَس! تحكيش عن الموت».. أثناء المكالمة التي دامت دقيقتين أحاطت بي هالة ملائكيّة، ما عدتُ أحسّ بما يحدث حولي ولا أرى عداك، رأيتكَ بأذنيّ واحتويتكَ بروحي. ماما، هديل ولينا كنّ يقفن خلفي، يصغين إلى كلّ شهقة تخرجُ من فمي، سمعتُ هديل تتساءل: «كلّ هاد حبّ؟!».

كنتَ مختلفًا في هذا الاتّصال، كأنّكَ دخلتَ السجن لتكونَ رجلًا آخر! سابقًا كنتَ تتمنّى أن تكونَ معي بيأس، لكنّ اليوم قلتَ لي بحزم: «لا شيء في العالم بوسعه أن يبعدني عنكِ إلا الموت». هذهِ الجملة بالذات عندما يقولها عاشقٌ يعني أنّه بلغ ذروة العشق، وهو مستعُدّ لارتكاب كلّ الحماقاتّ ولمجابهة كلّ المستحيلات، أي أنّه يكفر بحلول الفراق، وقد يقدم عمرهُ ثمنًا للحظةِ لقاء.

ماء وملح

(٢٩)

ما أقصرَهُ عمرُ الفرح! بعد أيّامٍ من مكالمتك، تلقّيتُ خبرًا من فمِ المذيعةِ تتحدّثُ عن إضرابٍ تشنّونه احتجاجًا على عدمِ تلبيةِ مطالبِكم بشأنِ تحسينِ نوعيّةِ الطعامِ وحقوق أخرى.. يا الله! أيّ ابتلاءٍ هذا؟ كوبُ ماءٍ مالح هو كلّ ما ستشربهُ يوميًا حتى تؤخّرَ به الموت قليلًا، أنا في هذهِ اللحظةِ جائعةٌ وعطشى! جائعةٌ لأنّي رفضتُ تناولَ عشائي، وعطشى لأنّني أسرفتُ بشربِ القهوة. أعرفُ ما هو الجوعُ وما هو العطش، أحسّ بخواءِ معدتي وانكماشِها، قزمٌ في معدتي لا يتوقّفُ عن القفزِ والصراخ، لن يسكتَ حتى تمتلئ.. وجبةٌ واحدةٌ افتقدَها جسدي سبّبت لي هذا الوهن، فإلى متى سيستمرّ إضرابكُم عن الطعام؟

اتّصلتَ بي وحدّثتني عن كلّ شيءٍ إلّا ما تعيشُه من ظروفٍ قاسيةٍ! بدوتَ سعيدًا وأنا بدّهشةٍ ساذجة. اكتفيتُ بصوتك والتهيتُ بهِ عنك. سأطلبُ منك ألا تكون أنانيًا، وستخبرني بأنّكم لا تملكون غير أجسادكم للاحتجاج، ماذا أقول ولن تصغي إليّ؟ عنادكَ أعرفُه جيّدًا، أدركُ أنّي لو وحّدتُ صفّا من الملائكة وآخر من الشياطين في سبيل إقناعك، لن ينجحوا بإقناع خليليّ عنيد مثلك.. أفكّرُ بمعاناة الأسيرات! سمعتُ حكايات كثيرة يتداولها الناسُ هنا، لكلّ أسيرةٍ قصّة مريرة ينبغي للتاريخِ أن يرويها لتعرفَ الأجيالُ القادمة كم تعذب شعبنا! فلنروِ لهم همّ الأسر، الحرب والقصف، اللجوء والتشرّد، اليُتم والفقر والفقد، من غيرنا يجيدُ تمجيدَ الهموم؟

نسمّي الموتَ شهادةً والأسر بطولةً، أمّا الطفولة مكتملة بكهولتها، همومٌ كثيرة ندفنها في دواخلنا مكابرةً علها تزهر وتثمرُ ثمرة، يسمّيها العالمُ: «الحُرّيّة». حان وقتُ التعرّي والانكشاف، فلنقف أمامَ العالمِ عراة بنكباتنا وندوبنا وعارنا، أدعوك وأعرفُ بماذا ستهمسُ لي: «الأكثر إيلامًا من التعرّي هو أن ندفع كرامتنا ثمنًا! نتحلى بالجرأةِ ثم لا يأبهَ لعرينا أحد، سيرانا الخالق والمخلوقات عراة، سيضحك من يضحك ويشفق من يشفق، ولن يرميَ أحد علينا خرقة قماش لنسترَ بها عورتنا!»

ما زلتُ أفكّر بمعاناة نسائنا في السجون. الأسير يخرجُ من السجن بطلًا، يستقبَل بالورود والبارود والزغارّيد، قد يجدون لهُ عملًا وعروسًا ليستأنفَ حياته، أمّا الأسيرة يهنئونها على الإفراج ثم ينفضّون من حولها.. لذا ربّما أنتَ محظوظ رغّم كلّ شيء، لأنّكَ ولدت رجلًا في مجتمعٍ يحكمُه الرجال، أصلي من أجلكَ دائمًا، لن يطمئنّ قلبي حتى أتأكّد من أنّك تأكل وتشرب وبصحّةٍ جيّدة، أحبّك!

(٣٠)

أحدّقُ إلى انعكاسي في مرآةِ الأمس وألاحظُ كم كبرت، لا أرى خطوطًا رفيعةً حولَ عينيّ أو فمي ولا عقدةً كبيرةً تربطُ حاجبيّ، غير أنّي أقرأ ما كتبهُ الأمس ليَ على مرآتِه، بأنّ الإنسان بحاجةٍ إلى أكثرِ من صفعةٍ مؤلمة ليكبرَ حقًا! ما الذي عرفتهُ عن الحُبّ حتى غبتَ عنّي وراءَ أسوارِ السجنِ؟ وعنِ الحياةِ حتى قابلتُ الموتَ يسحبُ أخي من بيتنَا؟ ما الذي عرفتُه عن الوطنِ غير خريطةٍ مبعثرةٍ كلوحةِ لغزٍ، لا تفهمُ سرّها حتى تنتهي من تجميعها لتتّضح صورةُ الوطنِ في ذهنكَ.. ثم ما الذي كنتُ أعرفُه عن الله الذي لم أبذل أيّ جهدٍ للتعرّفِ عليه؟

آمنتُ بحبّ افتراضيّ، حياةٍ افتراضيّة، وطنٍ افتراضيّ وإلهٍ افتراضيّ، فكان إيماني باطلًا، حتى اختبرتُ ما اختبرت، كم صفعةً أخرى سأتلقّى من أجلِ القضاءِ على جهل يسكنني؟ يولدُ الإنسان ساذجًا يلاحق حماقاتٍ لذيذة، فتلحق به الحياة بهراوة تبرحه ضربا من كل صوب، تلك هي ضريبة الولادة. يرحل الساذج خائر القوى وقد تعلم نصفَ الدرس. لهذه الأسباب، يغادر معظم الناس هذا العالم بوجوهٍ حزينة، وحدهم الأطفالُ الذين ماتوا بجهلهم تركوا الحياةَ بابتسامةٍ حقيقيّة! أمّا ما نتميّز بهِ عنّ غيرنا أنّنا نكبرُ بسرعةٍ عجيبة في هذا البلد، إذ نتلقّى الضربات كلها متلاحقة، لا وقتَ للفلسطينيّ ليتّعلم تفاصيل الحياة درسًا فدرسًا، الواحد منّا يتلقّى الدروس كلها دفعةً واحدة، فيتخرّج مبكرًا بشهادةٍ يسمّونها «الشهادة».

في مرآةِ الأمسِ، أرى شابّة ساذجةً قبلَ كلّ شيء، ثم مستعجلة في فهمِ كلّ شيء! أيّتها المسكينة، بأيّ منطقٍ كنتِ تحلمين؟ بأن تغيّري العالم؟ ها قد كبرتِ والعالمُ تغيّر فعلًا، لكنْ إلى الأسوأ! إنّها سنواتنًا المظلمة.. كنتِ تحلمين بأن يصبحَ والدكِ المسكينُ مناضلا، والدكِ الذي لم يتعلم التصويب قطّ، ثرثرتِ عن انتفاضةٍ ثالثةٍ وفكّ الحصار وزيارةِ مدينةٍ تحبّينَ الصلاةَ فيها، ظللتِ تنتظرينَ بيأسٍ أن يأتي يومٌ ترينَ فيهِ بلادكِ حرّة، لكنْ كيفَ ستتحرّرُ، أيّتها الصغيرة، بأن يواجهَ أطفالكم دبّاباتهم؟ يا لهُ من مشهدٍ سينمائيّ جميلٍ أن يرجم طفلٌ الدبّابةَ بحجر، لكنّه ليسَ مشهدًا جميلًا على الإطلاق أن يستقبلَ طفلٌ بريء رصاصةً في جبينِه، يموتُ بينما تشيرُ يدهُ إلى النصر، كأنّه يقولُ للعالمِ باستهزاء: «الموتُ كان نصري الوحيد عليكَ».

لا أطلبُ منكِ سوى الاعتراف بأنّ أحلامكِ الكبيرة تقزّمتْ، أصبحتِ لا تحلمين بأكثر من هذا: «ألا يخسرَ والدكِ عمله، ألا تنقطع الكهرباء، ولا يحدث القصف مجددا». أكثر ما تكرهين أن يتحوّل الأحياءُ حولكِ إلى أشلاء، اعترافٌ آخر لا بدّ من قولِه، لا أحد منّا يفكّر بالعودةِ إلى ساحةِ الحرب، بماذا سنحاربهم على أيّةِ حال؟ بأغنياتنا ودبكتنا، شعاراتنا، أشعارنا ورواياتنا وأفلامنا البائسة؟ الفنّ لم يحرّر بلدًا من قبل، والأجساد العارية لا تساوي شيئًا، الدم وحده لا يكفي، سيتحوّل إلى ماءٍ أحمر يسقي أشجارنا ليأكل أحفادنا الزيتونَ المرّ.. وهكذا! سيحزنكِ أن تموتي وأرضكِ ما زالت مسروقة، لن تستعيدوها اليوم، ربّما غدًا. وعندما أقول غدًا أقولها

مجازًا بالطبع. لن تكوني هنا لتري اللاجئين يعودون والأسرى يخرجون والحمامات ترفرف، والرئيس الجديد يؤدّي قسمَه (الرئيسُ الذي لم يولد بعد)، ربّما ستشاهدين كلّ هذا من السماءِ، إذا كانت المشاهدة ممكنة!

انشغلتُ بمخاطبةِ نفسي عن مخاطبتكَ، كأنّني أصرّ على كتابةِ هذهِ الرسالةِ إليّ، أتابع الأخبارَ عن سجن عسقلان، وصلني آخر ما كتبتَه من خلالِ العمّ جابر، الذي قالَ إنّك كتبتها على عجل في جلسة خاصّة، خطّك كان رديئًا، كتبته أصابعُ مجهَدة، ردّك تلقّيتُه كما توقّعتُه بالتهكّمِ المرّ ذاته:

«يا حبيبة قلبي! محسّستيني الجماعة حاطّيلنا مشاويّ ومحّاشي واحنا ال بدناش ناكل! يا عمري الأكل بيتاكلش، كله معفن لو ترميه لكلب بيرضاش يقرب منه، الموضوع متل ما حكيتِ برسالتك مبدأ وحقّ شرعي لأيّ سجين بالعالم.. بالمناسبة، كيف تقولين مثّلتُ عليكِ ونحن نتحدّث على الهاتف؟ مجنونة أنت؟ لو كان باستطاعتي التمثيل لأجدته في حضرة كل النساءِ إلاكِ، كنتُ ذلك اليومَ أكثر من سعيد، مفردة سعيد تبدو سخيفة لوصفِ حجمِ فرحي! الهالة الملائكيّة ذاتها التي أحاطت بكِ أحاطت بي، التوحّدُ عينُه عشتُه، وإلا ما كنتُ حبيبكِ، صوتك أنساني كلّ همومي. وحين أقولُ كلّها أعنيها كلّها، كوني قويّة فأنا أستمدّ نصفَ قوّتي منكِ».

كلّ ما يخيفني أن تطّولَ هذه المعاناة، هل يمكنكَ أن تقطع لي وعدًا؟ كلمة رجلٍ بألا تكابر إذا خانك جسدكَ ولم يتحمّل، هل تعدني بإسعافه بلقمةٍ إن وهن؟ تضحّي ببعض الكرامةِ من أجل أن تكون بخير؟ لا تعاند. بوسعي احتمال أيّ شيء سوى

خسارتك، أنا وأنتَ بلا أحدنا لا نساوي شيئًا! كيفَ أقنعكَ بكلّ هذا وأنتَ أعندُ رجلٍ قابلته في حياتي؟ يروى في الخلايلة نكتٌ كثيرة عن عنادهم، لكنّ عنادكَ والِله ما رأيتُ لهُ مثيلًا .

(٣١)

تمّ تأجيلُ جلسةٍ أخرى بسببِ راسك اليابس! كان من المفترضِ أن يطلب المحامي جابر من القاضي استحضار شاهد سجين، يقالُ بأنّه زميل كرم في التنظيم، كان من المفترض أن تقفا وجهًا لوجهٍ في المحكمة هذا الشهر، ليراكَ ويقول بأنّكَ لستَ الرجل المطلوب، ولكنْ بسببِ إضرابكَ عن الأكل، وبسببِ رسالةٍ كتبتَها إلى صديقكَ يزن، تمّ تأجيلُ محاكمتك! أفسدتَ كلّ شيء.. هل تدركُ ما الذي أنتَ بصددِ فعلهِ؟ أنتَ تؤخّر خروجكَ من السجن، وتعقد قضيّتكَ أكثر ممّا هيَ معقّدة..! أرسلَ لي العمّ جابر نسخةً عن الرسالةِ التي أرسلتها ليزن، وجدتُها رسالةً عاديّة لا تحملُ أيّ آراء سياسيّة أو مصطلحاتٍ خاصّة، لم أجد فيها ما يدعو للشبهةِ، إلا أنّهم وجدوا:

«عزيزي يزن... لقد تردّدتُ كثيرًا في كتابةِ هذهِ الرسالة، وأنا لا أدري إذا كان لديّ حقًا ما أقولهُ أو بتعبيرٍ آخر ما يستحقّ!

في السجن، أكثر ما يفتقد المرء بالإضافة إلى حريته.. أحباءه، وقد كنتَ الأخ والصديق الذي أجدهُ خلفي دائمًا في الوقتِ المناسب، في اللحظةِ التي كنتُ أسقط أرى يدًا ممدودة تعينني على الوقوف، وتلك اليد غالبًا ما كانت يدك أنت.. مذ كنّا صغيرين لم تخذلني، حتى وأنتَ لا تبذل مّجهودًا لزيارتي.. بإمكاني تفهّم عزوفك، وأجدُ لك الأعذار كلها، كيفَ تجازفُ بزيارةٍ مشبوهٍ مثلي؟ كيفَ تخاطر بحرّيّتك؟ (حرّيّتكَ الشكليّة.. أنتَ تفهم ما الذي أعنيهِ بهذا، فقد تناقشنا كثيرًا عن مفهوم الحرّيّةِ النسبيّ وثوبها الضيّق علينا) وهذه الجملة التي أكتبُها

عن الحرّيّةِ الآن تجعلني أفتقدُك، وأفتقدُ نقاشاتنا في المقاهي وسهراتنا الليليّة حتى الفجر، ونحنُ نلعنُ كلّ ما لا يعجبنا وما لا يناسبنا..

حتى اختلافُ أذواقنا بما يتعلّقُ بالكتبِ أفتقده. وبالمناسبةِ، هل ما زلتَ تحتفظ بالكتبِ التي تركتُها عندك؟ أعرتكَ قبل اعتقالي بليلةٍ كتابًا لإدواردو غاليانو وآخر لميلان كونديرا والثالث ليوكيو ميشيما (عطش للحبّ). راهنتكَ بأنّ شخصيّة إيتسوكو تشبهُ شخصيّة حبيبتكَ النابلسيّة التي حدّثتني عنها، أريدكَ أن تعيد الكتب إلى صاحبِ المكتبةِ التي أستعير منها كتبي، لأنّه لا يتوقّف عن إزعاجِ عائلتي بشأنها.. كما أخبرني أخي مجد بأنّكَ أصبحتَ صديقًا لسلمى على الفيسبوك، أريدكَ أن تحذفها وألا تتواصل معها بأيّ شكل.. لأنّ هذا يحرجني ويضايقني».

أجّلوا الجلسة، وأوصلوا الرسالةَ إلى يزن من أجلِ مراقبتهِ، رأوه يذهبُ إلى المكتبة وبحوزتهِ الكتبَ، تجسّسوا على إيميلاته وحساباته، ورغم كل هذا لم يقتنعوا بأنها كانت مراسلة عادية بين صديقين، لم يفهموا ما الذي يجعلُ أسيرًا معزولا عن العالم يفكر بكتبٍ عليهِ إعادتها، وبحبيبةٍ تعرّف عليها عبر الإنترنيت؟! لا أعرفُ هل عليّ إلقاء اللوم عليهم أم عليك؟ ولا أستطيعُ فهمكَ ولا فهمهم، الرسالة بدت لي عاديّة، ما الذي يجعلهّم يرتابون بشأنها؟ ألا يحقّ للسجين أن يفتقد أصدقاءه؟ ويفكر بالعالمِ الخارجيّ؟ أن يتذكّر ما عليهِ إعادته؟ ألا يحقّ له أن يغار على حبيبته؟ لا أعلم!

إمّا أنّني ساذجة وغبيّة أكتفي بما يطفو على السطحِ لفهمه،

وإمّا أنّني منطقيّة، وما يحدث ليس سوى ظلمٍ كالظلمِ الذي يرتكبُ في العالمِ كلّ يوم، وإمّا أنّني أصبحتُ شكّاكة مثلهم، أشكّ في كلّ ما أراه وما يحدث حولي، أضعُ احتمالاتٍ كثيرة لموضوعٍ واحد، أقلبه عشرات المرّات في رأسي قبل قبوله والاطمئنانِ إليه، حتى أنت.. تتعامل مع قضيّتكَ ببرود، كتبتَ لي: «والله كانت رسالة تافهة يا سلمى.. ما كان عليّ كتابتها، من أين لي أن أعرف أنّها ستُسبّبُ لي هذا الصداع..» تقول: «هم يختلقون الأعذار ويتحايلون لتمديد اعتقالي».

لماذا تفعل هذا؟ لماذا لا تفكّر قبل أن تتصرّف؟ لماذا لا تتجنّبُ ما يجلبُ لك الشقاء؟ لماذا تغامر بإطالة سنوات سجنك؟ ما خطبك أيّها الأحمق؟ هل تريّد أن تقضي كلّ حياتك في تلك الزنزانةِ البائسة؟ ألا تخاف ألا يطلقوا سراحكَ؟ ألا تفكّر بحرّيّتك؟ بي؟ ألن ينتهي هذا الكابوس أبدًا؟ يبدو أنّك ما عدتَ تكترث وما عاد يعنيك شيء، تساوت عندك الحياة والموت، الحرّيّة والأسر، الوجود والعدم، الخارج والمعتقل، أصبحَ لكلّ شيء الطعمِ والنكهة نفسها لديك..

أرهقتني.. ما عدتُ أعرفُ من أصدّق، كلّما فكّرتُ بقضيّتك أو رويتُ تفاصيلها لأمّي أو أصدقائي، أتبادل وإيّاهم الحيرة نفسها.. كلّ الاحتمالات متساوية، إدانتك، براءتك، نصفُ عقلي يتّهمك، النصف الآخر يبرّئك.. أحيانًا، أقول لا يعقل لرجلٍ سواك أن يكونَ كرم. إمّا أنّه أنتْ وإمّا أنّه ليسّ موجودًا، أحيانًا أفكّر بإمكاني تخيّل أيّ رجلٍ أن يكونَ كرم إلا أنتْ، كنتُ معك أراكَ وأحدثك ليلًا ونهارًا، ولم يكن لديك الوقت لتعيش حياةً أخرى مختلفة عن الحياةِ البسيطة التي كنتَ تعيشها،

متى تريّحني من هذهِ الفوضى التي حكمتَ بها عليّ؟

(٣٢)

فسّرت والدتي الرؤيا بأنّي قد أسمعُ خبرًا جميلًا، إمّا بعدَ ثلاثة أيّام أو ثلاثة أسابيع، ضمّت شفتيها لتوقع نقطة صمت، لم تشأ الاسترسال لتتمّ بثلاثة أشهر كي لا تحبطَ آمالي، رأيتُ نفسي أقفُ في مطبخٍ برفقة نساءٍ لا أعرفهنّ من أجل إعداد وليمةٍ. كنتُ أرتدي فستانًا تقليديّا أسود مطرّزًا بهندساتٍ زرقاء، أربطُ شعري بمنديلٍ تمامًا كربّاتِ البيوت، وقفتُ منهكةَ الجسد أتعرّق في مطبخ درجة حرارته مرتفعة، لكنْ في النهاية نجحتُ بإعدادِ طبقٍ شهيّ، أرسلتُه لكَ مع أحدِ زوّار سجنِ عسقلان، أرفقتُه بثلاثة أظرفةٍ بيضاء. قالت أمّي: النساء الغريبات هنّ قريبات الأسرى، ومعاناتي لم تكن سوى معاناتك. أمّا عددُ الأظرفة قد يمثّل رمزًا زمنيّا، بعد ثلاثةِ أيّامٍ زفّت لي المذيعة نفسها خبرَ توقّفكم عن الإضراب، بعد تعهّد مسؤول مهمّ بتحسين أوضاعكم. عقبال ما تطلع من الحبس وتاكل من إيدين أمّك، وعقبال ما نلتقي ونطعميك بإيدي يا عمري.

تسألني عن عطلتي الصيفيّة؟ كانت عطلةً عاديّةً، أمضيتُ وقتي أقرأ وأكتب وأحلم، كنتُ أفتحُ كتابًا أجهلهُ، كما لو أفتحُ بابًا غامضًا لا أعرفُ ما الذي يخفيهِ وراءَه. الأبوابُ المغلقة دائمًا تثيرُ فضولي والكتُب أيضًا، ما إن أبدأ بقراءةِ الجملِ الأولى حتى أختفي من بيتي ومدينتي، لأتواجدَ في زمانٍ ومكانٍ آخرين. الكِتابُ يشبهُ أيضًا آلةَ الزمن التي بوسعها القفزُ بكَ إلى الماضي أو المستقبل، ضمنَ أحداثٍ قدريّة لم تخطّط لها.. ستتعرّفُ على شخصيّاتٍ إمّا تحبّها أو تكرهها، تحقدُ

عليها أو تتعاطفُ معها، حتى إنّك قد تغرمُ بالبطلةِ وترتبك في حضرتها، كما لو كانت واقفةً أمامك بسحرها وفتنتها، قبّعتِها وفستانِها ومروحتها ونظرتها القاتلة، بالطريقةِ التي تغرمُ قارئة مثلي ببطلٍ غامضٍ وساحر، بشعره الناعم وشاربه الرفيع، وبراءة عينيه، وخبث ابتسامته، وبشجاعته في الرهان بأن يدفعَ حياتَه مقابل الحُبّ.

أمّا الكتابةُ فتجربةٌ تشبهُ القراءةَ ولا تشبهها.. ربّما أستطيعُ التعبير بأنّ الكتابة ليست سوى ابنةِ القراءة، فالكاتبُ كان قارئًا في يومٍ ما، أي كان سائحًا في مدينةٍ لكاتبٍ آخر، ثم قرّر أن يخلقَ مدينتَه وشخصيّاته، ويكتبَ قصّتَه التي لم يقرأها بعد، الإنسانُ يكتبُ ما يشبههُ أو الكائنُ الذي تمنّى لو كانَه، يكتبُ ما يشتهيه أو ما يرغبُ بحرقِه. أمّا أنا، أكتبُ قصّتنا وأنسّخُ رسائلنا، أسجّلُ أوقاتنا وأرسمُ أحلامَنا، أذيبُ مستحيلاتنا لألفق مواعيد لم تحدث قطّ، أنا أكتبُ لأكون معكَ بطريقةٍ ما.

في الطبخ أيضا، تجربة للخلق! ستستغرب ثرثرتي المستمرة عن الخلق، أكتشّف الآن معكَ، بينما أحدثكَ عمّا أحبّ فعله في وقت فراغي، بأن كلّ ممارساتي تتّسمُ بالخلق، لا أعلم إذا كان الأمر نزعة داخليّة فينَا منذ اللحظةِ الأولى التي خلق الله فيها آدم على صورتِه، فأصبحَ يرغبُ بمنافسته بفعل كلّ هذا، لاحِظ فرحَ رجلٍ بآنيّتِه الطينيّة وبقطعتِه الموسيقيّة، لوحتِه وما يشبهُ هذا. تجده يحسّ بفخرٍ غريب! ترى هل كانَ الله سعيدًا لذلك الحدّ عندما خلقَ أكثر مخلوقاتِه تعقيدًا.. الإنسان؟ فلنعد للحديثِ عن الطبخ. كنتُ أقول إنّ في الطبخِ أيضًا تجربةً للخلق، تعدّ شكلًا جديدًا للأكل من مكوّناتٍ مختلفة، لو

استضفنا زائرًا من كوكبٍ فضائي ليحضُر حصّةً للطبخ، سيجدُ أنّ الطبخ عمليّة عجيبة! سيرى على الطاولة مكوّنات مختلفة لا تشبهُ بعضها بعضًا، مثلًا: بيض وزبدة، دقيق، كاكاو، ڤانيليا، لوز مطحون، تخلط المكوّنات ببعضها بعضًا لتتحوّل إلى مزيجٍ متجانس، تصبّه في قالبٍ جميل، تدخله الفرن لتخرجَ كعكةً يتصّاعدُ منها الدخان، تطليها بالشوكولاتةِ السائلة، ثم تزيّنُها وتقدمها له ليتناولَ قطعة، قد يغمى عليهِ بعد تذوّق الطعم اللذيذ، ويستغرب إنجازك العبقريّ.

المطبخ أكثر مكانٍ أحبّ التواجد فيه، والحركات الآليّة التي أقوم بها كلّ يوم تساعدني على تصفيةِ ذهني وترتيبِ الأفكار المتشابكة في رأسي، أحبّ ملمس الدقيق الناعمِ ورائحة الكعكِ التي تلتصقُ بجلدّي، العجنُ يساعدني على التنفيس عن غضبي! أرأيتَ كيفَ ينفس رجلٌ رياضيّ عن توُتّرِه بلكمِ الأسطوانةِ المطّاطيّة؟ هذا ما أشعرُ بهِ بالضبط وأنا أعارك عجينتي، بأنّني أصرف الشحنات والطاقة الفائضة في هواية جميلة تسعدني ومن حولي.. بالإضافةِ إلى القراءةِ والكتابةِ والطبخ، تابعتُ عشرات الأفلام، وخصّصتُ وقتًا للاهتمامِ بلغتي الإنجليزيّة، هذهِ السنة لن أسمحَ لأحدٍ بالسخريةِ منّي كما أني أفكرُ بمواصلةِ تعليمي، من جهة بستنّى طلعتك من الحبس، ومن جهة حلو الواحد يتابعُ تعليمه، ستكونُ فخورًا بي، باستطاعتي شمّ رائحة هذا الفخر منذ الآن. سألتني عن عطلتي؟ كان بوسعي وصفُها بتعبيرٍ آخر.. لم أفعل شيئًا مهمّا، كلّ ما كنتُ أقومُ به هو قراءة روايات خياليّة وكتابةِ قصصٍ رديئةٍ. ماذا تريدُ أن تعرفَ عن عطلةِ شابّةٍ بائسة تعيشُ في

مدينةٍ تفوقُها بؤسًا؟ لكنّي لم أقل كلّ هذا لأنّي بدأتُ بزراعةِ أحلامي، وأنتظرُ بصبر موعد حصادها..

أُحاولُ أن أخلقَ من الحياةِ البائسة حياةً موازية، ربّما لا تكون حقيقيّة بقدرٍ كافٍ، لكنّها ستكون كذلك يومًا ما، وفي ذلكَ اليوم لن أكون بحاجةٍ إلى قراءةِ روايةٍ أو تمضيةِ الوقتِ في نسجِ القصصِ الخياليّة.. أمّا عائلتي، فهي تقضي وقتها كما تقضيهِ دائمًا، أبي منهمكٌ فّي العمل، وأمّي همومها الكبيرة، نحن وهمومها الصغيرة تتعلق بالمطبخ والبيت، الصغيرة لينا منشغلةٌ بدميتها، وهديل لا تنفكّ تخطّط لإقناعِ أبي بضرورةِ التخلي عن فكرةِ تزويجي أوّلا، بيني وبينك: بابا عنيد، بس وحياتك مش أعند منّي!

تسألني عن الحياةِ في غزّة؟ وقبلَ الإجابة، أشردُ طويلًا، تمكّنتُ من التحايلِ على واقعي، لكن كيفَ يمكنني التحايل على واقع مدينة برمتها؟ هل أقول لك أعيش في مدينة رائعة، ولا أتخيّلُ حياتي خارجَها؟ أم أخبركَ عن قاعاتِ السينما التي تمّ افتتاحها، وأنّنا نتابعُ أفلامًا عالميّةً لم يعرضها التلفزيون بعد؟ وعن حدائق خلابةٍ تشبهُ حدائق حيفا ويافا وطبريّا؟ أم محطّةِ الميترو التي سيتمّ تدشينها في بدايةَ هذا الشهر؟ هل أصنّف شعبنا كأسعدِ الشعوبِ في العالمِ؟ قضى عطلتَه الصيفيّة بينَ مدنِ الملاهي وحفلات الشاطئ، ولم يتوقّف عن الاحتفال وإطلاقِ الألعاب الناريّة إلى السماء؟ ربّما نحنُ الشعب الوحيد الذي تسقط عليهِ الألعابُ الناريّة من السماءِ كلّ موسم.

كفى لن أكذب.. الحياةُ هنا صعبةٌ والبيوتُ التي لم تهدَم بعد

ستهدمُ في الحربِ القادمةِ، شبابنا بلا عمل، يعودُ الطلّابُ المغتربون مبتهجينَ بشهاداتِهم، ليكتشفوا أنّهم تحمّلوا كلّ ذلكَ العناءِ من أجلِ لا شيء. أمّا من يعملون.. رواتبهم لا تكفيهم لسدّ مصاريفهم، فواتير الماءِ والكهرباء، جرّات الغاز، الموادّ الغذائيّة، علب التبغ، البنزين، كلّ شيءٍ يباعُ هنا بأضعافِ ثمنِه. بالإضافةِ إلى أقساطِ الجامعة. أبي لا يتذمّرُ، لكنّي لا أرى في وجههِ سوى همّ التفكيرِ بالغد، أصبحَ يعملُ خارج أوقاتِ دوامِه، نهارًا كموظّف في البلديّة، وبعد العصر مرّة في أعمالِ البناء، السمكرة، يدهنُ بيوتَ الناس، يستغلّ ما تعلمه في شبابه من حِرف كي يدّخر المال من أجلنا.

أمس كان يومَ جمعة، اصطحبنا والدي إلى شاطئ غزّة، كان أكثر زرقة من أيّ وقت، لا يلهمك سوى بأن تحلم وتحلم، ما أجمل بحرنا وما أطهر ماءه! كم عاشقا جلس هناك وأفضى بأسراره؟! وكم من الأسرار يحملُ فيّ قلبه بحرُ غزّة؟ أنا أيضًا جلستُ فوق صخرةً والموجُ البارد يبللُ قدميّ. بقداسةِ الصمتِ حدّثتهُ عنكَ طويلا، حتى راودته الغيرة منكَ. ستسأل كيف؟ سأجيبك بأنّه وجّه ضربة موج إلى ساقيّ معاتبًا، ومحا عمدًا اسمك الذي كتبته على الرملِ، قلتُ لهّ أيضًا إنّي سمكة لا تحلمُ بأكثر من أن يحملها على كفّه، لتتسلل إلى ضفاف يافا، حيفا وعكّا، بأكثر من استعادة أرضٍ كانت لنا أصبحت لغيرنا، ليسَ منصفًا أن نعيش كضيوفٍ في بيتٍ هو لنا، قبلَ السنة الثامنة والأربعين.. كان لنا وطنٌ كامل، وكان اليهود مشتّتين بين قارّاتِ العالم! منحتهم بريطانيا أرضًا يجتمعون فيها، بينما شتّتت شعبًا آخر، أربعةُ ملايين وسبعمائة ألف لاجئ فلسطينيّ

يرغبون بالعودةِ إلى أرضِ الميعاد: «فلسطين».

بعددِ أسماكِ بحرِنا، بعددِ أسرارِه، بعددِ سنينِ عمرِه... أحّبك.

إلى أي حد تعرف نفسك؟

(٣٣)

سألني صديق ذاتَ حديث: «هل أنتِ طيّبة؟» يبدو هذا السؤالُ سخيفًا، لكنّه سؤالٌ كبيرٌ يشهرُ في رأسكَ أفكارًا حادّةً، تجرحكَ بينما تتفقّدها. كي تجيبَ ينبغي عليكَ الخروج من جلبابِ الأنا لترى نفسكَ بعينٍ محايدة، كمن يقفُ عاريًا مقابلَ المرآة فيرى ما فيهِ كما هو، بالعيوبِ والمزايا. لم أجبه! ما زلتُ عالقةً في شباكِ السؤال. أحيانًا، يخيّلُ إليّ أنّني طيّبة ونقيّة كالقدّيسات، فأنا واضحة حتى مع الذينَ لا يكنّونَ ليَ الحُبّ؛ وقد أرتكبُ كلّ أخطاءِ العالم في حقّ نفسي، غير أنّني لا أقوى على إيذاءِ أحد.. لكنْ، حينَ أغوصُ في أعماقِ قلبي وأرى مشاعر ترسّبت مثلَ رملٍ أسود في قلبِ محيط، أراني أسوأ صبيّةٍ على الإطلاق كالمشاعرَ التي كنتُ أكنّها لأخي زيد..

لم أكن أخجلُ من الاعتراف بكراهيّتي له، وذلكَ لأنّي لّم أحسب حسابَ الموت! كنتُ لأتخيّل أخي في أيّةِ حالةٍ إلا مستلقيا بجسد ثقبه الرصاص في القلب والبطن وفخذه الأيسر، أذكرُ جيّدًا مواقع رصاصاتِه وحجمَ بقع الدمِ على ثيابِه، أذكرها نظرته الغائبة بعينين نصف مفتوحتين، أتساءل ما هو آخر شيءٍ رآهُ؟ وما هي آخرُ جملةٍ قالها في نفسِه قبل رحيلِه؟ يقالُ إن موتًا كهذا يحدثُ سريعًا، لا يمهلُ المصابَ، يموت فورًا دونَ احتضارٍ بطيء، يمنحُه أملًا كاذبًا بالحياة.

منذُ يومين، طلبت ماما منّي إعداد العشاء، قلتُ لها لستُ قادرة على حفرِ حبّةِ كوسةٍ واحدةٍ.. رأيتها تتّجهُ إلى المطبخِ خائبة، نفّستُ عن غضبي في هديل، لأنّها تقضي معظمَ وقتِها

في استخدامِ الكمبيوتر. دخلت أمّي لتوقفَ شجّارنا، كان وجهها شاحبًا، فقدت توازنها وسقطَت على الأرض، بللتُ وجهها بالماءِ وأنفها بقطنٍ معطّر بلا جدوى! ساعدني جارنا حسام على حملِها وأوصلنا إلى المستشفى، هناكَ أخبرني الدكتور أنّها دخلت غيبوبةً بسبب ارتفاع مستوى السكّر، حقنوها بإبرةِ أنسولين، وطلبوا منّي الانتظار في الخارج، ارتعبت! منذ سنة خسرتُ زيد، لن أتحمّل خسارةً أخرى..

في غرفةِ الانتظار، جلست أقضم أظافري، تقدّمَ الطبيب منّي، هدّأ من روعي وقدّمَ لي كوبّ ماء، انتهى الكابوس عندما أبلغونا بأنّها استيقظت، دون أن تؤثر هذه الغيبوبة على سلامةِ أحد أعضائها، أمّي بخير الآن، تتحدّث وتأكل وتمشي، لكنّ هذا ليسَ كافيًا لأغفرَ لنفسي أنانيّتي! عدا ما حدث، عدتُ إلى الجامعة أدرسُ سنةً ثانية.. كلّا، لم أعد الطالبة البلهاء التائهة في باحة الجامعة! حفظتُ نظام الجامعة، أقسامها، طباعَ الأساتذة وأساليب شرحهم، هل أنا طيّبة؟ وحده الله يعلم!

(٣٤)

هل حدثَ أن قابلتَ غريبًا يكنّ لكَ كراهيّةً، كأنّكَ قتلتَ والدتَه أمامَ عينيه؟ تفتّشُ في رأسكَ عن سببٍ يقنعكَ بكراهيّتِه فلا تجد! هذا الغريب قرّر نفيك إلى تلك الرقعة المظلمة في قلبه؛ ومن فرطِ ما بالغَ بتوضيحِ هذا البغض، وجدتَ نفسك مضطرًا لمبادلتِه هذهِ الكراهيّة، إنّني أتحدّث عن أستاذتي في مادّةِ علمِ النفس. سيّدة قصيرةُ القامة وممتلئة القوام، ترتدي غالبًا ثيابًا حمراء وضيّقة تلفتُ الانتباه إلى عيوبِها الجسديّة، تتلقّى أسئلتي بعدائيّة، ونظراتها إليّ محمّلة بالازدراء.. كانت تملي علينا الدرس بنبرةٍ رتيبةٍ. حينَ التفتّ إلى صديقتي أطلبُ منها دفترها، أمرتني بمغادرةِ المُدرّج لأنّني أشوّش عليها أثناء شرحِ الدرس. قلتُ لها: «أعتقدُ أنّكِ بصددِ الإملاء لا بصددِ الشرح» تغيّر لونُ وجهها إلى أحمر فاقع كلونِ ثيابها، وأعلنتّ للطلّابِ أنّها ستغادر إن لم أغادر! تحدّيتُها، فغادرتْ غاضبة ووقعت تقريرًا تتّهمني فيهِ بسوء السلوك. اليوم التالي، نصحني أستاذ الأدب البريطاني بالاعتذار منها حتى لا أتورّطَ بمشاكل نسوان كهذه.

أستاذ الأدب البريُطانيّ يدعى عمر، في نبلِه شيء من رجالِ القرونِ الوسطى، أتخيّله ببذلة سوداء وقبّعةٍ أنيقة وشاربٍ رفيع ينزلُ من عربةٍ تسوقها أحصنةٌ، ينحني ليقبّلَ يدَ آنسةٍ حسناء ثم يدعوها للرقص، يحدث أن يتلعثم إن نظرت إحدى الطالبات إلى عينيهِ مباشرة، أحبّ فيهِ هذا الحياء بالإضافةِ إلى تناقضاته.. كيف للرجلِ أن يكون بتلك الطيبة دون الانحدارِ

للسذاجة، وبالثقة دون التورّطِ بالغرور! يصحبنا الأستاذ عمر إلى قصورِ الملوك، يحدّثنا عن عاداتِهم، الملكات ونزواتهنّ حتى أدق الأسرار التي كانت توشوش بها الخادمات كأنّه عاشَ بينهنّ. مشّكلتي الوحيدة مع بريطانيا هي وعد بلفور! أغفرُ لبريطانيا كلّ شيء إلا هذا الوعدَ الظالم، أيّ تاريخ سينصفنا، وأيّة دولةٍ عظمى ستمنحنا وعدًا يضاهي وعد بلفور؟

صادقتُ إنسانين جميلين أحبّهما: «نسرين وخليل». نسرين شابّة صهباء فاتنة، كتلة مشتعلة من الفرح، قلتُ لها نحن بحاجة إلى نسخ بشريّةٍ منكِ في غزّة كمضادّاتٍ للاكتئاب.. صديقي خليل، شابّ أسمر وحليوة، يتميّزُ بهدوئِه الجذاب وابتساماتِه الفاتنة. نسرين لا تفارقني في الجامعة، خليل أتحدّث معه عبر الإنترنيت أكثر ممّا أتحدّث معه في الجامعة، وأنّا كما تعرفني مزيجٌ منهما، قليل من الجنون والهدوء، مزاجٌ متقلب كالخريف، وبركان لا تعرفُ متى يثور ومتى يهدأ. هكذا أعيشُ أيّامي يا حبيبي، اشتقتلك كتير! هذا ليسَ خبرًا جديدًا.. أنتَ تعلمُ أنّني دائمة الاشتياق والتفكير بك.

(٣٥)

قرأتُ رسالتكَ، فلم أعرف هل يجدرُ بي الضحكُ أمِ البكاء؟ يحقّ لكَ أن تغار، أمنحكَ هذا الحقّ الذي أمنحُه لنفسي، ولكنْ حينَ يتحوّلُ الفمُ إلى مسدّسٍ يطلقُ وابلًا من الكلماتِ القاتلة، والقلمُ إلى خنجرٍ تنقشُ بهِ الجروحُ على القلب بلا رحمةٍ، كيفَ لامرأةٍ هشّةٍ مثلي أن تحتملَ؟ امرأةٌ سهلةُ الانكسارِ مثلَ حبّةِ بسكويت إن تعلّقتِ القضيّةُ بالحُبّ. المرأةُ الذكيّةُ ينبغي أن تفهم أنّ الحبيب هو عدوّها الأوّل وحليفها الوحيد الذي يقفُ معها وعليها! الحبيب يصيبُكَ في مواطنكَ المعطوبة، لأنّه يعرفها أكثر من سواه.

قلتَ: «بكفّي! الرحمةُ أيّتها اللامبالية، أرفقي بهذا القلب، هذا الأسيرُ الشقيّ رغم كلّ المستحيلاتِ يحبّكِ، ولا يحتملُ رؤيةَ وردتِه يستنشقُ من عبيرِها غيرهُ من الرجال!» هذا التشبيهُلا يناسبني ولا أقبله من أحدٍ حتى لو كان أنت! لستُ أنا من تعرضُ عبيرها على الرجال ولا باللقمة السهلة الابتلاع... دعني أفسر نواياي الساذجة، فقد رحتُ أحدثكَ عن يوميّاتيٌ وعن أشخاص أقابلهم. قلت: «مرّة تقولين أصبحَ لي أستاذ جديد، صديقٌ جديد، في رسالةٍ قادمة ستكتبين صار لي حبيبٌ ثم خطيبٌ ثم زوج! ستقتلينِني أكثر ممّا فعلتِ لتخبريني بأنّه صارَ لديكِ ابنٌ، وكنوع من الوفاء ستُعْلمينني بأنّكِ منحتِه اسمي، هذا إذا منحتِ! ستضحِكين على حماقةِ انتظارك يا سلمى».

كتبتُ لكَ عشرات الرسائل، بضعة أخبارٍ تافهةٍ محَتّ كلّ

كلمات الحُبّ؟ يا لكَ من رجلٍ جاحدٍ، يحقّ لك أيّ شيء إلا أن تطعنَ في عهدِ انتظار قطعتُه لنفسي قبلَ أن أقطعهُ لكْ، عاتبتني على برودي! تقولُ كنتُ معتادة علّى افتتاحِ رسائلي بمقدمات شوق ملتهبة، وأصبحتُ لا أتحدّث إلا عنّي، ختمتُ رسالتي بجملةٍ فاترة «أشتاقك، هذا ليس خبرًا جديدًا» «قلتِها كمن تقولها وهي تتثاءبُ من فرطِ ما كرّرتها»! فلتعلم بأنّني لن أتعب أبدًا من قولها، لقد تسرّعتَ في الحكمِ عليّ، لا تعتذر، فأنا أسامحك على الحماقاتِ التي دوّنتَها، فقط لأنّي أعلمُ من تكون. ما بيننا أكبرُ من سحابة غيرةٍ عابرة، ربّما قصّرتُ فعلًا بحقّك وأهملتك، وهنا ينبغي أن أعتذر، كان عليّ أن أنثر على الورق السكّر من الكلمات، وأروي ظمأك من نبعِ اللغة، فقط أريدُكَ أن تعلم: «أنا هاي كلمة بّحبّك والله بتّعبرش عن إلي بحسّه إتّجاهك، وكلمة اشتقتلك بتوفيش الشوق إلي بقلبي.. أمّا بموت فيك صارت كلمة بايخة، لأنّه أنا عايشتك طول الوقت فاهم إيش يعني عايشتك؟»

(٣٦)

أنا مثلكَ يروقني الإصغاءُ إلى بكاءِ السماء، أعتقدُ أنّها تبكي لتُطهّرَ الأرضَ ومَا عليها. المسيحيّونَ يؤمنونَ بأنّ المطر ليس سوى الدموع التي تذرفُها الملائكة لتكفر عن خطايانا، ترى! لهذا السبب نشعرُ بعدَ كلّ هطولٍ أنّنا أنقى؟ مشيتُ هذا الصباح إلى السوبر ماركت بلا مظلّة. تقاطعتُ مع رجلٍ غريبٍ، سألني عن والدتي: «كيف صارت الستّ مريم؟» قلتُ أفضل! كانَ الطبيبَ الذي عالجَها. في البداية، لم أتعرّف عليه بلا المئزر الأبيض والسمّاعةِ المعلقة على صدرِه، نصحني بشأنِ التعامل مع مرض السكّري، وحدّثني عن نفسهِ قليلًا، علمتُ أنّه من بلدة القرارة، تلقّى تعليمَه في الكويت، وعاد إلى قطاع غزّة ليقوم بواجبه ويطبّب أبناءَ شعبِه في ظروفٍ عصيبةٍ كالقصف..

غريبٌ آخر، سأحدّثكَ عنه يكونُ عماد ابنّ عمّي، ولدَ في مدينةِ عمّان، ولم نكن على تواصلٍ معَ عائلتهِ إلا عبر مكالماتٍ هاتفية. الموجع بشأنه هو الشبه المخيف بينه وبين شقيقي زيد، سيطرت الدهشة على ملامحنا حينَ دخلَ بيتنا، لم أرَ قريبًا عائدًا من الغربة بل شقيقًا عائدًا من الموت! الشبه موجودٌ في تقاسيم الوجه، لونِ العينين، حتى في طريقةِ الابتسام؛ أمّي خصّتهُ بدلالها وحنانها ولم تتوقّف عن التحديقِ إليه بعينين دامعتين؛ أنا أيضًا رغبتُ بمعانقتهِ وتقبيلهِ، لكنّني لم أقم بذلك، لأنّني أدركُ جيّدًا بأنّ هذا القريب ليس أكثر من غريبٍ سيستغربُ ما سأقومُ به.

يبدو أنّني لن أتعافى أبدًا من هذا الاشتياق المزمن! سأظلّ أشتاقهُ كما لو أنّه قد يعود ولن يفعل. حظي زيد بقداسة لا يحظى بها سوى الموتى، أتساءلُ لو رحلَ وهو في عمرِ التسعين، هل كنتُ لأحزن لهذا الحدّ؟ أراهنكَ بـ «لا». هنالكَ دائمًا ظروفٌ تتدخّل في حالات الحُبّ وجرعات الحزن... والآن، إنّها الرسالة السادسة والثلاثون، كم من الرسائلِ سأكتبُ لكَ بعد حتى نلتقي؟ أتخيّلُ نفسي عجوزًا تمشي إلى طاولةِ الكتابةِ بخطواتٍ بطيئة، تجلسُ بشعرها الأبيض وتجاعيدها، وتحملُ القلم بأصابعَ مرتجفة لتراسلَ حبيبًا لم تقابلهُ قطّ، ربّما تعتقدُ بأنّني ضجرتُ من مراسلتك، كلّا.. لم أضجر. ربّما أنهكني الطمعُ في أوقاتٍ نقضيها خارجَ حدودِ الورق، الجشعُ صفةٌ لصيقةٌ بالعشّاق، لقد أحببتُ غيابك في وقتٍ مضى وتعوّدتُ أن أحبّكَ غائبًا، ولكنّني أكتفي اليوم.. رسالتكَ الأخيرة كانت اعتذارًا طويلًا، مع أنّي طلبتُ ألا تعتذر، لطالما خاطبتُ الله بأنّني إذا كنتُ أستحقّ محبّته وإذا أراد مكافأتي على عملٍ صالحٍ، قمتُ به. لن أطلبَ غيركَ مكافأةً! بحبّك.

(٣٧)

بعدَ ستّين يومًا من الغياب!

مرّ وقتٌ لم أمسِك أثناءَه قلمًا حتى ظننتُني ما عدتُ أجيدُ استخدامَه، لا أفقه لغة الحبر ولا أملكُ من الشّجاعةِ ما يكفي لمواجهةِ بياض الورق، فالحبرُ كالدم لا يسيلُ إلا ليهب الحياة، والورقةُ كي لا تخذلني عليّ أن أبادلها التعرّي.. أدركُ أن غيابي أضرم النارَ في قلبكَ، عانيتَ الاحتراق لشهرين كاملين، بوسعي تخيّل ما مررتَ بهِ، لكنْ هل سيسعفكَ الخيال لتصوّر ما كنتُ أمرّ به؟ في الواقع، لا أعرفُ من أين أبدأ حكايتي؟ من بدايتها أم نهايتها؟ فقط، فلتكن صبورًا ولتحتمل ما أنتَ بصددِ قراءتِه:

في بيتنا، كنتُ أجهلُ ما يحدث، كلّما رأوني توقّفوا عن الحديث ليخوضوا حديثًا آخر، ترتخي ملامحهم المشدودة فجأةً، ليتحول النقاش الكبير إلى مجرد ثرثرة عن برنامج يتم عرضه، والدي الذي كان يستخفّ ببرامجِ المواهب، أصبحَ يذكرنا بتوقيتِ آراب أيدول، يعدّ قهوته التركيّة وينتظرُ إطلالةَ محمّد عسّاف! الشابّ الذي جمعنا ووحّدَنا بحنجرتهِ ومواويلهِ الفلسطينيّة.. استغربتُ في البدايةِ تكتّمهم، لكنْ سرعان ما التفتّ إلى دراستي، فقد كنتُ مقبلةً على امتحانات.. وانقضت الامتحانات لينكشفَ السّر:

دخل أبي غرفتي محمّلًا بأكياسٍ كبيرةٍ سوداء، وضعَها على الكرّسيّ ليفتحَ معي مواضيعَ عن الحبّ والرجال! عجبتُ كيف انحلت عقدُه الشرقيّة بين ليلة وضحاها، حدستُ أنّه سيعرضُ

عليّ خاطبًا جديدًا بعد هذه المقدمة الطويلة، سألني إن كنتُ أتذكّرُ الطبيبَ الذي عالج أمّي؟ تذكّرتُه، حدّثني بأنّه يراهُ أفضل عريسٍ لي، وليسَ فيهِ عيبٌ يدعوني لرفضِهِ، أجبتهُ بهدوء: «المسألة ليست مسألةَ عيوبٍ أو مزايا، الزواجُ ليس صفقة أدرس فيها حظّوظ الربح والخسارة لأقرّر القبول أو الرفض، في الواقعلا أفكر بالارتباطِ لا بهِ ولا بغيرِه، كلّ ما يشغلني الآن دراستي، لستُ جاهزةً بعد لأكونَ زوجةً وأمّا وربّةَ بيت، ما زلتُ طفلةً يا أبي، كيفَ لا ترى هذا؟»

مَنْ بعمركِ لهنّ طفل واثنان وثلاثة، هكذا ردّ عليّ. ارتفعَ صوتهُ، وتطاير رذاذ لعابه على وجهي: «هذا ما توقّعتُه من رأسكِ اليابس، لذلك جئتُ بنفسي لأخبركِ بأنّني وافقتُ، وموضوع زواجكِ لم يعد قابلًا للنقاش!» جاريتُه في الصراخ: «كيف للموضوع ألا يكون قابلا للنقاش وهو يتعلق بي؟ أليس حقي اختيار الرجل الذي سأمضي معه بقيّة عمري؟» نعتني بالغباء، ثم قال واثقًا: «يومًا ما ستشكرينني لأنّني زوّجتكِ بهذا الطبيب! ذلك الأسير لن يخرج من الحبس، وإذا خرج لن يأتي ليتزوّجكِ، هو من الضفّة وأنتِ من القطاع.. كيف بدّكم تلتقوا يا حمارة؟» تحدّيتُه أكثر: «سواء التقينا أم لم نفعل، هذه حياتي وسأعيشُها كما أشاء..».

لعلّكَ وأنتَ تقرأ هذه السطور تظنّ أنّ ما حدث كان شجارًا تقليديًا بين والدٍ وابنتِه، كلّا يا عزيزي ما أرويه لكَ هو البداية فحسب. في تلكَ الليلة، أخبرني بأنّ رفضي كان متوقّعًا، لهذا أجّل الزواجَ والحديث عنه إلى ما بعد امتحاناتي. توقّعتُ من أبي كلّ شيء إلا أن يبيعني كعنزة! غير أنّه فعل.. أدركتُ هذه

الخيبة، عندما سحبَ من جيبِ سترته وثيقة الزواج عليها اسمي كاملًا، حتى توقيعي قلّده. كان خبرًا عجزتُ عن استيعابهِ، بدأتُ أرى الأشياء تدور من حولي، أخرجَ من الأكياس ثلاثة فساتين بيضاء، وقال بلهجةٍ آمرة: «اختاري واحدًا، لأنّني سأزفّكِ إلى بيتِ زوجكِ الخميسَ المقبل».

سقطتُ راكعةً وقبّلتُ قدميه، بلّلتُ حذاءه بدمعي، لكنّه لم يكترث لتوسّلاتي، دفعني وخرج تاركًا الباب مفتوحًا. عند عتبة غرفتي، كنّ واقفات يتابعن الشجار! أمّي، هديل ولينا، قلتُ بصوتٍ كسَرهُ البكاء: «حتى أنتِ يا أمّي أخفيتِ عنّي خبرًا كهذا؟ فيمَ ضايقكم وجودي؟ طالما مسحتُ لكم الأرض التي تمشون عليها، غسلت لكم الثياب التي تلبسونها وكويتها، طالما طهوت الطعام الذي تأكلون، عشتُ في هذا البيتِ خادمة مطيعة لا تطلب سوى بعضًا من الملح والخبز من طعامكم، احتسبوني كلبة وما آكله صدَقة جارية.. حتى أنتِ يا هديل؟ بس عشان تتزوّجي حبيبك؟ لك يا ريتك موّتيني يا أختي وتزوّجتيه!».

لينا لم تستوعب ما حدث، مسَحَت دموعي قائلة: «تبكيش أنتِ عروس!» بكيتُ أكثر.

أغلقتُ الباب على نفسي مذهولة أفكّر بأيّ وجهٍ أقابلك، وبأيّ وجهٍ أقابلُ الرجلَ الذي باعوني له؟ مرّت الأيّام ببطء، لم أذق فيها طعم النوم ولا الأكل. كنتُ أتعسُ عروسٍ عرفها التاريخ، جوّعتُ نفسي عمدًا، لكنْ حتى الموت خذلني وتآمرَ عليّ معهم، لذلك قرّرتُ الذهابَ إليهِ بنفسي. قبل ليلة من الزفاف وحينَ انتصفَ الليل، تسلّلتُ إلى المطبخ، وسحّبتُ

سكينًا من الدرج، استلقيتُ على فراشي، وضعتُ نصلَ السكين البارد على معصميّ، ومزّقت ما بانَ لي من عروقٍ زرقاء، ثم خبّأتُ يديّ تحتَ الغطاء، كانا جرحين واسعين، شعرتُ بالدماء تتسرّبُ منّي، بدأ جسدي يجفّ شيئًا فشيئًا، دقّات قلبي تتباطأ، أغيبُ عن الوعي وبقعة الدماء تكبرُ في الغطاءِ الأزرق..

دخلت هديل وسألتني عن وجهي الشاحب، ثم صرخت حين رأت الغطاء الملوّث. سحبت ذراعيّ لتراني أغرق في دمي، صفعتني كي أصحو، لكنّي كنتُ أغيبُ وأرحل، بعد ذلك لم أعِ شيئًا، حتى وجدتُ نفسي في العناية المركّزة، خاطوا لي الجرحين وضمدوا معصمي.. رأيت زوجي يجلس على حافة السرير، لا بد أنّه علمَ بأنّني فضّلتُ الموتَ على أن أكونَ له، أمسَكَ يدي الجريحة، فسحبتها من يدهِ، فأعاد وجهي إليه بحركةٍ من إصبعه، وقال:

- الله بدّه ياكِ تعيشي، بدّوش روحِك هسّة..

- تردّش ع هالحكي!

- ليش ما حكيتِي؟ كان لازم تحكي معي.

- أنا نمت وصحيت لقيت حالي مرتك!

قال لم يعلم أنّ والدي أجبرني على الزواج منه، فقد كان يمنعه عن رؤيتي مرّة بحجّة العادات ومرّة بحجّة الامتحانات، ثم لأنّه ليس بحاجةٍ لرؤيتي، فقد رآني من قبل. بعدَ ذلك، سألني عنك أنت.. فقد روت لهُ هديل كلّ حكايتي معك:

- معقول في بنت بتموّت حالها عشان واحد ما شافَتوش؟ هالأسير بيستاهل تعملي كلّ هاد مشانه؟

- بيستاهل أكتر من عمري (أجبتُه).

سحبَ نفَسًا عميقًا، نظرَ إليّ متأسّفًا، وقالها بصوتٍ واضِح: «أنتِ طالق!»

دخلت والدتي بعد مغادرتهِ، وقد مزجت كلامها بين العتابِ والاعتذار، راحت تشرحُ لي بأنّهمّ كانوا يختارون لي حياةً أفضل من التي أريدها. حين أخبرتُها بأن الطبيبَ طلقني، لطمت وجهها بكفيها، تصرفها بعث الاشمئزاز في نفسي! أريتهم ما الذي أنا قادرة على فعلّه مقابل الحصولِ على حرّيّتي، لكنّهم لن يفهموا أبدًا بأنّني أفضل أن أنهي هذهِ الحياةَ بنفسي على عيشها كما يريدونها لي. أبي لم أرهُ تلكَ الليلة، لا أعرفُ أينَ كان. هل اعتكفَ في منزلنا أم انزوى في باحةِ المستشفى يدخّن! ربّما كان خائفًا عليّ مثلهم، وربّما تمنّى موتي. فأنا الآن أحملُ لقبَ مطلقة، ولم أحظَ حتى بزفافٍ لائقٍ كما تحظى العرائس، عدتُ إلى البيتِ والحياةِ أكثر ارتياحًا، أبي تجنّبَ مخاطبتي بأيّ شكلٍ من الأشكال، تشنّجت علاقتي بهِ، تبادلنا الغضب والكراهيّة لأيّامٍ طويلة، قرأتُ في عينيه كثيرًا من الكلامِ الجارح، صمتُه قال أكثر ممّا كان ليقول، أبي تمنّى لو لم ينجبني قطّ! كرهَ تمرّدي كما كرهَ حبّي لكَ، وأنا كرهتُه أكثر من أيّ وقت.

تغيّبتُ عن الجامعة حتى تعافيت.. التحقتُ بالمحاضرةِ متأخّرةً، وجدتُ كرسيًا فارغًا بالقربِ من خليل، فذهبتُ إليه. كنّا صامتين نصغي إلى ما يقوله الأستاذ، اتّسعت عيناه حين انسحبَ الكمّ إلى الخلف ليرى الندبةَ الجديدةَ على معصمي، فتح فمهُ مدهوشًا، وكتبَ لي رسالةً نصّيّة: «أنتِ مجنونة؟

كيف بتساوي بحالِك هيك؟» لم أردّ على رسالته.. خبّأتُ هاتفي في الحقيبة، رفع ذراعَه واستأذنَ الأستاذ من أجل تركِ المحاضرة.. استغربتُ غضبَ صديقي وألمَه، أعلمُ أنّه يفضّلني حيّةً بطبيعةِ الحال، ولكنْ لم أتخيّل أن تحطّمه محاولةُ انتحاري إلى ذلك الحدّ، اتّصل بي بعد عودتي إلى البيت يترجّاني لنتحادث صوتًا وصورة، كنّا اعتدنا على التحدّثِ كتابة، لكنْ تلك الليلة، كنتُ مثله بحاجةٍ إلى صديقٍ أفضفض له، كان اعترافه بالحب مؤثرا.. شلني، لم أجد كلمة مناسبة واحدة، أخبّرني كيفَ كان يموتُ من الحزنِ متى ذكرتُ اسمَك، كيفَ تعذب مرّتين، مرّةً وهو يحبّ امرأة لا تبادلهُ الحبّ، ومرّة وهو يجتهدُ في إخفائه.

وصلتني ورقةُ الطلاق أخيرًا، اقتحمَ والدي غرفتي بالطريقةِ التي يقتحمُ بها جنديّ مدجّجٌ بالسلاحِ بيتَ رجلٍ أعزل، ألقى بالورقةِ فتهاوت على السرير، بصقَ على وجهي من بعيدٍ وصفق البابَ وراءه. اليوم تعافى جرحاي، وبقيت آثارهما. قيل لي تلك الندوب ستبقى. لكن وحياتَك بهمّش.. أنا وأبي اليوم نتحدّث عندَ الضرورةِ المُلحّة، أعتقد أنّ ما بيننا قد انكسر إلى الأبد، لا يمكنني مسامحته على ما فعلهُ بي. أرى في عيوننا حقدًا دفينًا من الصعبِ على الوقتِ محوُه، حاليًا أشغلُ حياتي بالدراسةِ وبحبّك، آملُ أن تتفهّمَ أسبابَ القطيعة، فالظروف لم تكن مناسبة للكتابةِ، لم أمتلك الشجاعةَ لأحدّثكَ عن كلّ هذا، ولم أكن حصلتُ على صكّ حرّيّتي بعد، أريدكَ أن تفهمَ أيضًا «بأنّني ذهبتُ للموتِ لأجلكَ وعدتُ إلى الحياةِ من أجلكَ!»

(٣٨)

لا أعرفُ ما الذي دهاني بعدَما أرسلتُ لكَ الرسالةَ السابقة، سأحدّثكَ عن هواجس أمضيتُ بسببها ليالي طويلة، أتخيّلُ فيها الردّ الذي سأتلقّاهُ منك. كنتَ لترى امرأة كوّمت جسدَها على فراشها كما تلمّ الملابسُ المتّسخة في سلةٍ واحدةٍ، تقضمُ أظافرها العشرة في محاولةٍ بائسةٍ للولوجِ إلى رأسكَ من أجلِ قراءة الأفكارِ الصامتة التي قد لا تبوحُ بها، تخيّلتُ حديثًا داخليًا تخاطبُ بهِ نفسَك: «هذهِ الحمقاء لا تتركُ لي سوى الخيارات المستحيلة، لماذا لم تتزوّجُ ذلكَ الطبيبَ فحسب، لتريحنا من عذابٍ ما عاد بإمكاننا احتماله؟ قصّتنا الشقيّة لن تنتهي بنهايةٍ سعيدة، حتى في أفلامنا، تنتهي حكاياتنا الفلسطينيّة بنهاياتٍ بائسة، يعجزُ المؤلف عن تلفيقِ كذبةٍ يخدعُ بها المتفرّجين» عاتبتُ نفسي، لأنّني شرحتُ لكَ أسبابَ الغياب، وأهملتُ شرحَ أسبابَ ذهابي إلى الموت.

كان ينبغي أن أوضّح أنّك لم تكن إطلاقًا السببَ المباشر لارتكاب حماقتي، فالجرح كان أعمق بكثير من جرح حب.. كنتُ تعِسة كحمامّةٍ بتروا جناحيها. أخبرني أيّ طيرٍ سيرغبُ بالحياة إن حرموه لذةَ التحليق؟ لقّد اغتالوا حرّيّتي، فاغتالوني على قيدِ الحياة! كان ينبغي توضيح بأنني ما كنتُ لأتزوّج من أيّ رجلٍ لا أكنّ لهُ الحبّ، حتى لو لم تكن موجودًا في حياتي، وأنا ذاهبة إلى الموت، كنتُ أدركُ أنّي بصدد ارتكاب حماقةٍ كبيرة. لكنْ، صدقني لم أملك أيّ حل آخر، الشيء الثمينُ الوحيدُ الذي كان بحوزتي لأبتزّهم بهِ كانَ روحي.

في طريقي إلى مكتبِ البريد، راودني توتّر مزعجٌ يراودني قبلَ الامتحانات، قاومتُ فضولي وأجّلتُ قراءةَ الرسالة المنتظرَة إلى حينِ عودتي إلى البيت، ببرودٍ، خبّأتُ الظرفَ في حقيبة يدي، جلستُ على مقعدٍ في الباص، حاولتُ أن أشغلَ ذهني بأفكارٍ أخرى كي لا أتلصّص بقراءةٍ سريعةٍ. لاحقًا، غيّرتُ ثيابي وأعددتُ كوبَ شاي أسود، سحبتُ نفَسًا عميقًا لأتفاجأ بكلماتٍ دافئة حرّكت قلبي، ونفخت الروحَ في تلك الورقة الشاحبة، أخبرتني في رسالتكَ الطويلة أنّكَ بكيتَ وأنتَ تقرأ كلّ كلمةٍ، لأنّكَ في قلبكَ كنتَ تعلم أنّ ثمّة أمرًا سيّئًا حدث: «شكرًا يا سلمى، شكرًا لأنّكِ ما زلتِ حيّة! شكرًا لأنّكِ طرقتِ بابَ الموتِ وهربتِ، شكرًا لله الذي يزدادُ حبّي لهُ كلّ يوم، لأنّه سمحَ لكِ بعيشِ عمرٍ أطول، الله الذي لا يبتلي إيماني فيٍ سواكِ، لأنّه يعرفُ جيّدًا بأنّكِ أكثر من أحِبّ.. لطالما كنتِ قريبةً من الموتِ يا سلمى، تعيشين على حدوده في مدينةٍ يتمّ قصفها كلّ موسم، ورغم ذلك لا تموتين، لأنّ الله لا يريدُ لكِ ذلك كما قال الرجلُ الذي أفضلُ معروفٍ فعله في حياته هو تطليقك، أتخيل الآن لو أنه تمسك بك، ولو أنك بعد وقت عصيبٍ تعوّدتِ عليهِ وأحببتهِ ورميتني من الذاكرة كما تكبّ النفايات، نعم.. نفايات، كيفَ نسمّي الأشخاص الذين نقرّرُ حذفهم من ذاكرتنا بالنسيان..؟

لن أقولَ شربتُ من كأسِ العذابِ في غيابكِ حتى الثمالة، توحّدتهُ، أصبحتُ وإيّاهُ شيئًا واحدًا، العذاب كان كلّ ما يضخّه قلبي وكلّ ما يجري في دمي، علمتُ أنّ مكروهًا عظيمًا أصابكِ دون أن أعرف ما هو، تعلمتُ منكِ كيفَ أصدق حاسّتي

السادسة، الحاسّة السادسة لا تكذب ولا تخطئ، إنّها بوصلتنا الوحيدة في معرفةِ المجهول ولا شيء آخر، كلّ ليلةٍ كنتُ أتخيّل مكروهًا ما. أحيانًا، أفكّر بأنّكِ اتّخذتِ قرارًا نهائيًا بهجري، وكي لا تكسري قلبي المعطوب قرّرتِ ألا تنهي حكايتنا برسالة..

أحيانًا، أفكّر بأنّكِ قابلتِ رجلًا جديدًا، وأتخيّلُ مكالماتكما ومواعيدكما، أتخيّلهُ يكتشفكِ وتكتشفينه، ينزعُ الدبابيس من وشاحكِ، يداعب خصلات شعركِ، يشمّكِ، يقبّلكِ، يدسّ كفّه في صدركِ.. وكلّ هذهِ التخيّلات تفقدني صوابي كما تعلمين، إنّني رجل شديد الغيرة، ومستعدّ لارتكاب جريمة قتل إن رأيتُ رجلًا يهتمّ بكِ، أحيانًا أتخيّلكِ مريضةً على فراشِ المرض، مرضًا خطيرًا خشيتِ البوح عنه كي لا تنغصي عليّ وتضاعفي من تعاستي؛ أحيانًا، أتخيّلُ رجلًا أرادَ سلبكِ حقيبتكِ فعاندتِ، رحتِ تسحبين وراح يسحب، وحينَها سحب سكّينًا من الحقيبة طعنكِ في معدتكِ وسرق الحقيبة تاركًا إيّاكِ تغرقين في دمكِ، وأبكي وأنا متيقن من أنّكِ لستِ بخير، دون أن أعلم كيف أو لماذا.

تحولت إلى ميت يسير على قدمين، يأكل ويشرب وينام بطريقة آليّة، أنتِ كنتِ كلّ الأمل، كلّ السماء، كلّ الهواء، الفرح والحبّ، الأمّ والإبنة، الشمس التي تَجدُ دائمًا طريقها إليّ لتضمّني إليها بضوئها، كيفَ تريدين أن أكون دونكِ؟ لم أكن أقلّ أو أكثر من جثّةٍ تتعفّنُ يومًا بعد يوم، لقد تعفّنتُ دونكِ يا سلمى، كلّ شيءٍ فيّ لم يكن يصلحُ للحياة.. في كلّ زيارةٍ كان يقومُ بها المحامي، أوّل سؤالٍ كنتُ أطرحهُ عليه: هل من

رسائل؟ فيزمّ شفتيه ويهزّ رأسَهُ نافيًا، يخيبُ أملي، يغيّر العمّ جابر الموضوع ويتحدّث عمّا يتعلق بالقضيّة، إلا أنّني أصغي إليه وذهني مشغولٌ بكِ، غاضبٌ منكِ، لا أعرفُ ماذا أفعل كي أصلَ إليكِ وأعرفَ ما بكِ..

طلبتُ من والدتي الاتّصالَ بكِ، فلم تردّي عليها، كان عليكِ أن تردّي يا سلمى، كان عليّ أن أعرف؛ وفي النهاية، علمتُ منكِ أنتِ حين رغبتِ بذلك أو أصبحتِ جاهزةً للبوح، وماذا كانت النتيجة؟ حاولتِ الانتحار، آخر ما انتظرته وآخر ما تخيّلته، حبيبتي وطفلتي، التي أستمرّ بالهمسِ في ذهنها بأن تحبّ الحياة، تتمدّدُ في سريرها لتموت كعجوز شمطاء، بائسة ووحيدة. هذا الموتُ لا يلائمك يا سلمى، أنتِ أجمل من أن تموتي بطريقةٍ شنيعةٍ كتلك، بل أنتِ أجمل من أن تموتي... قولي له، قولي لوالدكِ إنّ ذلكَ الأسيرَ الشقُّيّ يومًا ما سيخرجُ من سجنهِ، وإن بقيَ في عمرهِ يومٌ واحدٌ سيبذله من أجلِ الوصول إليّ!»

لم تكذب حاسّتكَ السادسة: إيّاكَ أن تشكّك بها كيلا تخونك، آمن بها وسخر لها حواسّك، لقد أحسستَ بي وهذا يكفيني، مثل توأمين نحن إن ضحكَ أحدنا يضحك الآخر، وإذا بكى يبكي. كل شيء بيننا معد، والألم نتقاسمه كما نتقاسم كل شيء، في رسالتكَ تحدّثتَ عن والدي طويلًا، شعرتُ أنّكَ بدأتَ تكرههُ أنتَ الآخر، بعد كلّ ما فعله بي، لم تنعته بصفاتٍ قبيحة، ولكنْ بينَ السطور، لامسني حقدٌ دفينٌ يكبرُ في قلبكَ اتّجاهه، لا تقلق عليّ.. لم يعد والدي الوحش الذي يرعبني، أنا مستعدّة لمحاربة العالمِ بأسرهِ، لن أسمح لأحدٍ أن يسلبني

حياتي، أعدكَ أنّني بعدَ اليوم لن أفكر سوى بكَ وبالحياة، ختمتَ رسالتكَ بفقرةٍ جعلتني أتمسّك بحبال الحلمِ أكثر:

«سيأتي يومٌ أغسلُ لكِ فيه يديكِ بماءِ مدينةِ نحبّها، صبرًا جميلًا يا حلوتي، ما زال هناك أمامنا كثيرٌ من الأيّام لنعيشها معًا، ما زالت هناكَ حماقات لم نرتكّبها وجنونٌ شهيّ ينتظرنا. أرجوكِ، إن كنتُ أعني لكِ شيئًا لا تفكري بالموتِ مجدّدًا مهما حدث، كيفَ نموتُ ولم نعش يومًا حقيقيّا بعد؟ ولم نصافح يدَ الفرح مرّةً؟ لا يا سلمى، حاربي في سبيل أحلامكِ وحرّيّتكِ، لا تموتي!»

والآن، بعدَ الفوضى التي أحدثتُها وبعد الثرثرةِ عنّي، ماذا عنك؟ لم تعد تكتبُ لي أخبارك، يعتقلون رجالا كلّ يوم ليعثروا على كرم، وما زال هذا الرجلُ مختفيًا كأنّه وهميّ تمّ اختراعه ليورّطوا بهِ رجالا آخرين! لماذا ما زالوا يصرّون على أنّه أنتْ؟ ما الذي فعلتَه ليجعلكَ أسيرَ شبهةٍ لا تشبهك؟ هل يلصقون على ملامحكَ وجهًا ليس لك، أم أنّك تعيش بوجهين، وجعلتني أتعرّفُ فقط على الرجل الذي سمحتَ لي بالتعرّف عليه؟ هل ستجيبني على أسئلتي؟ أم أنّك ستوقفني بكلمةٍ واحدة اعتدتُ سماعها منك: «تتفلسفيش!»؟

(٣٩)

نمنا وصحونا على عمليّةِ يافا! ثلاثة مسلّحين اقتحموا حانة صغيرة في المدينةِ، وقتلوا كلّ من كانَ فيها (وهم: ضابطٌ مهمّ وصديقٌ له، غريبًا كان يحتسي مشروبه، وصاحبُ البار، النادل والحارسان).. كانت الحانة شبه فارغة في الساعةِ الثالثةِ صباحًا، دخلها المسلّحون بمسدّساتٍ كاتمةٍ للصوت، اغتالوا الموجودين، واحتسوا الويسكي على الطريقةِ الأميركيّة، ثم غادروا المكان بهدوءٍ كما دخلوه. أحدهم غمسَ ريشته في جرحِ الضابط، وكتبَ على الجدارِ قصيدةً لأحمد مطر بخطّ عربيّ جميل: «يا أيّها الإنسان/ المجوّع، المخوّف، المُهان/ يا أيّها المدفون في ثيابه/ المّشنوق من أهدابهِ/ شبعتَ موتًا / فانتفض» اختتمَها بتوقيعٍ يتألفُ من ثلاثةِ حروفٍ متبنّيًا العمليّة... «كرَم».

جميعُ القنواتِ التلفزيونيّة في العالم تتحدّث عن عمليّةِ يافا الأخيرة. الفيديو شاهدناهُ عشرات المرّات: ثلاثةُ رجالٍ يرتدون ملابس عصرية أتوا سيرا على الأقدام من شارع مظلم لا تطل عليهِ الكاميرا بّشكلٍ دقيق. ثلاثة رجالٍ، رآهم العالم يمزحون ويضحكون، توقف أحدهم يدعو الرفيقين لدخول الحانة، يطلبُ الحارس البطاقات، يعرض ثلاثتهم بطاقاتهم، في اللحظةِ التي يتأمّل فيها الحارسان البطاقات، يطلقون النار عليهما، يسقط الحارسان، يدخل اثنان لتصفيةِ الموجودين، وبنشغلُ الثالث بسحبِ الجّثّتين إلى الداخل، يغلقُ بابُ الحانةِ لمدّةِ خمس دقائق، يغادرُ المسلحون باتجاهِ الشارع الذي جاؤوا منه!

كانت وجوههم تبدو طبيعيّة، لاحقًا علمنا أنّهم كانوا يلصقون على وجوههم أقنعة بشريّة كتلك التي يضعها الممثلون لتغيير ملامّحهم وقفّازات على شكلِ يدٍ، وكأنّهم يقولون اللثام والقّفازات السوداء أصبحت موضةً قديمة! البرامج السياسيّة لا تتوقفُ عن التحليل وعرض التوقيع الدمويّ على الجدار، كلّ الأضواء مسلّطة الآن على كرم الإرهابيّ الجديد! الكلّ أصبحَ يرغبُ بمعرفةِ من يكونُ كرم؟ هل كانَ واحدًا منهم؟ أكانوا رفاقه؟ هل كرم سجين بالفعل، كما يدّعي إعلام العدوّ؟ هل العمليّة تحاولُ إبعادَ الشبهةِ عنه؟ أم أنّ كرم طليقٌ في الخارجِ ينفذ مخطّطاته بأريحيّة، يشربُ الويسكي ويكتبُ القصائد، بينما تعتقد الشرطة أنّه في حوزتهم!

جنازة عسكريّة مهيبة للضابط، أفراد عائلات القتلى يبكون ويشعلون الشموع أمام الحانة، يضعون أمامها الورود وقنّينات مشروبات روحيّة جديدة عند عتبةِ بابها، الأصدقاء في الفيسبوك يهللون ويشاركون المستجدات، هاشتاغ كرم وصورة التوقيع المكتوبِ بالدم أصبحت أغلفة لصفحاتهم، شيء من الأمل بدأ يضيء.

أغلقوا الطرقَ إلى المدنِ المحتلّة وأعلنوا حالة طوارئ. كثّفوا الحواجز الأمنيّة في كلّ مكان، واعتقلوا المزيدَ من المشتبه فيهم، حتى أخوك مجد اعتقلوه، خرجَ من السجنِ يعرجُ بجسدٍ ملوّنٍ بالكدمات، ضغطوا عليهِ ليعترفَ بأنّكَ كرم، بلا جدوى. أخلوا سبيل المراهقِ المدعو كرم، وحقّقوا مرّةً أخرى مع المشلولِ وأنت، يا إلهي أنت ما الذي فعلوهُ بك؟ علقوكَ عاريًا، جلدوا ظهرك، كسروا ذراعكَ الأيمن، خلعوا أظافرك،

بللوا جسدكَ بالماءِ ومرّروا فيهِ الكهرباء. كنتَ جالسًا ترتجّ من رأسكَ حتى أسفل قدميك، ولم تعترف بأنّكَ كرم!

كلّ هذا التعذيبِ بسببِ الرسالةِ التي أرسلتها لصديقكَ يزن، تمّ ربطُها بعمليّةِ يافا! لا أفهم كيفَ لهم أن ينسبوّا هذهِ العمليّةً لرجلٍ معتقل، معزول ومُراقَب؟ عمليّة احترافيّة تتطلبُ حرّيّةً ومالا وعقولا عسكريّة لتنفيذِها، تمّ تحليل الرسالة وتفكيك رموزِها على نحوٍ صادم! يعتقدون بأنّ الكتّابَ الذين ذكرتَهم في الرسالة: (غاليانو / كونديرا / ميشيما) لم تكن سوى أسماء حركيّة للأشخاصِ الذين نفّذوا عمليّة يافا! طلبتَ من صديقك يزن أن يُعيدَ الكتبَ إلى صاحبّ المكتبة، وهم يظنّون بأنّه الشخص الرابع الذي كان ينتظرهم ليقلهم بالسيّارة، قلتَ ليزن أفتقدُ نقاشاتنا التي كانت تمتدّ حتى الفجر، وعمليّة الحانة حدثت وقتَ الفجر أيضًا!

كنت أعيش حياتي بشكل عادي، دون أن أدري بأنك في الوقتِ ذاته تخضعُ للتعذيب، كم خجّلتُ من نفسي وكرهتها، الإحساسُ بالعار سيطرَ على قلبي، لأن حدسي خانني ولم ينبئني بالألمِ الذي كنتَ تعانيه.. حتى وأنا أشاهدُ الأخبار لم يخطر على ذهني بأنّهم سيقسون عليك. بالعكس، كنتُ سعيدة ومبتهجة.. فكّرتُ بأنّ هذهِ العمليّة بمثابةِ هديّةٍ من السماء تثبتُ للسلطاتِ بأنّ المطلوب ليس أنت. بعد أيّامٍ من مغادرةِ مجد السجن، راسلني وتحدّثنا عبر السكايب، وضعتُ وجهي بينَ كفّيّ، شعرتُ بقلبي ينبض بعنفٍ، كاد يغمى عليّ وأنا أصغي إلى التفاصيل. حدّثني مجد وهو يقاوم رغبة في البكاء، اعترفَ لي في لحظةِ ضعف بأنّه ما عاد يحتملُ الورطة التي

وجد نفسه فيها، حتى مجد كرهَ كرم ولعن الأمّ التي أنجبته، وبينما كان يسبّ ويلعن، سألتُه: ألا تخشى أن تكونَ مخطئًا؟ ربّما يملكونّ أدلة قويّة، يملكون الخيط الذي أوصلهم إليه. ربّما عذبوك وعذبوه، لأنّهم واثقين من أنّ كرم وفارس شخصٌ واحد!

«مستحيل»، هذا ما أكّدهُ مجد: «الوقتُ الذي لم يكن أخي يقضيه معنا في البيت يقضيه إمّا في المقهى أو الكاراج، كان رجلًا بسيطًا لا علاقة له لا بالسياسة ولا بالتنظيمات، سجن ظلمًا وعُذب ظلمًا، فقط لأنّ لهُ أخًا توأمًا حملَ قبل موته بأيّامٍ هذا الاسم اللعين.

(٤٠)

أنا أفتقدكَ جدًا لو تدري.. أشعرُ بهذا النقصِ الدائم داخلِي الذي لن يكتملَ حتى نلتقي، مثلما لو كنتُ منقسمةً إلى شطرين متساويين، نصفي يعيشُ محاصرًا هنا، ونصفي الآخر أسيرٌ خلفَ أسوار سجن عسقلان. أغمضُ عينيّ، وأتخيّلكَ تتجوّل في زنزّانتكَ ببدلتكَ البنّيّة، تقفُ حينًا وتجلسُ حينًا، وجهكَ متعبٌ، تفكر بصمتٍ، بينما تدخّن وترتشفُ الشاي، لم تعد تشتكي من الحزن (أكثر الأصدقاءِ إخلاصًا لك) أصبحَ جزءًا طبيعيًا منك، كعضوٍ زائدٍ عن الحاجة اعتدتَ على تواجده فيك..

الوحدةُ ليست شيئًا جميلًا في السجن، إلّا أنّكَ تفضّلها على مصاحبةِ الآخرين. كتبتَ لي مرّةً: «إذا صادقتُ رجلًا اليوم وفضفضتُ لهُ قليلًا وأصغى، سأكونُ مجبرًا غدًا على الإصغاءِ إليه، وقد لا أكون مستعدًا لذلك! سيتحتّم عليّ منح الصديق حقوقا كثيرة، من بينها أن يستجوبني متى يشاء إن لم يرني بمزاجٍ جيد! وآخ لو تعلمين كم أصبحت أكره طرح الأسئلة والاستجواب بشكلٍ خاصّ!! يبدو أنّني سأعاني عقدةً منه لوقتٍ طويلٍ..»

أراكَ تأكل بلا شهيّة، تعطش فتبتلع الماء بجرعةٍ واحدة كالدواء، أراك تقابلُ والدتكَ المسكينة من خلفِ نافذةٍ زجاجيّة، وأتخيّل لو كانت زيارتكَ هناك متاحةً لي، هل كنتُ لأتحمّل رؤيتكَ دون لمسكَ وشمّك وضمّكَ إلى صدري؟ لن تكونَ الدموعُ كافيةً لإخمادِ لهيبِ قلبي، لم أختبر في حياتي مرضًا

يشبهُ الحُبّ، ثمّة طبيبٌ واحد على الأرض بوسعه معالجتكَ بأدويتهِ الخاصّة، صوتُه، رائحته، كلماتُه وكلّ ما يخصّه، ويبدو أنّني سأتأخّرُ لأشفى من هذا الوجع، سأتحمّله كما تتحمّله أنت، وقد قلتَ في رسالةٍ سابقة: «وجعك ولا فرح الدنيا يا سلمى! صحيح هذه الظروف تقتلني، لكنّني سأخوضُ هذا الحبّ بعدميّتي علّ يومًا حقيقيًا يلوح..»

أجلسُ الآنَ في غرفتِي مقابلَ النافذةِ التي تطلّ على حديقتنا الصغيرة، لستُ أضع على جسدي سوى هذا الفستانِ الخفيفِ بكُمّيهِ الطويلين، لونُه أزرق فاتح، وكلّ أزرارهِ العلويّة مفتوحة. جمعتُ شعرُي على كتفِي الأيسر وجلستُ أكتبُ لك. على طاولتِي أوراق وأقلامٌ وفنجانُ قهوةٍ باردة غرقت فيهِ ذبابة! ما زالت تتخبّطُ فيها معتقدةً أنّ بإمكانِها النجاة، تصلني كلماتُها الأخيرة بينما تلفظ أنفاسها عبر هذا الطنينِ المزعج، ما الذي يعقلُ لذبابةٍ أن تقولهُ أثناءَ احتضارِها؟ ها هيَ حشرّةٌ حقيرة تكافحُ بكلّ نبضاتِها وطنينِها وأجنحتِها لتعيش، بينما يتخلى معظمنا عن طمعه في الحياة! يؤسفني الاعتراف أنني أجبن من ذبابة، وأقسى من أن أغمسَ أصابعي في القهوة لأريحها من هذه المعاناة.

لا يفصلني عن الامتحاناتِ النهائيّة سوى أسبوعين.. أحاولُ استدراكَ ما فاتني بسببِ تغيّبي عن الجامعة، ويساعدني في ذلكَ الأصدقاء وأستاذ الأدب البريطانيّ الذي حدّثتكَ عنهُ من قبل. تصوّر أنّ زميلي خليل يغارُ منه؟ طلبَ منّي ألا أجتمعَ بالأستاذ عمر في المكتبة واصفًا إيّاه بالخبيث، رغم سمعتِهِ الطيّبةِ بيننا، يقولُ لأنّه رجلٌ يفهم نظرات لا أفهمها، ويرى فيهِ

ما أعجزُ عن رؤيتِه! تشاجرنا وجَرَحهُ كلامي عندما قلتُ له: «الصداقة هي كلّ ما يجمعُ بيننا، لا يحقّ لك التدخّل فيما لا يعنيك». اعتذرَ معلنًا عن انسحابِه من حياتي إلى الأبد، وكتبَ لي:

«أحببتكِ يا سلمى حبًا يجعلُ رجلًا يقضي ليلَهُ باكيًا يتمخّط في طرفِ قميصِه، لأنّ المرأة التي يطلبُ منها الحُبّ كلّ يومٍ تصدّه وهي تحبّ رجلًا آخر! الحبّ الذي جعلني أقبلُ بالعذابِ إلى جانبكِ على عذابٍ أعيشه بعيدًا عنكِ.. وهكذا رضيتُ بدورِ صديقٍ، عليهِ الامتناع عن التفوّهِ بكلامِ الحبّ واعترافاتِ الاشتياق وتلاوةِ القصائد، لكنّكِ اليوم تجرّدينني حتى من حقوقي كصديقٍ، بل واجبه تقديم النصيحةِ في الوقتِ المناسب. أنا ما عدتُ أحتمل ومن الأفضلِ أن أقتلكِ داخلِي قبلَ أن تقضي عليّ! أرجوكِ إن كنتُ عزيزًا ابقي بعيدةً ما استطعتِ!» هكذا خسرتُ صديقًا أحبّه، بسببِ لساني السليط الذي يتحوّل في لحظاتِ غضبي إلى سوطٍ جامحٍ تصعبُ السيطرة عليه، يخرج من فمي مندفعًا ويبدأ بالجلد بلا رحمة! منذ ذلك الحين، أصبح خليل يعاملني كغريبة، يأتي متأخّرًا ويرحلُ مبكرًا كي يتفادى رؤيتي.. وعندما تجمعنا الصدفة وجهًا لوجه، يدّعي أنّه لا يعرفني.

أصغي الآن، بينما أكتبُ لك، إلى أغنية أمّ كلثوم التي سمعناها معًا ذاتَ سهرة، أغنية «حِلم»، الموسيقى حملت روحكَ إليّ، تخيّلتكَ جالسًا أمامي وعلى وجهك الابتسامة الصغيرة التي تسحرني بها دائمًا دون أن تكشف عن أسنانكَ الجميلة، ها هي أمّ كلثوم تردّد من أعماقها: «وأقوله خايف

لتنساني، يقولّي مستحيل أقدر.. المدهش أنّ هذه الأغنية التي نعشقها لم تغنها السيّدة إلا مرّةً واحدة على مسرح حديقة الأزبكيّة في اليوم الرابع من شهرِ كانون الأوّل قبلَ نكبتنا بسنةٍ واحدة، وضعَت فيهّا كلّ أحاسيسها لعشّاقٍ سيصغون إليها جيلًا بعد جيل! أحيانًا، أفكر بأن سيّدة الطرب ما غنّتها سوى لأجلنا كي نسمعها تلكَ الليلة في خشوعٍ عاطفيّ تامّ.

أفراحنا العابرة وأحزاننا المقيمة!

(٤١)

تعافيتُ من الشعورِ بالذنبِ تجاهَ شقيقتي.. فهديل ستتزوّجُ بعدَ عيدِ الفطرِ، كانت حائرة بينَ عنادي وعنادِ أبي، وانتظرت لوقتٍ طويلٍ. إمّا أستسلم وأتزوّج أو يستسلمَ ليزوّجها ويتركني بسلام، لم يكن هيّنًا على رجل عنيدٍ ومتمسّكٍ بالتقاليدِ كوالدِي الخضوع لقرارِ امرأةٍ في بيته، كرهني لهذا السببِ، شعرَ بالإذلال لعدمِ تمكنهِ من فرضِ ما يراهُ صائبًا، ابنتهُ التي لم تكن شيئًا وأنجبها بدفقةٍ من عضوهِ (كما قال ذات شجار) تريدُ أن تربّيه وتريه ما الخطأ وما الصواب!

كلّفني استسلامهُ أن أتذوّق طعمَ الموتِ أمامَ عينيه ليصدّق ما أنا قادرة على فعله، لم يكن هيّنًا عليّ أيضًا تجاهل كآبةِ هديل، ذلك العتابُ في عينيها طالما أحرجني، علمتُ بأنّني سأكونُ تعسةً أمام القدرين، سواء تنازلتُ عن سعادتي أو أعقتُ سعادتها، تمسّكتُ بعزوبيّتي التي يسمّيها والدي عنوسة، وبحبّي الذي يراهُ وهما. احتمال احتلال وطن كان جارحا بشكل عميق، لكننا نحملُ هذا الجرح داخل كلّ قلب فينا، ونتحمّله بصمتَ. أمّا احّتمال احتلاليّ كإنسانةٍ من خلالِ سلبي حرّيّتي، فقد كان قاتلًا. إنك لن تفهم إلا إذا تخيّلتَ نفسك شيئًا يباعُ من رجلٍ يدعى والدًا إلى رجلٍ يسمّى زوجًا!

استدعى خطيبَ هديل، وتحدّث معه في الصالون لساعتين متواصلتين؛ وحين دخلت هديل لتضع صينيّة القهوة، توقّفَا عن الحديث كأنّها ليست المعنيّة بهِ! غادرَ العريس، فتوجّهَ بابا إلى هديل وأمرها بأن تبدأ بالاستعداد لعرسها. قالّ ما قاله ببرودِ

رجل أعمال وقّع صفقة للتوّ! كان حزينًا كأنّه تخلص من عبءٍ، وما زالت على ظهره أعباءٌ أخرى. أقول يكرهنا وتقول يحبّنا على طريقته، لكنّني لستُ أدري كيفّ يحبّنا؟ أتمنّى لو أفهم أو أصُدّق. لستُ واثقة من مشاعره، لكنني واثقة من كراهيّتي له منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي دفعني فيهِ إلى الموت، ما عدتُ أحبّه كما تحبّ الابنة والدها، ولا عاد يحبّني كما يحبّ الوالدُ ابنتَه.

نحنُ نقضي أيّامنا في التسوّق، تتعبني المدلّلة! ليست مثليّ، أشتري ما أراهُ يطلبني ويلّحّ عليّ كي آخذه، أرى قميصًا يحدق إليّ باللهفةِ ذاتها التي أحدق إليهِ بها، فأخلعه عن الدمية وأجرّبهُ على جسدي، ثم أدفعُ ثمنه وأرحل.. هيَ ترغب بالشيء ثم تتراجع، وتأخذني إلى محلّاتٍ أخرى لتُعيدني إلى المحلّات الأولى! يصلُ بنا الأمر إلى شجارٍ وشيك، أقولُ لها لا أعرفُ كيف سيزوّجونكِ؟ ما زلتِ طفلة تتشاجرين مع لينا، لا تجيدين الطبخ ولا حتى سحب بيضة سليمة من المقلاة. أستفزها كي تضحك، لكنّي أتفاجأ بوجهها يعبس، تحتقّن وجنتاها بينما تتخيّلُ كلّ ما ينتظرها فّي بيتِ الزوجيّة! تقولُ إن شهر رمضان سيكون فرصة مناسبة لتتعلم أثناءه الطبخ، ولكنْ كيفَ يعقل لطفلةٍ أن تكبر في شهرٍ واحد؟

استلقت إلى جانبِي ليلةَ أمس تطلبُ منّي إعطاءَها دروسًا في الجنس، دونَ أن تدري بأنّني أفوقُها جهلًا! ما الذِي أعرفُه أنا وقبلكَ أحببتُ طفلًا في الصفّ الخامس؟ احتفظتُ بحبّهِ لثلاثِ سنواتٍ دونَ أن أحدثه بكلمّةٍ، ثم عرفتكَ من وراءِ الشاشة.. فعشنا كلّ ما يعيشُه العشّاق إلا ما يتعلقُ بالجسدِ. حتى

الحكايات المتنوّعة التي سمعتُها من أفواهِ العرائس كانت متناقضة على نحوٍ مُحيّر! هنالكَ من تروي تجربتها كالتي قضتها في الجنّة، وهناكَ من تصوّرها مثلَ ليلةٍ قضتها في الجحيم، ربّما تعتمد المسألة على أسلوبِ الرجلِ والحبّ أيضًا، كيفَ للمرأةِ العاطفيّةِ بفطرتِها أن تستمتعَ بقبلةٍ واحدةٍ مع رجلٍ، إذا لم تكنّ لهُ الحبّ حتى لو كان ذلكَ الرجلُ زوجَها؟ هدّأتُ من روعِ أختي، وأخبرتُها أنّ الأمر ليسَ معقّدًا لذلك الحدّ، الحيوانات لم تكن بحاجةٍ إلى نظريّاتٍ لتمارسَ الجنس، وآدم لم يكن بحاجةٍ إلى كتيّب يريه كيفَ ينبغي عليه أن يفتضّ حوّاء، أعتقدُ أنّنا كبشر لسنا بحاجةٍ سوى للحبّ.

اشتّقتكَ حتى رأيتكَ في حلمي.. كنتَ تتمشّى في بستانٍ صغير تقلمُ أغصان شجرةِ تين، وتجمع ما تدلى من حبّاتٍ في سلةٍ صغيرة، كنتَ كأميرٍ أسمر يرتدي قميصًا أبيض، رأيتني فانزلقت السلة من يدك وتدحرجت حبات التين، مسكتني من ذراعي بقوة كما لو كنتُ سأهربُ منك، ضممتني إلى صدرك حتى شعرتُ بضلوعي تلامس أضلعك! استَنشقتَ رائحتي، ثم رفعتَ وجهي إليك، وقبّلتني قبلة طويلة ويدك اليسرى أسفل ظهري تشدّني إليك أكثر، أترى؟ أجدُ دائمًا طريقة لأتواجد بها معك.

أمنحكَ القبلة ذاتها التي منحتني في الحلم.

(٤٢)

أصبحتُ مدخّنة! بيني وبينَ نفسي اسألني لماذا أخبركَ بهذا؟ أستحي من أن أعدّ قهوتي وأفردَ الورقةَ لأسردَ لكَ أخبارًا أحسبُها تافهة، لكنّني أذكرُ ما طلبتَه منّي في إحدى رسائلك، كنتُ قد انقطعتُ عن مراسلتكَ لبعضِ الوقت، وعندما عاتبتني أخبرتكَ بأنّ أيّامي متشابهة ولم يعد لديّ ما أقوله، تراكَ خشيتَ أن ينقطعَ الحبلُ بيننا، فرددت غاضبًا: «ثمّة دائمًا ما يقال، اكتبي لي عن البعوضةِ التي أزعجت نومكِ! عن طبقٍ فشلتِ في إعداده، عن شجاراتكِ اليوميّة مع عائلتكِ، حدّثيني عن آخر روايةٍ قرأتِها، آخر فيلمٍ شاهدتِه، عن خاتمٍ أضعتِه أو بثرةٍ نبتت في وجهكِ فأربكتكِ، عن ألمِ الحذاءِ الجديد، وحينما يتقصّفُ شعركِ لا تكتمي! أخبريني عندما يزيدُ وزنكِ أو ينقص، وعن القطّةِ التي رحلت ولم تعد، عن العصفورِ الذي وجدتِه ميّتًا على حافّةِ النافذة، والجارةِ التي استشهدت أثناءَ القصف.. حدّثيني يا سلمى عن مساحيقِ تجميلك، شكل مرآتك وفرشاة شعرك، صفي لي فساتينك وحقائبكِ وملابسكِ الداخليّة كما لو كنتُ أراها، حدّثيني عن كلّ ما فيكِ ولّكِ وحولكِ، لا تهملي التفاصيل، أريدُ أن أعرفَ كلّ ما تعتقدين أنه لن يهمّني».

أنتَ لم تر قطّ سيجارةً بينَ أصابعِي ولا دخانها ينبعثُ من شفاهي، أنا التي كانت تثنيكَ عن التدخين خوفًا على رئتيك من التلوّث، أو يستقرّ ورمٌ خبيثٌ في لسانكَ أو حنجرتك. لا أخفيك أنّي منذ سنواتٍ جرّبتُ تدخينَ سيجارةٍ، سرقتُها من علبةِ تبغ شقيقي زيد. لم يرقني شكلها في يدي ولا ربطت

بيني وبينها أيّةُ عاطفة، وبعدَ أن سحبتُ بضعةَ أنفاسٍ كرهتُها أكثر.. تساءلت لماذا يقتلُ الناسُ أنفسهم من أجلِ الروائح الكريهة التي تعلق بالأفواه والأصابع والملابس؟ هذا الانطباع تلاشى بعد أن دخّنتُ سيجارتي الثانية منذ أيّام، ما حدث أنّ صديقتي كرمل نسيت علبةَ تبغها بحوزتي، انتصفَ الليل وكنتُ محبطةً ووحيدةً، أشعر بطنين قبيلةٍ من الذباب داخلَ رأسي، حملتُ لفافةً وعلبةَ كبريت وصعدتُ إلى السطح، كانَ رذاذ المطر يتساقط، تنشّقتُ هواءَ الليل العليل، رائحة الترابِ الذي بدأ يتبلل، وضعتُ السّمّاعات أصغي إلى الموسيقى، أوقدتُ سيجارتي، ورحتُ أحدق إلى المصابيحِ التي رصّعت ثوبَ المدينة الأسود، سحبتُ نفَسًا طويلًا ثم نفثتُ دوائر الدخانِ من فمي، شعرتُ بنفسي أتحرّرُ من القلق، عمّ الهدوء داخلي، وغادرت قبيلةُ الذبابِ رأسَي، فهمت لماذا يدخنُ كلّ هؤلاء! من أجلِ النفخ! لا أنوي إدمان التبغ، غير أنّني ابتعتُ علبة لأدخنَ منها لفافات في المناسبات الخاصّة احتفالا بسعادتي أو تخفيفا من كآبتي.

لو يعلمُ والدِي بعادتي الجديدة لن يتردّدَ بتعنيفي، ليسَ خوفًا على صحّتي بقدر الخوفِ من القيل والقال! ما الذي سيقوله الناسُ عنه؟ سيقولون لم يحسن تربيتها، ولم يعرف كيفَ يكبح جموحها، يرى ابنته تتحوّل إلى عاهرة يومًا بعد يوم دون أن يفعل شيئًا، أنا لم أتاجر بجسدي ولم أضاجع رجالا لا أعرفهم، ولم أؤذِ أحدًا، لكنْ في المنطقة التي أعيش فيها سيصفونني بالعاهرة، فقطّ لأنّني وضعتُ سيجارةً بينَ شفتيّ! علاقتي بهِ ما تزالُ متشّنجة، هو لا يرى أنّه أخطأ في حقي بل كان يصنعُ

جميلًا لم أقدره وفضحته بجريمتين: محاولة الانتحار والطلاق. أمّا أنا، أراه أخطأ مرّتين، مرّة وهو يخطئ ومرّة وهو لا يعترفُ بخطئه. ما جاءَ في رسالتكَ الأخيرة بخصوصِه أربكَني، وجّهتَ لي جملةً قاطعة أعدتُ بفضلها كلّ حساباتي، علقتَ على كراهيّتي له كالتالي:

«أنتِ تعتقدين أنّكِ تكرهين والدكِ يا سلمى، لكنّكِلا تكرهينه! لا يمكنكِ أن تفعلي، أنتِ غاضبة منهُ فحسب، تكرهين طريقة تفكيره وتصرّفاته معكِ وليسَ شخصه، لا يمكننا أن نكرهَ آباءنا أو أمّهاتنا مهما ادّعينا أو حاولنا، رابطة الدم تربطنا بهم، وحبّهم أقوى منّا حتى لو رأينا أنّهم لا يستحقّونه، أريدكِ أن تتذكّري أنّكِ كنتِ تقّولين إنّكِ كنتِ تكرهين شقيقكِ زيد، ولم تكتشفي كم تحبّينه إلا بعد أن استشهد وعلمتِ أنّكِ لن تريه بعد ذلك اليوم، أذكّركِ كي لا تندمي لاحقًا يا سلمى، نحنُ لن نمكث هنا طويلا، العمر أقصر من أن نضيعه في بذل الكراهية، لا تكرهي.. قلبكِ أطهر من أن يتلوّثَ بذلك السواد!»

أنتَ لم تطلب منّي أن أتخيّل حياتي بلا والدي، لم تقل تصوّري أنّه مات لتفهمي ما الذي تكنّينه له، تجنّبتَ أن تكونَ فظًّا لتغرس نصل سؤالكَ في قلبي، فقط فتحتَ نوافذ الأسئلة في رأسي، في الواقع لم أتوصّل بعد إلى أجوبةٍ حاسمة، لا أعرفُ كيفَ ستكونُ مشاعري في موقف كذاك، يؤلمني كم يجهلني ولا يكلف نفسه عناءَ التعرّفِ عليّ، لا أظنّه يحبّني، فهوَ يعّدّني وصمة عار، اعتقدتُني لا أكترث، لكن يبدو أنّني أفعل، تعذبني نظراته المحمّلة بالجفاء، كلماتُه الباردة، حقده

اللامبرّر، كرههُ لي يضايقني فعلًا، لكنْ ليس بوسعي فعل شيء، لن أطّمسني بعدَ اليوم، لن أتنازل عن أحلامي الصغيرة كي أرضي لذته الذكوريّة في تسيير حياتي.. بعيدًا عن كلّ شيء، وأنتَ معي، أشعرُ أنّني أقوى، أحبّك وأشتاقك، وأشكرُ الله لأنّه فكّر بخلقك.

(٤٣)

تعوّدتُ من الفرحِ أن يزورني مرافقًا لخيبةٍ ما، يأتيان مثل توأمين متلاصقين، الأمر يشبهُ ألّا يزورك صديقٌ تحبّه إلّا ويرافقُهُ صديقٌ ثالثٌ، يدقّ بابك وهو يصحبُه معه، تجدهُما في المقهى معًا، في الشاطئ، في الأعراس، في الجنائز.. وقد يتصادفُ أن يموتا معًا! في البداية، قد تتضايقُ من الصديقِ الثالث، ربّما ستحاولُ إبداءَ انزعاجك منْ حضورهِ، وحين تفشلُ سيتكيّفُ ذهنكَ مع حضورِه، يصبحُ استقباله أمرًا عاديًا في سبيلِ الاحتفاظِ بالضيفِ العزيز: «الفرح».. نجحتُ، وانتقلتُ إلى السنةِ الثالثة. لكنْ، آخرُ يومٍ في الجامعةِ مرّ عليّ حزينًا، إذ بينما كنّا نوّدعُ بعضنا بعضًا لمحتُ خليل متّكئًا إلى جذع شجرةٍ يحدّث صديقًا له، انتظرته خارج الجامعة، وتباطأتُ بالرحيلِ متوقّعةً منهُ القّدومَ ليصالحني، وددتُ لو أعتذر لأرمّم صداقتنا، دون أن أدري بأن بعض ما ينكسر في القلب يصعبُ إصلاحه وإعادته إلى شكلهِ الأوّل..

تغير الطقس، وجلبت الريح غيومها المحملة بالدموع، بدأت السماءُ تمطر بغزارة على رأسي وثيابي، عطست وشعرتُ بريحٍ باردة تعبر أنفي، ثم تضربُ لوزتيّ وتنزلُ إلى معدتي! غادرَ كالغريب.. لم يلتفت ليرى الصديقة الواقفة بانتظاره منذ ساعةٍ كاملةٍ، عدتُ إلى منزلي مبلّلة وغاضبة، كتبتُ لهُ رسالة نصّيّة: «يلعن اليوم الي صاحبتَك فيه»، ردّ بكلمةٍ وعلامةِ تعجب: «يلعن!» بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ كاملةٍ اتّصل، وجدَ صوتي متغيّرًا ومجروحًا:

- ماذا تريدين يا سلمى؟

- لا شيء.. انتظرتكَ لأعتذر، لكنّكَ تصرّفتَ كولد، خذلتني! كنتُ أؤمنُ إيمانًا كبيرًا بصداقتنا، ظننتكَ ستقفُ دائمًا إلى جانبي كما سأساندكَ بكل ما أستطيع، لن أسامحكَ على ما فعلته، ولا أرغبُ بمعرفتكَ بعدَ اليوم.

- ألن تتوقّفي أبدًا عن تجريحي؟ لا تكوني قاسية يا سلمى.. لم أطلب منكِ انتظاري، ولا كنتُ جاهزًا لمناقشةِ مشاعري، غاضبة لأنّني تسبّبتُ لكِ بنزلةِ برد؟ تسبّبتِ لي بأكثر من ذبحةٍ صدريّة، ولم أجرؤ على كرهك.

لزم الصمتَ لبعضِ الوقت، ثم قال وهو يحبسُ البكاء في حلقه: اشتقتلك! خرجت من فمِه ضحكة ساخرة: «بتعرفي الموضوع كيف؟ لمّا الواحد بيحسّ حاله حمار بس بيفْرِقِشْ معه إنّه حمار! إنتِ خليتيني حسّ حالي حمار، ومع هيك ظليتني بحبّك لأنّه ربّك لمّا بدّه يخلق الحمار بيستشيروش!»

ظننتنا تصالحنا بعد تلك المكالمة، لكننا لم نفعل. كانت مكالمة اعترافاتٍ اختفى بعدّها مجدّدًا. أرجوك، لا تنزعج من اهتمامي به، في الحياةِ كلها لا يحظى الإنسان بكثيرٍ من الأصدقاء، لهذا حينَ أخسرُ أحدهم أشعر أن شيئًا ثقيلا سقط منّي، لا يمكنني المضيّ دون محاولةِ التقاطّه. عدا ما حدث.. نحنُ نستعدّ لشهرِ رمضان، كلّ الناس هنا يفكرون كيف سيَصُومون في هذا الجوّ الخانق، لكنّهم سيصومونه بصبرٍ على أيّة حال، كما يفعل أغلبنا كلّ عام. ورمضان يقبلُ نحونا، لستُ أفكّر بما ينتظرني من جوعٍ وعطش بل بما ينتظركَ أنتْ! أفكّر كيفَ ستصوم لتفطر على ذلك الأكل الرديء؟ إنّه إضراب

غير رسميّ عن الأكل، طلبتَ منّي ألا أقلق، وأخبرتني أنّكم ستطبخون إفطاركم بأنفسكم في الزنزانة.. ولكنْ، كلّ هذا لا يخمدُ قلقي! يحزنني صومكَ بعيدًا عن أهلِك... قلبي يحترق عليكَ كقلبِ أمّك.

شقيقتي هديل لا تتوقّفُ عن التمرّن على رتبةِ زوجة، تدوّنُ الوصفات، وحين تفشلُ في طبخةٍ تدفعنا للضحكِ عليها، تصالبُ ذراعيها وتخفي وجهها باكية، أبي أحيانًا يسخرُ منهّا وأحيانًا يشجّعها لكنّه يعاملها جيّدًا، وهذا يشعرني بالغيرة.. كلما احتاجَ شيئًا ينادي هديل، وحين لا تسمعه أذهبُ إليهِ، يقول دون أن يرفعَ عينيه «لم أطلبكِ، لقد طلبتُ هديل!»، أبتلعُ غصّاتي وأمضي. تحاول أمّي إقناعي بضرورةِ الاعتذار منه، وهذا ما لن أفعله، لن أذلّ نفسي أكثر ممّا فعلت.

أنا أيضًا أحاولُ الاستعداد روحيًا لهذا الشهرِ الفضيل، أجدُ لذة في الصلاة والتأمل، أحب حالة السكون التي تمنحني قدرة هائلة على إعادة توازني وتصفية ذهني، أن تمارسَ العبادة لإلهٍ كي تكون سيّد نفسكَ! هي حياتي السرّيّة التي أعيشها بتفاصيلها بمفردي، أنفردُ خلالهّا بإلهي أحدّثه عمّا يتعبني، أرتبُ موعدي معه على طريقتي، أنظف غرفتي، ألمّع الأرضيّة، أضيء الشموّع وأحرق البخور، أرشّ المسك وأوراق الورود البيضاء، أصلي لساعاتٍ كما تعلمتُ الصلاة، أتحرّرُ من جسدي وتصعد روحي إليه لتخاطبه بشوق، وأحيانًا يخّيل إليّ أنّه من يحلّ بغرفتي! لا أخطّط للمشاركة في صلاةِ التراويحِ، بل للاعتزال. يحبّ الناس تواجدهم معًا أثناء الصلاة، لكنّ ذلك يشتّتني حيث لا أعرف كيف أحدّث الله إلا وأنا بمُفردي..

أحلمُ بمعبدٍ منسيّ، كنيسة مهجورة، أو مسجدٍ فارغ أمارس فيه طقوسي! أيّها الشريك، قد تصلني رسالتكَ مع حلول الشهرِ الفضيل، رمضان كريم وكلّ سنة وأنتَ حبيبي.

(٤٤)

أتنقّلُ بينَ جروحكَ كممرّضة علّنِي أوقفُ نزيفًا مّزمنًا يتسرّبُ من القلب، لعلكَ لا تدري.. جروحك وندوبك كلها أحبّها، لأنّها ما كوّنت الرجل الذي أنتَ عليهِ اليوم، لستُ بخير، أنا أكثرُ النساءِ حزنًا، حبلى بألم ماؤه منكَ ودمُه منّي، وهذه النار لن تخمد داخلي إلّا إن علمتٍ أنّك تنامُ ملء جفنيك، تأكلُ جيّدًا، تحدّثني كما كنتَ تفعل بالابتسامة العريضةِ ذاتِها، بالصوتِ الممتلئ بالحياةِ، بكلّ ما كنتَ عليهِ قبل دخولكَ السجن، أنتَ تعتقدُ أنّكَ تنجحُ بدفنِ الحزن في قلبك أثناء الكتابة لي. وصلتني منكَ رسالتان متشابهتان، لاحظتُ كم حاولتَ ألّا تخوض في موضوع الحادثة الأخيرة، لكنّكَ لا تعلم أنّي أكادُ أراه وجهكَ بتفاصيله ذابلًا بالحزن، أسمعك تتمنّى لو أنّكَ لم تكنْ قطّ، تخجلُ بعارٍ لا تعرفُ كيف تمحوه عن جسدك.

لا تقل «لا عليكِ تعافيت!» وكيفَ لجرحٍ عميقٍ كذاكَ أن يتعافى بين ليلة وضحاها؟ لا تفكر بأني أرش ملحي على جرحك، أودّ لو تنسى حقًا، وليس مكابرةً، لتخفيف هوْلِ حزنكَ عليّ. قل ما عليكَ قوله ولا تبالِ بي، صدري سيكون الوسادةَ التي تبكي عليها، ذراعاي نوافذ تغلق عليك كي لا تصيبكَ الخيبة بسهامها، عندما يجفّ الدمع وتكون بحّاجةٍ إلى البكاء، خذ عينيّ وابكِ بهما! خذ قلبي وعش ما يتعذر عليكَ عيشه من أيّام.. أستيقظ فجرًا بسبب وخزاتٍ في صدري وأستغرب حاجّتي الماسّة إلى البكاء، فأعرفُ أنّكَ في هذه اللحظة تبكي، كلما انتقلتُ بمشاعري من حالةٍ إلى أخرى أعلمُ أنّني أقاسمُكَ

المشاعرَ ذاتها.

في اللحظةِ التي تقرأ رسالتي، تخيّل أنّكَ مستلقٍ هنا إلى جانبي، نروي نكتًا بذيئة، فأضحكُ عليكَ كراوٍ أكثر ممّا تضحكني النكت، بلى! أنتَ أسوأ شخصٍ يروي النكت على الإطلاق، ترويها بجدّيّةٍ مميلّة، تنسى جزءًا من النكتة فتعيدُها من الأوّل وتُعيد وتُعيد، حتى تصبح الابتسامةُ بعد سماعها مستحيلةً، تخيّلني أقتربُ من وجهكَ بما يكفي لأضعَ شفتيّ على شفتيك، أتذوّقهما، الشفةُ العلويّة ثم السفلى، أتذوّقُ ريقكَ العذب، أعانقك حتى أشعر بقلبكَ ينبضُ على صدري، أشمّ رائحتك، أقبّلكَ خلف أذنيك، أداعب شعرك الناعم، أخلعُ عنك قميصك وتخلع عنّي فستاني، أتدحرجُ فوقك فتدفن رأسك بينَ نهديّ، تداعب وتداعب ثم تدخُلني، قبلاتٌ متواصلة، لحظاتٌ من الاهتزاز والولوج والخروج، نتبادل الشبقَ حدّ الإغماء.. ثم ننام هادئيْن كملاكيْن.

(٤٥)

تفتّحَت مثلَ وردةٍ بيضاء في ذلكَ الفستانِ الأبيض، على كتفيها تموّجَ الشعرُ الحريريّ الأسود، تلألأ الفرحُ في عينيها الواسعتين ولمعَت نجومٌ صغيرة في زوايا أسَنانها الثلجيّةِ، كانت هديل أجملَ عروسٍ عرفتْها خان يونس، كان يكفي أن تدخلَ ذلكَ الفستانِ كي لا أصدّق أنّها أختي، وأؤمن بأنّها حوريّةٌ نزلت حالًا من الجنّة. لم تتجلّ فتنتُها في المساحيقِ التي غطّت بها وجهها ولا الأكسسوارات على جيدها وأصابعها ومعصمها، بل لأنّها كانت امرأةً تنبضُ بالعشقِ تزفّ إلى الرجل الذي تحبّ، ها هيَ تعيشُ اللحظةَ التي ظنّت أنّها لن تعيشَها بسببِ عنادِ أبي!

انقضى شهرُ رمضان، واستقبلنا برحيلهِ عيدَ الفِطر، أجدُ خيبةً في الاعترافِ بأنّ الأعيادَ اليوم فقدت طعمَها حينَ توقّفت عن جلبِ الفرحِ بمجيئها، أصبحت عادةً أخرى يلتزمُ بهَا الناسُ، يخبزون الكعكَ بوجوهٍ عابسةٍ، بلا حماسٍ يبتاعون الملابسَ الجديدة لأطفالهم، يتبادلون الزيارات، لكنك تشعر وأنت تسلم على كلّ من يقابلكَ تلكَ الصبيحة أن لا أحّدَ سعيدًا حقًا في العيد! أذكرُ أنّني في ليلةِ عيدِ الفطر، كنتُ أرتبُ ثيابي، حذائي وجواربي، دبابيس شعري الملوّنة ثم أتمدّد في فراشي مبكرًا، أتمنّى لو أنام ليأتي الغدُ بسرعةٍ. ومن فرطِ حماسي، كنتُ لا أنامَ حتى أسمعَ أذان الفجر ثم صلاة العيدِ الجماعيّة والتهاليل الرائعة التي تبعث في نفسي الفرح وهالة من الخشوعِ في سريري، كما لو كانت الملائكة تحيطُ بي! والآن، أصبحتُ أنامُ

نومًا عميقًا لا يعنيني ما الذي سيحدثُ بعد، شيءٌ فينا تغيّر حتى ما عدنا نتقنُ استقبالَ الفرح، حزنٌ تفرّعت جذورهُ فينا حتى أصبح جزءًا منّا، لا نعرفُ كيفَ نرتبُ أيّامنا دونه.

تزوّجت هديل بعدَ انقضاءِ العيدِ بأسبوعين، خرَجت من بيتنا طِفلةً إلى بيتِ زوجها سيّدةً، وانطفَأ وهجُ الفرحِ بمجرّد انتِهاءِ حفلِ الزفاف لنعودَ إلى البيتِ دونَها. وجدنا الجدران خرساء، الغرفَ فارغة، البيتَ أكثر هدوءًا ممّا كان عليهِ، اختفى طيفها المجنون الذي كان يتنقّل بسرعة بينَ الأركان، غادرَنا صوتُ صراخها الذي كنّا نتذمّرُ منه، خيّمَ علينا الحزنُ حتى إنّي رأيتُ أبي في الصالون يمسحُ دمعةً انسكبَت على خدّه. لم أصدق ما رأيتُه: أبي يذرف الدموع بسبب رحيل هديل! وأمّي حائرة لا تعرف هل يجبُ أن تفرحَ من أجلها أم تحزن لفراقها؟ أمّا الصغيرة لينا، فقد نامت منهكة، لن تكتشف هذا الفراغ إلا يوم غد! أنا أشتاقها منذ الآن، لا أفعلُ شيئًا هذهِ الأيّام سوى محاولة الاعتياد على غيابٍ آخر.

في حفل الزفاف، سألتني إحدى العجائز لماذا لم أتزوج حتى الآن؟ لم تكتفِ بسؤالها الفظ، زادتهُ بعتابٍ قائلة بأنّه كان ينبغُي عليّ حضور حفل الزفافَ وطفلي بينَ ذراعيّ، آلمني سؤالها! تؤلمني دائمًا مثلُ هذه الأسئلة، التي على قدرِ ما تبدو بسيطة لأصحابها، تبدو لنا الإجابة عنها شديدةَ التعقيد، كيفَ لحوارٍ قصيرٍ لا يتجاوزُ عمرهُ دقيقتين أن ينصفَ سؤالًا كذاك؟ ألا تعتقدُ مثلي أنّ أسئلةً كهذه في غايةِ الحميميّة تنبغي مناقشَتُها في مكانٍ وزمانٍ مناسبين، ليس في حفلِ زفافِ شقيقتي وليس أثناء ضجيج الأغنية الصاخبة التي تنبعث من

مكبّراتِ الصَوت؟ صمتّ لبضعَ ثوانٍ أفكر بالإجابة المناسبة التي تشبعُ فضولها، ثم قرّرتُ التحلي بالصدق، قلتُ في أذنِها:

«أحبّ رجّلًا لم يخرج من السجنِ بعد، قد لا ألتقي بهِ أبدًا يا حجّة، لكني أحبّه، أعلمُ بما ستنصحينني، بتجاوزِ قصص الحبّ الي بطعميش خبز، ستنصحينني بألّا أضيّعَ سنوات شبابي في الانتظار وبالزواجِ من أفضلِ شابّ يتقدّمُ لخطبتي، لا أعرفُ يا حجّة إن كنتِ مررتِ بما نسمّيهِ الحُبّ، لكن فقط أريدكِ أن تستوعبي أنّ الفراق ليس بالسهولةِ التي تتخيّلونَها، سأحدّثكِ بلغةِ المستشفيات لأقول إنّ الفراق أشبهُ بعمليّةٍ لاستئصالِ القلبِ!».

كانت تصغي بأذنٍ واحدة، فأذنها اليسرى تالفة! ألقيتُ بكلماتي إلى الأذنِ التي أرشدتني إليها بسبّابتِها، كانت مهتمّة، وشعرتُ بها تبذلُ جهدًا كي تسمعني. حين فرغتُ من كلامي، ابتعدتُ عن أذنِها، فتفاجأتُ بدموعٍ تغادرُ عينيها. كان بكاؤها بسببي محرجا في حفل الزفاف، فلم أشأ تركها حتى أستوضح سببَه! حدّثتني في أذني ولا زالت تتشبّث بذراعي، قالت إنّه كان لها ابنٌ ماتَ شابّا في الأسرِ منذ عشرين سنة بسببِ التعذيبِ، فقد كان مناضلا لا تفارق بندقيّته كتفه، قالت إنه دخلَ السجن بسبب وشايةِ أحدهم، كان متيّمًا بصبيّةٍ جميلةٍ، ويحتفظُ بصورتِها في جيبِه الأماميّ بالقرب من القلب. وقيل إنّ آخر ما رآه قبل استشهادِه صورة المرأةِ التي أحبّها. قصّتنا ذكّرت تلك العجوزَ بقصّةِ ابنِها، عجوزًا تسعينيّة لا تجيد القراءة ولا الكتابة، ليست مولعة لا بالروايات ولا بالأفلامِ، بارَكت هذا الحُبّ بفطرتِها! إنّها تعلمُ معنى أن يحبّ المَرء

ويفني عمرهُ في سبيلِه، عجوزٌ طرحت سؤالا غبيّا في وقتٍ ومكانٍ غير مناسبين، غير أنّها باركتني كقدّيستةٍ ألقى الله في قلبِها رحمةً تستوعبُ بها هشاشة الضعفاء أمام الأقدارِ المستحيلة.

(٤٦)

ما أعذبَ الحبّ حتى وهو يعذّبنَا.. عذابي لم يكن يومًا بكَ بل بهذهِ المسافاتِ الشائكة والمستحيلاتِ الشاهقة التي تفصلُ بيننا. إحساسي بأنّكَ على أرضٍ أخرى، رغم أنّنا على الأرضِ ذاتها، فكرةٌ بعدٍ يمتدّ في الذاكرةِ إلى آلافِ الكيلومترات رغم أنّني قريبةٌ جدّا.. العذابُ الذي أتحدّث عنه هو هذا الشرخُ في الوطن وهذا الشرخُ هنا في القلب! لو تدري ما الذي يفعلهُ بي هذا الاشتياق، في هذهِ اللحظةِ، أراهنُ بحياتي كلها، بما أمتلكهُ من سنواتِ عمرٍ مقابلَ لحظةِ عناقٍ واحدةٍ، أعتكفُ فيها بين ذراعيك، ألتحمُ فيها معك، وبعدَ ذلكَ فلأمت!

مرّ أكثرُ من شهرٍ وما زلتَ تحقدُ على الضابطة، طلبتُ منكَ في رسالةٍ سابقةٍ أن تصفَ ليَ الجرحَ كما هوَ، تشاركني أفكّاركَ الصامتةَ كلها، فكتبتَ لي: «لقد كرهتُ جسدي يا سلمى، تأذيتُ من الداخل، وما أصابني لا علاقةَ لهُ بتقديري لرجولتي بل لإنسانيتي المنتهكة، إن السجن أحد الأماكن الذي لا يمكنك الاعتيادُ عليها على الإطلاق، حتى لو قدّموا لكِ فراشًا وطعامًا جيّدًا، لن ينجحوا في قتلِ توقكَ إلى الهواءِ والشمس والتحرّك بحرّيّةٍ، مشكلتنا أننا لا نشعرُ بأننا أحرار حتى ونحنُ خارجَ هذا السجنِ اللعين، فنحنُ عكس غيرنا من الشعوب عاجزون عن التنقّلِ في مدننا بحرّيّةٍ! عن مغادرةِ الوطنِ والعودةِ إليه متى قرّرنا، الرجلُ الذي تسلبينهُ حرّيّتَه يتوقّفُ عن الإحساسِ برجولتهِ، أتخيّلُ ما ستقولينهُ من أجل رفع

معنويّاتي، كأن تقولي: الأسدُ يظلّ أسدًا حتى لو تمّ وضعهُ في قفصٍ، لكنْ كلّ ما ستقولينهُ لي لن يغيّر شيئًا ممّا أحسّ بهِ».

حدّثتني عن خيالاتٍ تراودك، ترغبُ بتحطيمِ وجهها واقتلاعِ عينيها، فرمِ لحمها وتوزيعهِ على القططِ والكلابِ، أعلمُ أنّكَ أرق من أن تقومَ بكلّ هذا، وإذا اختليتَ بها ستبصقُ عليها وتمضي، أخبرني كيفَ تتعايشُ مع كلّ هذا الغضب؟ هذهِ الكراهيةُ لا تؤذي أحدًا سواك، ثم كيفَ تتهوّرُ وترسلُ لي رسالةً كهذه؟ ألم تفكّر في احتمالِ أن تقعَ هذهِ الورقة بين يديّ أحدِ العساكر، حتى إذا كانَ المكتوبُ مهرّبًا من يدكَ إلى يدِ المحامي مباشرةً ولهُ علاقة طيّبة مع السجّانين، هذا لا يمنعُ أن تحذر.

أمّا عنّي، فقد عدتُ إلى الجامعة لأستأنفَ سنتي الدراسيّة الثالثة، وجدتُ كلّ شيءٍ على حالهِ كما تركتهُ إلا وجوه الأصدقاء تتغيّر مع مرورِ الوقت. جلستُ إلى طاولةٍ خشبيّةٍ قديمةٍ، قرأتُ ما تركهُ عليها أصحابها من خربشاتٍ، عدتُ بذاكرتي إلى سنواتي الأولى، تذكرت صديقة أحبها كان يحلو لي اللعب معها «حنين». استشهدت منذ سنتين، وكنّا وقتها على خصامٍ، توقّفتُ عن مخاطبتها بعدَ أن باحت بسرّي لصديقةٍ ثالثةٍ، كرهتُها وهي حيّة، وعندما توفيت كرهتُني، لأنني لم أصالحها قبلَ اندلاعِ الحرب! من يعيشونَ هنا عليهم ألّا يكنّوا الأحقادَ لبعضهم بعضًا، لأنّهم قد يموتونَ في أيّةِ لحظةٍ ليختنقَ الأحّياء بحزنهم. في الجامعة، أستمتعُ بكلّ المحاضرات إلّا ما يتعلقُ بمادّةِ اللسانيّاتِ التي يعافها قلبي، كأنّي أصبتُ بعقدةٍ منذ ذلكَ اليوم الذي وقفتُ فيه على المِنصّة أقرأ اقتباسًا

لتشومسكي اللعين، فسخر منّي الأستاذ وضحك عليّ طلّاب السنة الأولى.

التحقت لينا بالمّدرسةِ، هي مذهولة بالعالمِ الجديد الذي انضمّت إليه، لا تتوقف عن الحديثِ عن أصدقائها، تروي لي مشاكلها الطفوليّة بانفعال، كأن العالم على وشكِ الانهيار! كما أنّها تعبدُ معلّمتها التي ترشو التلاميذ بالسكاكر والحلوياتّ، يرونها ملكًا منزّلًا من السماءِ ومعصومًا عن الخطأ، لذلك المعلمة دائمًا على حقّ! لا أخفيك بأنّ الغيرة راودتني أكثر من مرّة، لأنّ الأخيرة تستولي على قلب شقيقتي ودهشتِها. أمّا هديل، فهي تحاولُ النّضوجُ في بيتِ زوجها، أنا على تواصلٍ دائم معها، ونلتقي كلما أتيَحت الفرصة، لم نتعوّد بعد على غيابها وهي تستمتعُ باشتياقنا لها.

ينتابني مللٌ قاتلٌ في هذهِ المّدينةِ الكئيبة، لا أجدُ مكانًا جميلًا جديدًا أذهبُ إليه، المدينة كلها عبارةٌ عن شارعين رئيسين متقاطعين، شارع البحر وشارع جمال عبدالناصر، منقسمة كمعظمِ المدن إلى جزءٍ قديم وآخر حديث، محلّاتٌ ومَطاعم متواضعة، وحديقة حيوانات بائسة أصبحوا يحنّطون فيها الحيوانات للفرجةِ بدلا من تربيتها وتغذيتها لتبهرَ روّاد الحديقة، الحيوانات المريضة والهزيلة التي تحتضرُ في حديقتنا تعبّر بجوعها وحزنِها وملامحها الذابلةِ عن حالةِ الإنسان الذي يعيش في خان يونس وقطاع غزّة عمومًا، ذلكَ البؤسُ فيها لا يشبهُ سوى الدَمار داخلنا وحولنا..

بالمناسبة، ثمّة رجلٌ محترمٌ طلبَ يدي، لكنّ والدي رفضَه دون استشارتي، لا بدّ أنّه اقتنع برفضي أن أكون لرجلٍ سواك،

علاقتي بهِ حتى الآن لا تزال متوترة. يبدو أني لن أستعيده أبدًا، وهذا يضايقني، فأنا رغم كلّ ما فعله بي أسامحُه، لستُ أكنّ له الحقدَ والكراهية كالسابق، أمّا السؤال الكبير الذي يتردّد داخلي هو لماذا نعجز عن كرهِ آبائنا، رغم كلّ ما يفعلونه بنا؟ أنتَ أيضًا لا يمكنني أن أكرهك مهما فعلتَ بي، تمامًا كما لو كنتَ أبي!

(٤٧)

علمتُ أنّ رجلًا آخر اعتُقِلَ اشتباهًا بكونِه «كرم». هذا الخبر أسعدني، لأنّه يزيد من حظَوظِ ألّا يكون كرم أنت، لم يفصلوا بعد في قضيّتك ولا أخلوا سبيلك، فأنتَ كما قالوا خطرٌ على أمنِهم. لا أصدّقُ أنّ في حرّيّتكَ خطر على أمنِ نملةٍ، أذكرُ القطّةَ العمياء التي تبنّيتَها، وجدتها بجانبِ مرآبك تصطدمُ بالأشياء، كانت ضئيلةً، ضعيفةً ومتّسخة. حملتَها بذراعٍ واحدةٍ، قرّبتَها إلى صدرك ولمّا وصلتَ إلى البيت، أطعمتها، نظّفتَها وأطلقتَ عليها اسمَ «نغم». كنتَ رجلًا هادئًا، هشًّا رغم صلابته، ودافئًا رغم برودِهِ، لا يسمحُ لكائنٍ باستفزازِه، حتى الذبابة لم تكن تزعّجك بطنينها، كنتَ تبعدها برفق وتكملُ حديثك، كنتُ أتمنّى لو أتعلم منك كيفَ للمرءِ أن يكونَ منضبطًا لذلكَ الحدّ؟ سيّدَ أعصابِه، جاهزًا لمواجهةِ أيّ موقفٍ طارئ أو كلمةٍ مباغتةٍ، قلتَ لي: أنتِ المخلوقةُ الوحيدة التي أفقد توازني في حضرتِها، لكنّي سعيدٌ بهذا الاختلال!

الرجل الآخر تم القبض عليه يتجول في مستوطنة: «أرييل» كانَ يحملُ هويّةً إسرائيليّة مزوّرة مثل هويّات كرم. قيل لو لم يكشف نفسه بنفسهِ لمَا ميّزوا بطاقته، ما كشفه كان عدم إجادتِه للتحدّثِ باللغة العبريّةِ بطلاقة، بالإضافة إلى ملامحهِ العربيّة وارتباكِه في التصرّف. ما إن التقطوا لهُ صورةً وكشفوا عن بصماتِه حتى حصلوا على هويّتِه الأصليّة. والمفاجأة كانت في اسمِه الحقيقي.. «كرم». رجلٌ ثلاثينيّ من مواليدِ قريةِ جالود يعمل بإحدى محطّات البنزين في نابلس، قال في البدايةِ

بأنّه سرقَ الهويّةَ من أحدِ زبائنه، وطلب من صديقٍ خبيرٍ ببرامج الفوتوشوب تزوير الهويّة.. وهكذا دخلَ إلى المنطقةِ المحرّمة. عندما علمَ التهمةَ الحقيقيّة الموجّهة إليه بأنّه مشبوه بكونِه أخطر إرهابيّ تلاحقه المخابرات الإسرائيليّة، متّهمٌ بالتخطيطِ لعمليّة يافا وتنفيذها، أغمي عليه. ولمّا أفاق لم يكن بحاجةٍ إلى التعنيف. وحدهُ الهلع جعلهُ يعترفُ بكل شيء. أخبرهم بأنّه اشترى الهويّةَ المزوّرة منّ أحدهم، لم تكن لديه أيّة خطط إرهابيّة للاغتيال أو التفجير، تسلل فقط من أجلِ السياحة ومضاجعةِ عاهرةٍ بولونيّة فاتنةٍ.

قيل لهُ في المقهى الذي يرتادهُ ثمّة من يمكنُه تزوير هويّاتٍ إسرائيليّة باحترافٍ، وهذا الشخص مقيمٌ في مخيّم بلاطة، أقسمَ لهم بأنّه لم يقابل الرجل وجهًا لوجه، من كانَ يسلم ويستلمُ طفلٌ لم يكمل سنواته العشر بعد، يدعى أنس. يمنحُه الشاري المال والصورة، يركضُ الطفل إلى بيتهم، يخبّئ النقود في كيسٍ قماشيّ تحتَ سريرِ جدّتِه المشلولة، وبعدَ سبعة أيّامٍ يستلمُ الشاري بطاقته الجديدة. من يعيشُ في ذلك البيتِ البائس: الجدّةُ المريضة وابنتها رنا والطفل أنس، يتيم الأم، ووالده معتقل منذ ست سنواتٍ. ركبَ كرم مع الضّابط والعساكر في موكبٍ يتألفُ من خمس سيّاراتٍ مصفّحة ليدلهم على البيتِ، لم ينزل من السيّارة كي لا ينتقم منه سكان الحيّ لوشايتهِ. اقتحموا المخيّم وطوّقوا الحيّ، فتّشوا البيت وقلبوا أثاثَه، وجدوا الجدّة غير قادرةٍ على التحدّث ولا على الحركة، لكنّ الهلع كان باديًا على وجهها، لا أحد رأى الدمعة الساخنة التي انسكبت على خدّ السيّدة المريضة، وهي تلاحقهم في صمتٍ

عاجزٍ بنظرةٍ من زاويةِ عينها اليسرى، حتى فارقوا الباب وسط دهشةِ الناس.

تمّ التحقيق مع رنا وأنس في مكتبين مستقلّين، وضعوا أمامَ الطفلِ طبق غاتو لذيذ وأكوامًا من ألعابٍ جديدة، قيلَ له بعد أن يدلي بشهادته سيأكل الحلوى ويعود بالألعابِ وعَمّته، أمّا إن كذب فلن يأكل شيئًا وسيؤذونَ رنا، كان الطفلُ متعلقًا بعمّتِه كما لو كانت أمّه، وفي الوقتِ نفسه توّاقًا للحصولِ على كلّ هذا. سألوهُ عن رجلِ البطاقات، فأقسمَ لهم أكثر من مرّة بأنّه لا يعرفُ اسمه ولا يناديه سوى بـ «عمّو». طلِب منهُ وصفُه فقال: «عمرهُ خمسون أو ستّون، سمين شوي، لا أصلع ولا كثيفَ الشعر، يلبس مثل كلّ الرجال قميصًا وبنطلونًا، لا يسوق سيّارةً ولا يسكنُ المخيّم ولا يجلسُ في المقهى. عرضوا عليه صور المشبوهين، ولم تكن بينهم صورةُ العمّ الكبير. والمربك هو هذا الوصف العامّ الذي أدلى به معظمُ الجيران الذين تمّ التحقيقُ معهم، أكّدوا على خلوّه من علاماتٍ مميّزة في جسده أو مشيته، كما أنّه يأتي ويرحلُ مستعجلًا.

رغبت بالتعرف على رنا، ورحت أبحث عنها في مواقع التواصل الاجتماعيّ بلا جدوى، وصفوها لي كالتالي.. شابّةٌ نحيفة، متوسّطة الطول وبشرتُها فاتحة، لا تجتهدُ في الاهتمامِ بشعرها، لذا تبدو كغجريّةٍ بشعرها الفوضويّ. منذ اعتقِلَ شقيقها، أصبحت المسؤولة عن إعالةِ عائلتها؛ ولأنّها توقّفت عن الدراسةِ مبكرًا، لم تجد عملًا سوى أن تخدمَ أثرياء نابلس. في المكتّبِ الآخر، حقّقوا معها عبر آلةِ كشفِ الكذب فقد عدّها المحقق المفتاح الوحيد من أجلِ الوصولِ إلى كرم. لم

يكن الاسمُ مألوفًا لها، ولم يتغيّر لونُ وجهها عندما سمعت الاسم. أمّا البطاقات، فكانت تشتركُ في استلامها وتسليمها إلا أنّها لا تعرفُ أيّة معلوماتٍ عن المُزوّر. الآلةُ أنصفتها في معظم أجوبتها، ولكنّ الضبّاط لم يفعلوا. أعادوها في حالةٍ تدعو إلى الشفقة، ركنَ الشرطيّ سيّارته في مدخلِ المخيّم، نزلت بخطواتٍ بطيئةٍ، تجرّ أقدامها، تبذلُ جهدًا عظيمًا لتنقل خطوةً إثر خطوةٍ، الشبابُ الذين كانوا يجلسون في المقهى وقفوا وبدأوا يرجمون السيّارة المنسحبة بالأحجار، لا أحد خاطبها بكلمة ولا هي خاطبت أحدًا، كانت تبذل جهدًا آخر كي لا تبكي، كانت ترغبُ بذلك، لكنّها أجّلت البكاء لغاية وصولها إلى البيت. أينَ ستدفنُ رأسها في صدرِ أمّها الخرساء. حين دخلت الحارة، كان أنس يلعبُ كرة القدم مع رفاقه، توقّفَ متيبّسًا في مكانِه وهو يرى أمّه التي يسمّيها عمّته، أو عمّته التي يسمّيها أمّه لا يهمّ، ما يهمّ أنّه رآها تمشي بفستانٍ ممزّق، بوجهٍ بالكادِ تعرّف عليه، بسبب كدمات غيّرت ملامحه، على أنفها كان الجرح الجديد لا يزالُ ينزف خيطًا ثخينًا من الدم.

أنس شعر بحجر يحتبس في حنجرته، يمنعه عن بلع الريق، بالمرارةِ في فمِه، بالغليانِ في رأسه، بالبرودةِ في أطرافِه، في تلكَ اللحظة، علمَ أن رنا لم تكن تأكل الحلوى في المكتبّ الآخر. تذكّر الكعك الذي أكله، فأصابه الغثيان، أنس أقسمَ أنه لن يمدّ يدهُ مرّة أخرى ليأكل اللقمة المُرّة، وعندما يكبر يريدُ أن يصبحَ ذلك الإرهابيّ كّرم، الذي لم يتوقّف الضابط عن التحدّثِ عنه. الدرسُ الذي تعلمه أنس ذلك اليوم كان أوّلَ الدروس التي

لقّنته إيّاه الحياة.. سيكبر، وسيفهم لاحقًا الفرقَ بين أن يكونَ الرجلُ مناضلًا وبين أن يكونَ إرهابيًا، وسيتعلمُ كيفَ يميّزُ وجهَ الجلّادِ من وجهِ الضحيّة.

المخابرات زرعت في مخيّم بلاطة مخبرين ليراقبوا منزلَ رنا، لكنّ المداهمة والاعتقال والاعتداء على الصبية.. كلّ هذا كان كافيًا ليعلمَ العمّ الكبير أنه أصبحَ ملاحقًا، منذ ذلك اليوم لم يرَ أنس العمّ الكبير. وبعد أن تعلّم الدرس الكبير، أصبحَ يحقد على كلّ سيّاراتِ الشرطة، كلّ العساكر، كلّ الذين يحملون أسلحة، كلّ الذين يطرحون أسئلة.. أصبح أنس يكرههم.

شرحَ لي شقيقك مجد كلّ هذا، وأضاف بأنّه رغم اعتقالك لا يزالُ كرم نشطًا، يزوّر المال والهويّات ولا يتوقّفُ عن التخطيط، أمّا أنت المعزول عن الناس، كيفَ لك أن تستمرّ بالتزوير والتخطيط في زنزانتك وتحتَ المراقبة، ولست تقابلُ أحدًا إلا عائلتك ولّا تملك الوسائل لذلك؟ وكرم الحقيقي كان يعمل بمفرده، لم يلقن ما تعلمه لأحد، هم يفكرون باحتمالين: إمّا أنّهم لم يقبضوا على كرم بعد وإما أن يكون كرم الحقيقي أنت.. وقد تُركتَ لرفاقك المخطّطاتِ ليستمرّ العمل بعدك، في حال ما أُسِرتَ أو اسّتشهدت. وكلّا من الاحتمالين ليسْ مؤكّدًا لأحد. فلنفترض أن كرم يديرُ شبكة كاملة، كيف لم تكشَف حتى الآن، رغم حملات الاعتقالات الواسعة والمخابرات الإسرائيليّة التيلا يُعقل لأحد أن يطعن في احترافيّتها.. برأيك، لو أنّهم عثروا على العمّ الكبير، هل كان سيعترف ويعرّفهم على كرم أم أنّه كان ليموتَ دونَ أن يقول؟ قضيّتكَ تشّبهُ المسائل الفيزيائيّة المعقّدة، التي طالما

كرهتُها وعجزتُ عن حلها.. إلى متى سنستمرّ بالركض في هذهِ المتاهة المغلقة؟

(٤٨)

حينَ نلتقي، سأكتشفكَ كما تكتشفُ الأمّ طفلَها لأوّل مرّةٍ، سأداعبُ رأسكَ بلطفٍ، أتلمّسُ شعركَ الأسود لأكتشفَ سمكَ كلّ شّعرةٍ، سأقيسُ طولَ حاجبكَ بسبّابتي وأعدّ رموشُ عينيك، أمرّر كفي على وجهك وأتحسّس ملمسَ شفتيك، أتذوّق طعمهما، أقبّلُ الفجوة الجميلة في ذقنك، وأمرّر إصبعي فوقَ الوريدِ البارزِ في عنقك.. ذلكَ الذي يتخدّر كلّما أمعنتَ في التفكيرِ بي. أريدُ أن أتعرّفَ حتى على شكلِ قدميك، ما هو حجمهما؟ أهما صغيرتان أم كبيرتان؟ كيفَ شكل أصابعهما؟ هل هي طويلةٌ أم قصيرة؟ كيفَ هو شكلُ الأظافر؟ مربّعٌ أم دائريّ؟ قل عنّي ما تشاء، أعترفُ أنّني مجّنونةٌ بكَ وبتفاصيلكَ حدّ الهوس! حينَ نلتقي، سأدللكَ كما لم تدلل أمّ طفلها.

لن أكتبَ لكَ لبعضِ الوقت، وأعلمُ أنّكَ ستقلقُ في الحالتين، سواء فسّرتُ سببَ غيابي أو لم أفسّره. فلأخبركَ بأنّني مريضة، لكنه ليس بالمرض الخطير.. منذ أيام، شعرت بألم حاد تحتَ سرّتي ثم امتدّ إلى أسفلِ بطني في الجهةِ اليمنى، في بادئ الأمر اعتقدتهُ وجعًا في المبيض أو أحد أعراضِ الدورةِ الشّهريّةِ، لكنّه لم يخفّ. ارتفعت درجة حرارتي وبدأتُ أتقيّأ، كان ألمًا متواصلًا استدعى أخذي إلى إحدى العياداتِ الخاصّة، رجّحَ الطبيب فورًا التهابًا للزائدة الدوديّة، قمتُ بفحوصاتٍ وتحاليل وأشعّة، ثم حدّدَ موعدًا لعمليّة استئصالها. هذا هو السبب الذي سيجعلني أنقطعُ عن مراسلتك، لا تقلق عليّ! سأكونُ بخير، سأعودُ للكتابةِ إليك حالما أتحسّن.

لستُ أفكّر سوى بالمحاضراتِ التي سأفوّتها، ثمّة دروسٌلا أفهمها إلا من أفواهِ الدكاترةِ، التحقتُ متأخّرة ولستُ مستعدّةً لخسارةِ أيّةِ سنةٍ. عدا هذا، هل تذكرُ كّم حدّثتكَ عن ذلكَ الخصامِ بيني وبينَ صديقي خليل؟ كنتُ أتألمُ لخسارتهِ، وعندما تعافيتُ منهُ صالحني! هكذّا هم بعضُ الناسِ، كلّما أبديتَ اهتمامكَ بهم تجاهلوك، كلما تجاهلتهم اهتّموا بكَ! حاولَ صديقي أن يبدأ حديثًا عفويًا كالسابق، لكنْ يبدو أنّ ملامحَ صداقتنا تغيّرت إلى الأبد... لا بدّ أنّكَ تستغربُ كيفَ لم أعد أذكرُ صديقتي نسرين؟ لقد تركَت الجامعة، وتزوّجت من رجلٍ خيّرها بينَ الدراستِهِ وبينه، فاختارته! غيابها عن الجامعةِ سببّ لي وحدةً محبطة. قد يقلقكَ خبرُ خضوعي للعمليّةِ، صدّقني لا شيء يخيفني أكثر من أن أموت ولا أراك! أن أرحل عن هذا العالمِ قبل أن نلتقي، مشكلتي إذن مع القدر وليست في تاريخ الرحيل، لكنّ أملًا لا أزال أتشبّث به لآخر لحظة.

(٤٩)

لا بدّ لي من الاعترافِ بأنّ بعضَ الخوفِ ساورني على نحوٍ لم أتوقّعْه! كنتُ أقولُ للناسِ ولنفسي طيلةَ الأيّامِ التي مضت: «لستُ خائفة، إنّها مجرّدُ عمليّةٍ تافهةٍ، أمّهلوني أسبوعين، وستروننني أقفزُ مثلَ قردة!»، لكن حينَ توقفت السيّارةُ أمامَ المستشفى، خفقَ قلبي! وحينَ كنتُ أتجرّدُ من ثيابي، كنتُ أهدّئ نفسي قائلةً: «لا داعي لكلّ هذا الخوف، لن أشعرَ بشيءٍ! سأنامُ وأصحو لأجدَ جرحًا صغيرًا أسفلَ بطني». أمّا حينَ خدّروني واستلقيتُ على ذلكَ السريرِ البارد، كنتُ أغرقُ في النومِ شيئًا فشيئًا، رأيتكَ واقفًا أمامي، تبسمُ لي وتمسكُ بيدي، انحنيتَ ووشوشتَ في أذني ساخرًا: «سأكونُ إلى جانبكِ يا جبانة حتى تستيقظي»، كانَ يكفي أن أرى طيفكَ هناكَ لأذهبَ إلى نومي مطمئنّةً، غفوتُ وعلى وجهي ابتسامة لم يفهم مغزاها أحدٌ.

أثناءَ ذلكَ النومِ العميقِ، رأيتُ أكثر من حلمٍ لا أذكرُ منهُ شيئا، أماكن لم أتواجد فيها من قبل، وجوها لم أقابلها، حاولت تذكّر التّفاصيلِ بلا جدوى، شيء داخلي يخبرني أنّ ما رأيتهُ لم يكن يتعلق بما مضى بل بما سيأتي. أنتَ تعلمُ أنّني أعيرُ اهتمامًا لأحلامي، ويحلو لي تفسيرها من أجلِ أن أفتحَ من خلالها تلكَ الأبواب المغلقة في ذاكرتي، أتجوّل في أماكن مظلمة ربّما أخافُ الاقترابَ منها أثناءَ صحوي، النسيانُ ما هوَ إلّا مقبرةٌ ندفنُ فيها ذكرياتنا الأليمة لنستمرّ، نعتقدُ أنّنا تخلصنا منها لكنّها موجودةٌ هناكَ دائمًا. يقولون يعودُ القاتل دائمًا.

ليزورَ قبرَ ضحيّته، ويحتفظُ بتذكاراتٍ لهّا، لهذا السبب نحنُ لا ننسى تمامًا، إلّا إذا مُسِحَت ذاكرتنا بعلةٍ تخرّبُ الخلايا لتنسفَ تلكَ المقبرةَ إلى الأبد. هل تعتقدُ أنّهُ محظوظٌ ذلكَ المريض الذي يصابُ بألزهايمر، لأنّه ما عادَ يحملُ في رأسهِ وقلبهِ ما يؤلمهُ بعد اليوم، أم أنّه بائسٌ، لأنّهُ ما عادَ يذكرُ حتى اسمَه؟ ثم هل علينا أن نتحمّل كلّ ذلكَ الألم مقابلَ الفرح الضئيلِ الذي تمنحنا إيّاهُ الحياة؟

تطلّبت منّي مغادرةُ حالة التخدير كثيرًا من الجهد، كنتُ أسمعُ أصواتًا بعيدةً، رنينَ هاتف، دردشةَ ممرّضات، أصوات سيّاراتِ الإسعاف، أحاولُ فتحَ عينيّ فلا أقدر! شيءٌ أقوى منّي كان يدفعني لأعودَ إلى النوم، في النهاية، استيقظت وعلمتُ أنّ العمليّة نجَحَت، كانت لحظةُ اليقظةِ الأولى تشبهُ الغفوةَ الأولى، فأوّل ما تذكّرتهُ حينَ صحوت كانَ أنتْ! أجملُ ما خرجتُ بهِ من هذه العمليّة هو أن معاملةَ أبي لي تغيّرت، أخيرًا استعدتُ محبّتَه، هل كان عليّ أن أصاب بنوباتِ الألم كي أحظى بذلك الحنانِ منه؟ هل كان عليه رؤيتي قريبة من الموت دون قصد ليحبني كالسابق؟ هناكَ مشاعر يمنحها الأبُ لا يمكن لسواه منحها، إن افتقدتَها ستظلّ مصابًا بهذا النقصِ حتى تغادر الحياة. ابتسّمَ لي راضيًا، وأمسكَ يدي مداعبًا رأسي بحنوّ، اقشعرّ بدني كأنهُ كان مهاجرًا لسنواتٍ طويلة ولم يعد إلّا تلكَ اللحظة.

أمّا الآن، اسمح لي بأن أحدّثك بأقسى ما مررتُ به، موقف لم أتخيّل التعرّض لهُ بينما أعيش أشدّ حالاتِ ضعفي، حينَ لاحظَت أمّي أنّي أتعافى، روت لي بأسفٍ ما حدث: «بعدَ

خروجي من غرفةِ العمليّاتِ بساعاتٍ، كان والدي شديد القلقِ عليّ، لم تتسنّ له فرصة زيارتي ذلكَ اليوم بسبب ضغط العمل، لذا تحدّث مع ممرّض قريبٍ لنا يناوب ليلًا حتى يسمح لهُ بزيارةٍ سرّيّةٍ، أوصَله المُمرّض إلى الرواق وأرشده بإشارةٍ منه إلى غرفتي، هناك تفاجأ أبي بأحدِ عمّال المستشفى منحنيًا صوبي، يفتحُ أزرار قميصي العلويّة! في البداية، استغربَ وتمهّل حتى يتبيّن من يكونُ ذلك الرجل؟ غير أنّه ثار بمجرّد أن رآه يدني رأسه نحو صدري، كلّا لم يكن يغيّر لي ثيابي ولا يراقبُ حالتي الصحّيّة، بل كان يتحرّش بي وأنا في غيبوبةٍ تامّة!».

أحدثَ والّدي جلبةً كبيرةً في الرواق، ودارَ بينهما شجارٌ عنيفٌ لم ينتهِ إلا عندما تدخّلَ أطبّاء وممرّضون ليفرّقوا بينهما، تمّ استدعاءُ المدير في منتصفِ الليل، راح والدي يهدد برفع شكوى ومقاضاةِ ذلك الحقير، وراح المدير يهدئ من روعه ويعتذرُ له، ثم همس لهُ أن الفضيحة ستضرّ بسمعة ابنته كما ستضرّ بسمعة المستشفى! في نفسه، فكر والدي بعدم مقدرته على تحمل نفقات تلك القضيّة ولا ألسنة الناس، لذلك قرّر التكتمّ على التحرّشّ شرط أن يفصل العامل، وعده المدير بطرده، لكنْ لاحقًا علمنا أن للرجل معارف، فاكتفوا بخصم مرتّب ثلاثة أشهر دون عزله عن وظيفته.

عندما قصّت لي أمّي ما حدث، أخفيتُ وجهي بين كفّيّ أبكي، أتخيّلُ ذلك الممرّض يفعل بجسدي ما يشاء، لولا تدخّل والدي في الوقتِ المناسب! لا أدري كيف يتجرّد رجل من إنسانيّته ليشتهي جسدًا مريضًا، ويتحرّش بصبيّة شبه ميّتة! ها

أنا أقصّ لكَ ما حدث، وأعلمُ أنّ ما ستقرأه سيستفزّك ويغضبكَ حدّ الغليان، إلا أنّك ستتفهّم في النهاية بأنّ ما حدث لم يكن ذنبي، أدركُ أن رسائلي التي أكتبها ستتأخّرُ لتصلك، لأن لا أحد غيري سيذهب لمكتب البريد ليرسلها، وأنا ما زلتُ في فترة نقاهة.

أنتظرُ رسائلكَ بشغف..

(٥٠)

في هذهِ الساعةِ المتأخّرةِ من الليلِ، أكتبُ لكَ على ضوءِ شمعةٍ، وقد استيقظتُ من كابوسٍ مفجع أنقذتني من عذاباتهِ أمّي، إنّها الأوقاتُ التي تحتاجُ فيها إلى أن يصغي إليكَ أحدهم، أيّ شخصٍ يمتلكُ أذنين! كأن تتّصلَ بصديقٍ توقظهُ من نومهِ لتقصّ عليهِ كابوسك، أو تستجمعَ جرأتكَ لتخاطبَ غريبًا يركبُ إلى جانبكَ في الباصّ، تتطفّلُ عليهِ أثناءَ قراءته لجريدتهِ، فقط لتخبرهُ كم تتألم، ولتفكك في حضرتهِ تفاصيلَ سرّك. نعم، لقد كنتُ بحاجةٍ إلى البكاءِ على كتفِ أحدهم، وليسَ في العالمِ من يتحمّلُ كآبتي سواك، مزّقتُ ورقةً من دفتري، ورحتُ أخاطبك كأنّكَ تشاركني هذهِ الغرفةَ المظلمة، تجلسُ بمحاذاتي، تصغي إليّ بكلّ ذرّاتِ قلبك، تمسحُ دموعي بأناملك ثم تداعب شعري لتستحضرَ النعاس، تقبّلني بينَ عينيّ، تغطّيني جيّدًا، تخبّئ قدميّ الباردتين تحتَ الغطاء، تدخنُ سيجارتكَ الأخيرة بينما تراقبني وبعدَ ذلكَ تنامُ مطمئنًا.

لا أخ لي! هذا ما حاولت إقناع نفسي به كي لا أتألم بذكرى زيد، فردٌ من العائلةِ حذفهُ القدرُ بالموت. قل لي ما الذي كنتُ أملكهُ غير النسيانِ لأتعافى من جرحِ زيد؟ إنّهُ ليسَ سهلًا عليّ أبدًا تذكّر وجههِ الحزينِ وهو يغادرُ البيتَ، كأنه يعلمُ أنه لن يعود. لقد رفعَ يدهُ يوحي بتحيّةِ سلام، ألقى علينا وداعًا صامتًا لم نفهمهُ إلّا لاحقًا. لو أنّهُ قالها أنا ذاهبٌ للموت، كنتُ لأعانقهُ طويلًا وأخبرهُ كم أحبّه، لكنّه لم يقلها، تركَ كلّ هذهِ المشاعر معلقةً بينَ السماءِ والأرض. كلّا! ليسَ سهلًا عليّ

على الإطلاق أن أتذكّرَ سيرةُ في شارعٍ مظلمٍ، خطواته البطيئة، ثم كيفَ تمّ قصفهُ ليسقطَ أرضًا. إنّ ما يسّمّونهُ بالنظرةِ الأخيرةِ هي من أصعب ما قد يختبرهُ المرءُ عندما تتعلقُ هذهِ النظرةُ بعزيزٍ، أي يقولونَ لك: «حاول أن تملأ عينيكَ بهِ ما استطعت، لأنّكَ لن تراهُ بعدَ اليوم!» فهل كلّ ما أتحدّث عنهُ من عذابٍ يغفرُ لي خطيئةَ النسيان؟

فلتعلم بأنّي لا أحتفظُ بصورةٍ لهُ في أدراجي! أحتفظ فقط بقميصٍ مطويّ في حقيبةٍ قديمةٍ نادرًا ما أفتحها. لا أفكرّ بهِ. كلما حضر طردتهُ بوقاحةٍ من ذاكرتي، لا أتحدّث عنه، وعندما تفعلُ أمّي أغادرُ المكان أنا حتى لا أزور قبره ولا أعدّهُ ميّتًا، عزيزٌ سافر إلى مكانٍ بعيدٍ تتعذرُ عليهِ العودة. لا يمكنني تخيّلهُ تحتَ كومةٍ من التراب، لا أستطيعُ الوقوفَ هناك، أنا فوق وهو تحت! اليوم.. في غرفة أمّي، تقاطعتُ مع صورته، غير أنّي لم أتأمّلها. كنتُ لأبكي لو فعلت! شيء منُ الإطارِ الأسود وبياض الثياب علق في ذهني، فتحتُ دفاتري أعيد صياغة المحاضرات حتى تثاءبتُ مرهقة ونمت. أثناء نومي، كنتُ في الجامعة عندما سمعنا دويا هلع له الطلاب، توقف الأستاذ عن إلقاء المحاضرة وطلب منّا العودةَ إلى بيوتنا، ركضتُ إلى حارتنا، رأيتُ كلّ شيء إلا بيتنا. فهمتُ أنّه تحوّلَ إلى حطامٍ.. التفتّ لأرى ورائي أبي، أمّي، هديل ولينا، سألتُهم أين زيد؟ في الحلمِ، تلقّيتُ خبر موتِه كما لو أنّه توفّي للتو! كأنّني لم أختبر خسارتَه يومًا، رحت أنبش الركام إلى أن عثرتُ عليه وسحبته إلى أحضاني. أيقظتني أمّي، وسقتني كوبًا من الماء، قالت إنّها سمعت أنيني من الغرفة المجاورة،

كنتُ أهذي باسمِ زيد وجبيني يتصَبّب عرقًا، رميتُ برأسي إلى صدرها، ثم قلتُ باكية: «اشتقتله يمّا».

يبدو أنّ زيد عاقبني بهذا الحلمِ الحزين، إنّه يكرهُ هذا النسيانَ، لا يحبّ رؤيتي أتجاهلُ غيابه كما لو كان مجرّد غريبٍ عاش بيننا لفترة طويلة، أريدُه أن يعلم بأنّي لم أنسه بل أوهمّتُ نفسي بذلك، هو يعيش داخلي، ولهذا يستيقظ الحنينُ إليه كلما استسلمتُ للنوم وفقدت سيطرتي على تفكيري وذاكرتي.

تكوّمتُ في سريري، أسدّ أذنيّ كي لا أسمع صوتَ الرعد، كم أكرهُ صوتَ الرعدِ! يذكّرني دائمًا بالقصف، يذكّرني دائمًا برحيل زيد، لم أستطع العودة إلى النوم، والمطرُ يجلدُ الأرض والريح تكاد تقتلع النوافذ والأبواب.. كلّ هذا الجوّ لا يدفع للكوابيس فحسب، بل للحزنِ والبكاء..

لن أكملَ كتابة الرسالة بتدوين هذه الآلام، سأحدّثك عن أخباري.. بعدَ غيابٍ دام شهرًا، التحقتُ بالجامعة مجدّدًا، حضرتُ أوّل درسٍ ولم أفهم جملةً ممّا يقوله الدكاترة، قيل لي الدروس متسلسلة بعضها ببعض، ولكي أفهم هذه الدروس علي أن أفهمَ أوّلا ما فاتني. وعدا أخبار الجامّعة، شقيقتي هديل حامل، تخيّل؟ حتى الآن ما زلتُ لا أصدق أن تلك الصغيرة تحملُ جنينًا في رحمِها، وستصبحُ أمّا عمّا قريب، حياتُها تغيّرت وهي سعيدة مع زوجها.

ترتعبُ منذ الآن من فكرةِ الولادة، تسألُ كلّ اللواتي مرّرن بتجربة الإنجاب؛ والمشكلة أنّ دردشة الأمّهات لا تزيدها إلا رعبًا من المخاض، لقد اتّخذت هي وزوجها قرارًا أسعدنا جميعًا، يتمثّلُ في إذا كان الجنين صبيًا سيسمّونه زيدًا تيمّنًا

باسمِ الشهيد.. انتظرتُ طويلًا اتّصالا منك، لكنّكَ لم تتّصل. أعلم أنّ الأمر ليس بهذه السهولة، وما كنت لتتوانى عن مهاتفتي إن استطعت. أنا أتعطّشُ لصوتكَ جدّا، أفتقد ذلك العمقَ فيه الذي يودي بي إلى دهاليز مضاءة بالأنوار الملوّنة، أحبّ تلك البحّة العذبة وكلّ النغمات التي تخرج من فمك. ونحنُ معًا، لم يخطر ببالي احتمالُ هذا الغياب، كنتُ لأسجّل كلّ المكالمات الصوتيّة التي أعود إليها كلما اجتاحتني نوبة اشتياق.

(٥١)

في شوارعِ مدينتي، أشعر أنّني أسيرُ بلا رأسٍ! كما لو كنتُ أتركهُ في البيتِ على أحدِ الرفوفِ وأخرج، هل جرّبتَ هذا؟ أي أن تحسّ بأنّك متواجدٌ بينَ الناسِ بلا رأسك، ربّما لأنّهم حكموا عليكَ بالغباءِ، أو يعتقدون بأنّ التفكير بحرّيّةٍ في كلّ ما يخصّ الحياة ليسَ أحد حقوقك. أنتَ لم تجرّب هذا، لأنّك لحسن حظّك، ولدتَ في مجتمعٍ الرجلُ يكونُ سيّدهُ، أمّا المرأة بالنسّبةِ لهم، فهي لم تخلق سوى لخدمتهِ وطاعته.. فالرجل من يرتبُ تفاصيل حياتِها بما يناسبُ مّزاجه واعتقاداته، يلبسُها كيفما يشاء، يضاجعها وقتّما يشاء، يحددُ وقتَ دخولها وخروجها، وما إلى ذلك! آلة متعددة الخدمات يشتريها في صفقةٍ رابحة، وحين تصبح قديمة، يرمّيها كما ترمى الخردوات، لا أعرفُ كيفَ أعبّرُ لكَ إلى أيّ حد أتألم حينَ يتجاهلُ الآخرون رأسي، ويتعاملون معَ جسدي كما لو كان ليسَ لي.

إن أردت التحدث عن هذه السنة، سأصفها بسنة التحرشات! مرّةً في المستشفى ومرّةً في الجامعة وفي محل للملابس، سأعترفُ لكَ أوّلا بأنّني بدأتُ أحبّ نفسي أخيرًا، بفضلِ نصيحّةٍ أسداها لي صديقي خليل. كنتُ دائمًا إن تحدّثتُ عن نفسي أتكلمُ على عيوبي أكثر من مزاياي. لا أعلمُ لماذا كنتُ أجدُ لذةً في البحثِ عن القبحِ في نفسي وتأمّلهِ بدهشةٍ وإعجاب، لم أخجل يومًا من الاعترافِ لمن أعرفُ بأنّني صبيّةٌ قبيحةٌ، إنسانةٌ سيّئةٌ، أنانيّةٌ، مزاجيّةٌ، نزِقةٌ، عاجزةٌ عن احتمالِ نفسها، فكيفَ يحتملها الآخرون؟ قال لي خليل: «كم تظلمين نفسكِ

يا سلمى، تقسين عليها بشكلٍ لا يصدّق! لهذا لا تتوقّفين عن التفكيرِ بالموت، وأذيّة جسدكِ وإنهاءِ حياتكِ في كلّ مناسبةٍ عصيبة، تدمّرين جمالكِ، تقصّين شعركِ، تقضمين أظافركِ.. تعلمَي كيفَ تحبّينَ نفسكِ قليلًا، قفي أمام المرآةِ وصالحي نفسكِ، أنهِ هذا الطلاق الفظيع بينكما، كوني العاشقة المخلصة لنفسك أبدًا».

لقد عملتُ بنصيحتهِ وتغيّرتُ، بدأتُ أفكّر جدّيًا في الحياةِ وبالتصالحِ مع واقع أعيش فيه، أجدُ وقتًا أطول للموسيقى والأفلام والكتب، إنّني أبتاعُ ما أشتهيه وأشتري لي هدايا من حينٍ لآخر، أحرصُ على تناول طعامٍ صحّي، وأفكّر بالتوقّف عن التدخين، الكُحل أصبحَ لا يغادر جفنيّ ولا لون الورد شفتيّ، بدأتُ أنسّقُ الملابس بذوقٍ أنيق، أختارُ سراويل جينز تبرز جمال ساقيّ الطويلتين، وأنسّقُ الألوان جيّدًا بين الوشاحِ والحقيبةِ والحذاء، تحوّلتُ إلى امرأةٍ ترتدي الخواتم والأساور وتطلي أظافر يديها وقدميها، فهل أخطأت حين نقّبتُ عن الجمال المدفون في، وسقيت الأنثى الذابلة داخلي؟ إن كان ذنبا فلست نادمةً عليه، أنا لن أعود تلك المرأةَ الميّتة، الذابلة، الشاحبة، التي ترتدي الأثواب القاتمة، لن أقتل أنوثتي بعد اليوم حتى إن وجدتُ نفسي محاطة بقبيلةٍ من الذئاب.

منذ أسبوعٍ، طلبتُ من الأستاذ عمر شرح الدروس الأخيرة، فعرض عليّ موافاته في أحد المقاهي المختلطة في مدينةِ غزّة، لم أمانع.. لأنّ معارفي قلائل في المدينة مقارنة بخان يونس، التي أقابل فيها شخصًا أعرفه في كلّ منعطف. أردتُ أيضًا أن أكون شابّةً عصريّة، وأجرّب الانفتاحَ لأوّل مرّة كأيّةِ

طالبةٍ تجتمعُ بصديقها أو أستاذها في مكانٍ عام، طلبَ قهوة وطلبتُ شوكولاتة ساخنة، باشرَ بشرح الدروس، وكان يعيدُه بسرور إن واجهتُ فكرةً غامّضة، بدأ الزبائن يختفون شيئًا فشيئًا حتى انفرد بي، وقد لاحظ أن النادل انسحَب من المكان ليجري مكالمة هاتفيّة، نظر إلى عينيّ مباشرة، ولم أتمكّن من فكّ شيفرة النظرة التي كانت كلها اشتهاء! اقترب ليختلسَ قبلةً، فوضعتُ كفّي بينَ وجهي ووجهه! جمعتُ أوراقي كيفما اتّفق وغادرتُ المقهى على عجل، ألحّ بمناداتي، وحاول اللحاق بي علهُ يصلحُ موقفه.. إلّا أنّني لم ألتفت.

خابَ أملي فيهِ، وتذكّرت ما قاله لي خليل ذاتَ يومٍ: «أرى فيهِ ما لا ترينه، ولأنّني رجلٌ أفهمُ نظرات لا تفهمينها». في الواقع، لم أكن أحتكّ برجلٍ إلا ووالدّي يتقدّمني ليحميني من مثلِ هؤلاء، تعلمتُ من هذهِ التجربةَ ألا أثق ولا أضعَ كلّ أسهم الإيمان في شخص واحد. كنت بحاجة إلى فضفضة عاجلة، ولم تكن أختي هديل الشخصَ المناسبَ. لسانُها كثيرًا ما يدلق الأسرارَ لأمّي. راسلتُ خليل ليلًا، ورويتُ له ما حدث معي. في ثانيةٍ واحدة، انفجرتُ أعبّر عن سخطي على الأستاذ عمر، قدّم لي الشماتة التي توقّعتُها، خاتمًا إيّاها بأن أنسَى وأحترس.

أمّا منذُ يومين، كنتُ أستمتعُ بالتسوّق حتى أفسدها عليّ أحد الباعة. صحيحٌ أنّني رأيتُ في عينيهِ إعجابًا، لكنّي لم أتوقّع أكثر من أن يطلبَ رقم هاتفي، اخترتُ قطعتين وذهبتُ لأجرّبهما، تفاجأتُ بهِ يتلصّصَ عليّ من خلف الستار! كان المحلّ فارغًا عندما رميتُ الملابسَ في وجههِ، هذه التجارب اللعينة، جعلتني أتعرّفُ على هذا الجوع من نظراتهم اللزجة!

تصوّر حتى عيونهم يسيل لعابها.. ياه، كم أحتاجكَ معي! من المؤسف أن تكون المرأة بحاجةٍ دائمًا إلى رجلٍ كي لا تتأذّى. لكنْ لا عليك، أحبّ فكرةَ كونكَ رجلًا قد ينازل حتى اللحظة الأخيرة إن تعلّقت المسألة بشرفِ امرأتِه، أنتَ الذي قلتَ لي في أحدِ المحادثات: «لو أبوي عايش وعاكسكِ بخلي الله يحمله!»

(٥٢)

هل السجنُ يحيلُ قلبَ الرجلِ إلى حجر، أم على السجين تركَ قلبِه الغضّ عند بوّابةِ المعتقل ثم يدخل حتى يتكيّف معَ قسوةِ المكّان؟ هل تصقلونَ مشاعركم هناكَ كما يصقلُ الحديد؟ كما تُدق السيوف؟ كما تسنّن الخناجر؟ أنا لا أعرف شيئًا عن عالمكم، غير أنّني أعرفكَ جيّدًا لأدرك متى تتغيّر مثلما يتغيّرُ الطقس! كيف يتحوّل الصيفُ الدافئ إلى شتاءٍ قاسٍ. لستُ عمياء، أنا أبصرُ غيابَ الشمس لأدرك أنّي وحيدة تمامًا في الظلامِ، والليلُ دونكَ كئيب والنهارُ أكثر كآبةٍ.. لو تدري! لم أتواجد معك يومًا في المكانِ ذاته، غير أنّي أعرفُ متى تعانقني روحك ومتى تغادرني، وقد غادرتني منذ شهرٍ وثلاثةِ أسابيع ولم تعد.

لو كنتُ أجهلُ خطّك لاعتقدتُ أنّ رجلًا غيركَ كتبَ لي الرسائلَ الأخيرة، تكتبُها بأسلوبٍ رسميّ جافّ وجارحٍ، كما تكتب الرسائل إلى صديقة وليس إلى عشيقة! أركض إلى مكتب البريد، أفتح الأظرفة بأصابعٍ مرتعشة، أقلب الأوراق بين يديّ، فأجدها شبه فارغة، ترسل لي مكتوبًا أصلعَ! لكلماته المصبّرة طعمٌ لاذعٌ لا أستسيغه، أتساءل حانقة: «هل هذا هو كلّ شيء؟ ألم يعد لديه ما يقوله لي؟» فأفهمُ أنّ الرجل الذي أحبّه يحاول أن ينسلّ من حياتي رسالةً فرسالةً!

ما عدتَ تحدّثني عنكَ، حتى الاشتياق لم تعد تكنّه لي، تحتفظ بأفكاركَ كلها لنفسك، كأنّنا ننفصلُ عن بعضنا بعضًا، لنصبحَ كائنين غريبين! وهذا الانفصال مؤلم جدّا، الكلمة بحدّ

ذاتها تعبّر عن تمزّق تامّ، فاللغة أصابت معناها الحقيقيّ، نحنُ هنا لا نتحدّث عمّا يسمّى شرخًا أو تصدّعًا أو عطبًا أو حتى جرحًا، نتحدّث عن شيء يصبحُ شيئين، عن كائنين يفترقان ولن تجمع بينهما المصادفات بعد ذلك، والزمن ممحاة لا تبقي على شيءٍ.. حتى الحُبّ! أنا وأنتَ في مفترق طرق، لاحظ أنّي أقولُ أنا وأنتَ، بدلًا من ضمير «نحن»، وكنتَ أمس أنا وكنتُ أنتَ، أمّا الآن، أنا أنا وأنتَ أنتَ!

أفترضُ أنّ ما تحدّثتَ به عن التحرّشاتِ التي تعرّضْتُ لها استفزّك، وكالمعتاد بدلا من أن تغضب عليّ غضبتَ مني، قد تعتقدُ أنّني التي تسيء التصرّف - وبالعربي بعطيهم وش! لكن حتى لو كان هذا السبب، دائمًا أقول لك أنتَ في حياتي لتكونَ معي لا عليّ، إذّا رأيتني أخطأت قل ما عليكَ قوله، فأنا أحتمل منكَ أيّ شيء إلا هذه القسوة، صمتكَ يذبحني يا رجل، أنتَ تعاقبني بحنان بدلا من أن تجرحني بكلمة! أتمدد في سريري، أطفئ الأضواء، وأطرحُ السؤال ذاته كلّ ليلة: ما الذي يحدثُ لنا؟ أخبرني.. أسئمتني أم سئمتَ الحديث، أم أن ظروف الأسر هي التي تحيلكَ إلى شخصٍ لا أستطيع التعرّف عليه؟ هل خسرتَ آخر الآمال المتبقيَة أم أنّك لم تعد تريدُ من الحبّ شيئًا، لأنّه جاءك من نافذة المستحيل، وما عدتَ تطلب من الحياةِ سوى الحرّيّة.

حاولتُ التنبّؤ بما جعلكَ تقسو عليّ بهذا الشكل. تساءلتّ.. هل يغضبهُ أنّني بدأتُ أسقي أنوثتي وأهتمّ بجمالي؟ هل يفضلني قبيحة تعسة على وردةٍ تتعطّش للحياة؟ لا أعتقد! قلتُ: ربّما ضايقه بأنّني بدأتُ الاهتمامَ بنفسي بفضلِ نصيحةٍ

من صديق، وفي الواقع أنا ألفّ وأدور، بينما أعرفها غلطتي الفادحة وأخجل من الاعترافِ بها والكتابةِ عنها، كيفَ سمحتُ لنفسي بالانفرادِ مع شخصٍ غريب؟ حتى لو كان هذا الغريبُ أستاذي، واجتماعي بهِ ليس لأجلِ شيءٍ غير الدراسة، طالما حدّثتني عن تقديسكَ لحرّيّةِ المرأة، ما كنتَ لتحبسَ زوجتك في البيت وكنتَ لتسمحَ لها بالعمل والتسوّق وتكوين صداقاتٍ مع الجنس الآخر وهذا ما جعلني أتصرّفُ بطيشٍ. حسنًا! ربّما أخطأت، لن أقتربَ من ظلّ رجلٍ بعد اليوم، وإن رأيتُ شيخًا تعثّر في الشارع لن أركض لمساعدته وإسعافه. سامحني.. أنتَ تعلم بأنّني طائشة، لكنّني مخلصة، من ينوي الخيانة لا يحدّثك بصراحةٍ عن حماقاته، أنظر إلى قلبك وتفقّد معدني بحدسك، وسترى بأن حبيبتكَ تستحقّ الغفران.

تذاع في الراديو أخبار عن الأسرى، يقولون سيفرج الاحتلال عن معتقلين من سجن عسقلان بعدَ شهرين، أتوق لتصديقِ هذا الخبر، لكنّني لا أفعل! لن أنسى الخيبةَ الأولى، بعد ستّة أشهر من اعتقالك، انتظرناك واستعددنا لحرّيّتك، كما نستعدّ لحفلِ زفاف، لكنّهم مدّدوا مدّة اعتقالك في اللحظة الأخيرة.. وهكذا، كلّ سنةٍ يعلنون أنّهم سيفرجون عنك ولا يفرجون. أدركُ أنّ خيبة التمديد يكونُ وقعها عليك أقسى بكثير، فأنتَ مثلنا تحلمُ بالعودةِ إلى أهلك وبيتك لتستأنفَ حياتكَ من جديد، أتذكرُ ما كتبتهُ لي في إحدى الرسائل: «أحيّانًا، يختار المرء اليأس بملء إرادته، لأنّ الأمل لا يجني عليه إلا كثيرًا من الألم».

أريدُ إخبارك حتى وأنتَ تعلم! أعجزُ عن تخيّل حياةٍ لستَ

فيها، يمكنني أن أقتات على صوتكَ الذي يأتيني من بعيد، أعيش على كلماتٍ ترسلها، بوسعي أن أرضى بوحدتي وروحك قريبةً منّي تعانقني.. لكنْ، ماذا لو غادرتني هذه الروح وتركتني للعدم؟ لستَ مطالبًا بأيّة معجزات، للقدرِ أن يقرّر ما يشاء، ولكَ أن تفعل بحياتكَ ما تشاء، إن حدث وخرجت وقرّرتَ أن تكون مع امرأةٍ غيري، لن أطلب من الله إلّا أن تكون سعيدًا معها، وسأستمرّ بحبّكَ حتى وأنتَ تبدأ قصّة جديدة. أنتَ تسكن قلبي، قرارُ دخولكَ لم أتّخذه، فكيفَ أختار قرار خروجكَ منه؟ أنا محكومة بحبّك، إنّه قدري.

(٥٣)

في مثلِ هذا اليوم، ولدَت حبيبتك، امرأةٌ عاديّةٌ أخرى، تحبّ الكتب، الموسيقى، الأفلام، والبحرَ كثيرًا، ثم مدنَ الملاهي التي حرمت منها في طفولتها. تحبّ القططَ وتكرهُ الكلاب، لا تسأمُ من أكلِ البيضِ المطبوخ إذا كان ساخنًا، هكذا ألتهمُ بيضةً تلو بيضة، ربّما شهيّةٌ كهذهِ تثير القرف، لكنّهُ ليسَ ذنبي أنّني أحبّ البيضَ لهذاالحدّ! لا أشربُ القهوةَ حينَ أستيقظ بل قبلَ أن أنامَ بساعةٍ، لا أسمعُ كغيري فيروز صباحًا، لسببٍ ما أفضّل الإصغاء إلى صوتِ أمّ كلثوم، حتى إنّني قد أمارسُ تماريني الرياضيّة على أنغامِ «لسّا فاكر» وفعلتُها.

لا أشخرُ أثناءَ نومي، لكنّني أثرثرُ أكثر ممّا أفعلُ وأنا صاحية، لستُ قارئةً جيّدة للشِعر. أفضّلُ قراءةَ الروايات خصوصًا التي يكتبُها المجانين.. أبغض الماء، أشربهُ علّى مضض وبجرعاتٍ قليلةٍ، طبيعة الماء الخالية من أيّ طعم تنفرني، ثمّة أشياء أرغب بفعلها قبل أن أموت.. أرتدي تنورة قصيرة، أتعلم السباحة وقيادةَ درّاجةٍ هوائيّة، أحصلَ على شعرٍ ذهبيّ قصير وعلى وشمٍ صغيرٍ جدّا.. بماذا أحلم؟ بركوبِ قطارٍ يجوبُ بي مدن بلادي، أو ركوبَ باخرةً ترسو بي في ميناءِ مدينةٍ جميلةٍ وهادئة ليست مشروعَ حروبٍ مزمنة. أرأيت؟ ليست أكثر من رغباتٍ تافهة وأحلام ساذجة لامرأةٍ مجهولةٍ أخرى لن يتعرّفَ عليها العالم، ستموتُ كما ولدت دون أن يلاحظها أحد، وهل أهتمّ؟ على الإطلاق..

اليوم، أتممتُ سبعًا وعشرين سنة، لستُ خائفة من فكرةِ

اقترابي من عمرِ الثلاثين، ذلكَ الرقم المغلق الذي يربكُ معظم النساء، لمّحت أمّي إلى أنّني أتقدّمُ في العمر، وأشارت وهي تداعبُ شعري إلى ثلاث شعراتٍ بيضاء! لا أصدّق أنّني أعترفُ لكَ بهذا، بدأتُ أشيبُ.. تصوّر؟ قالت يومًا بعد يومٍ، سيقلّ عددَ الشعر الأسود في رأسي، سأستيقظ لأجد جلهُ أبيض؛ وفي ذلكَ اليوم سأندمُ، سأحدّقُ بالمرآة لأتحسّسَ التجاعيدَ حولَ عينيّ. ملمسُ بشرتي ما عادَ ناعمًا كالسابق. قالت ستقابلين قريناتكِ بصحبةِ أولادهنّ، وستحسدينهنّ على ذلكَ الضجيجِ الفضوليّ، ستشعرين بالخواءِ في رحمكِ الذي بدأ يضيق، ستكرهين نهديك الجافّين ولم تقطر منهما قطرةُ حليبٍ واحدةٍ! أيّة حياةٍ اخترتِها يا ابنتي؟ أيّة وحدةٍ ستحتملينها؟ نحنُ لن نكون معكِ إلى الأبد. هَمَست في أذني واثقةً: «عمر الحُبّ قصير، وحينَ ينتهي لن يفيدَ الندم بشيءٍ، لأن العمر الذيّ مضى لن يعود». لم أقل شيئًا، ادّعيتُ النوم كما لو كانت تحدثُ غيري.

وصلتني رسالتك الدافئة قبل يومين، ظننت الأسر سينسيك عيدي. أدركُ أنّ أيّامكم متشابهة، السبت يشبه الأحد والاثنين يشبهُ الثلاثاء، والوقتُ يمضي ببطءٍ شديد! أمّا الأشهر، تظهر وتختفي كأشباح تعرفُ رحيلها من طقسها، وحده الطقسُ دليلكَ، فكيف ستذكرُ اليومَ الذي ولدتُ فيه؟ لم أتأمّل أكثر من توضيح لذلك الجفاء، لم أتمنّ أكثر من كلمةِ «أحبّك» تذيبُ ثلجًا أمطرته على قلبي. عندما عايدتني، غمرني فرح قبلةٍ مفاجئة. اطمأنّ قلبي، فقد استعدتكَ أخيرًا. سخرتَ من رسالتي السابقة وبهدلتني على طريقتك، استغربتَ كيف

تقمّصتُ دور الضحيّة بعد كلّ الألمِ الذي سبّبتُه لكَ؟ قلتَ لو كنتَ تعيش هنا كنت ستدخل السجنَ أكثر من مرّة بسببي، ستُعمي رجلًا يحدّق بي بخبث، وتقطع يد رجل سوّلت لهُ نفسه لمسي، من يشتهي التقبيل ستعاقبه بثمانين جلدة، ومن يشتهي أكثر ستُخصيه نهائيًا.. لم تحتمل فكرة أن يشتهيني رجل آخر، يعرّيني في خيالِه، يحاول تقبيلي أو ضربي على مؤخّرتي، قلَتَ إنّ ذلك الاسترسال في الحديث عن التحرّشاتّ كان فوق الاحتمال، ولم تجد طريقة للتنفيسِ عن غضبك إلا بذلك الأسلوبِ البارد، لا أدري لماذا أستمتع ببهدلاتكَ على نحوٍ غريب؟ ربّما لأنّ الفلسطينيّ حين ينوي التغزّل بحبيبته يروح مبهدلها!

لقد أنجبَت شقيقتي هديل ملاكًا صغيرًا سمّيناهُ زيدًا.. ابنها جميلٌ جدّا. في البداية، ضآلته جعلتني أهابُ حمله بينَ ذراعيّ، خفتُ أن أحمل ذلكَ الجسد الطريّ فأعطبه، لكنّ أمّي قالت سمّ بالله، وضعي يدًا تحت رأسه ويدًا تحت بقيّة جسده، فحملته. ما إن قربته إلى صدري حتى رغبت بالاحتفاظ به، شعره الأسود شديد النعومة، عينّاه لم أر في حياتي ما بصفائهما، أصابعهُ صغيرة جدًا تقبض كلها على إبهامي، رائحته زكيّة تشبه رائحة ورد نديّ يتفتّحُ فجرًا، لعابه الذي يتدفّق من فمه يشبه عسلا أبيض، لقد كدتُ أهرب به، لولا أنّني أعدتني إلى رشدي لأعيدَ الرضيع إلى أمّه.

أبي لم يقترب منه، حيّاه من بعيد كمن يحيّ رجلًا كبيرًا! موقفه جمع في نفسي الطرافة والمرارة معًا، قالت أمّي إنّه يرى في الرضيع مخلوقا مخيفًا ومثيرًا للغثيان! يبدأ بحبّ الأطفال

حين يبدأون الكلام، ومحاولة الوقوف، أي يرفض الاقتراب منهم حتى يقتربوا هم منه. جزَمت أمّي أنّ زيد الصغير سيعوّضه عن خسارة زيد الكبير. هذه الرسالة إذن هي رسالة الأخبار السعيدة. آخر خبرٍ أزفّه لك هو خبر نجاحي، فقد انتقلتُ إلى السنة الرابعة رغم كلّ ما مررتُ به من مرضٍ وخيباتٍ، ها أنا أحقق أحلامي شيئًا فشيئًا.. وأن تتحقّقَ الأحلام ببطء أفضل من ألّا تتحقّق أبدًا. أنا سعيدة جدّا، وحين تزورني سعادة عظيمة أخاف من تعاستهٍ أعظم تنتظرني! هنا، أينَ أعيش، يتوجّسُ الناسُ الفرح، يستمتعونَ بهِ في حذر، وعيونهم على يوم الغد.

(٥٤)

المكالمة الهاتفيّة الثانية

لو قدّر لشعبٍ من شعوبِ العالم أن يموتَ من الحزن.. كان ذلك الشعبُ ليكونَ نحن، لذا بوسعي الجزم أنّهُ في بلادنا ليسَ الحزنُ ما قد يقتلنا، فقد تعوّدنا عليهِ حتى أصبحَ فردًا من كلّ عائلة، روتينًا نفتقدهُ إن لم نعش ذلك النكد لساعةٍ أو ساعتين، الطّبيعيّ هنا أن تكونَ متجهّمًا تبحثُ عن أسبابٍ سخيفةٍ للشجار، علك تنفسُ عن غضبكَ المكبوت. الفرحُ المبالغُ فيهِ مفزعٌ بعض الشيء، كّيفَ لامرأةٍ ألِفت الحرب وتصالحَت مع الموتِ والسواد، ألا يعميها النورُ الساطع؟ من يألفُ الظلام يتعسّرُ عليهِ رؤيةَ الضوءِ بعينين مفتوحتين وجريئتين.. حينَ سمعتُ صوتكَ تألمتُ في صدري. كانت المكالمة الثانية بعدَ كلّ هذا الغيابِ.

غالبا.. لا أرد على أرقام لا أعرفها، كنت منشغلة بإعداد العشاء، وفي ذلكَ المساء، كنتُ لأتوقّعَ أن يقصفَ صاروخٌ بيتنا على اتّصالك. رن هاتفِي أكثر من مرّة، وضغطتُ على الزرّ الأحمر أكثر من مرّة، قبلَ أن أردّ. كان المتّصلُ لحوحًا، فاستسلمت ورفعتُ الهاتفَ إلى أذني.. وكنتَ أنتْ. شهقت: «فارس؟» أجبتَ أنتْ بصوتٍ أجشّ: «يا روح فارس أنتِ!» كنتُ بحاجةٍ إلى دقيقتين أستعيدُ فيها توازني، والصمتُ خطيئةٌ في حقّ أسيرٍ ليسَ من السهلِ عليهِ الحصولُ على هاتفٍ مهرّبٍ لإجراءِ مكالمةٍ عاطفيّةٍ، أخبرتكَ باكية: اشتقتلك كتير! أمّا أنتَ تمهّلتَ حتى أتماسكَ، لتباغتني بفرحةٍ اكتشفتُها بنفسي:

سمعتُ صوتَ بارودٍ وزغاريد، أناسٌ يهتفون ويغنّون، ضجّةٌ لا يحدثها سوى فلسطينيّين! وقبلَ أن أسألكَ قلتَ بصوتٍ سعيدٍ: «أنا طلعت من الحبس يا عمري، أنا بحارتنا بالخليل». بكل عفويّةٍ، أطلقتُ زغرودةً من حنجرتي حتى انقطعَ نفَسي، دخلت أمّي المطبخ، فأخبرتها وعانقتُها. لم تصدّق.. ظنّت أحدهم يدبّرُ لي مقلبًا سخيفًا، خطفت الهاتفَ من يدي وحدّثتك، هنّأتك، وخاطبتك لأوّل مرّةٍ بابني.

قدّمتُ لهم العشاءَ على عجلٍ، وتفرّغتُ للاستعدادِ للقائك. استبدلتُ فستاني الذي كنتُ أرتديهِ في المطبخ بالفستانِ الذي رأيتني بهِ، أسدلتُ شعري على كتفيّ حتى إنّني تعطّرت كأنّكَ ستتمكّنُ من شمّ رائحتي عبر الشّاشة! انتصفَ الليل، وجلستُ أنتظرُ دخولكَ السكايب، أدعو ألا تنقطعَ الكهرباءُ حتى أشحنَ حاسوبي بما يكفي لسهرتنا، ولا أحرم من رؤيتك بعد أربع سنواتٍ من الغياب، تأخّرتَ كثيرًا، لكنّكَ أتيتَ.. أحبّكَ لأنّكَ لا تخذلني، تأتي دائمًا حتى وأنتَ تصلُ متأخرًا. في الساعةِ الثالثةِ صباحًا، فتحتَ حسابك، تغيّر لونكَ الرماديّ أخيرًا إلى أخضر، ودونَ أن ترسلَ لي أيّة كلمةٍ مكتوبةٍ طلبتَ مكالمةً صوتيّة. في البدايةِ، الشبكة الضعيفة لم تسمح لي برؤيتكَ بوضوح، لكنْ شيئًا فشيئًا، اتّضحت الصورة لأراكَ تبسمُ لي، لم أتمالك نفسي، فسالت من عينيّ دموعٌ لوّنها الكحل، توقّعتُ أن تهدّئني، لكنّك لم تكن أقلّ منّي انفعالًا وشاركتني دموعَ الفرح!

وصلني صوتكَ نقيًا، أوّلُ كلمةٍ لفظتَها كانت (بحبّك!) ثم أدنيتَ رأسكَ إلى الشاشةِ تتفحّصني بعينيكَ صامتًا، لمَعت

فيهما دهشةٌ شهيّة: «احلوّيْتي من ورايا يا بنت!» أوقدتَ سيجارةً فطلبتُ منكَ إطفاءها، لأنّ الدخانَ يحجبُ عنّي وجهك، أطفأتها دونَ كثيرٍ من الرجاء، بدوتَ أنحفَ من السابق، لكنّكَ جميلٌ كما عهدتكَ دومًا، أخبرتني أنّكَ تحضّر لي مفاجأة، خلعتَ قميصكَ، فأشحتُ بنظري أقول: «طوّل بالك أنتَ إيش عم بتساوي؟ أنا صحيح مشتاقتلك بس مش هالقد!» قهقهتَ دونَ اكتراثٍ لكلامي، سخرتَ منّي: «الذي يقرأ رسائلكِ لا يصدّق أنّكِ المرأة نفسها!» قرّبتَ الكاميرا إلى صدركَ لأتفاجأ بوشمٍ على الجهةِ اليسرى القريبةِ من القلب، قرأتُ اسمي باللغةِ المحايدة: «سلمى». فتحتُ فمي غير مصدّقة، وشمتَ اسمي على صدرك ولم تكترثّ لقدرٍ قد يفرّقنا، ولا حسبتَ حساب ارتباطكَ بامرأةٍ غيري، علقتَ على كلامي: «إن لم أحظ بكِ أنتِ يا سلمى لا أريدُ أن أحظى بامرأةٍ أخرى، كنت عاجزا عن شراء هدية تليق بك، لم أجد غير هذا الوشم يعبّرُ عمّا أرغبُ بقولهِ».

لم نشعرْ بالوقتِ حتى داهمَنا الضوءُ من النوافذ، تحدّثنا عن كلّ شيء، كلّ ما لم نتمكّن من كتابتهِ! تلك المشاعر التي ظلت عالقة وعجزت الأصابع عن نسخِها على الورق، كدنا ندخل في حالةِ حزنٍ ونحن منغمسان في الحديثِ عن الأسر، لكنّكَ غيّرتَ الموضوع: «الأيّام قادمة، وسيكون لنا كلّ الوقتِ لنتحدّث عن كلّ شيء» تغزّلتَ بي كما لم تتغزّل يومًا، كلّ شيء فيك كان ينطق أنّك تحبّني وأكثر من أيّ وقت. أحسستُ بتعبك وبحاجة جسدك إلى النوم، لكنْ لم يكن سهلًا عليّ ترككَ وقد استعدتكَ أخيرًا، كنتُ خائفةً أن أغلق حاسوبي

لأكتشف أنّ كلّ ما عشتُه كان حلمًا.

«ها أنا أكتب لكَ على الورقِ مجدّدًا لسببين، الأوّل هو أنّي أدمنتُ الكتابة لكَ، والثاني عهدٌ قطعتهُ على نفسي بأنّكَ حتى لو غادرتَ السجن سأستمرّ بمراسلتك.. آخر رسالةٍ ستكونُ تلك التي أضعها في يدكَ حين نلتقي».

(٥٥)

ألم أقل لكَ في رسالةٍ سابقةٍ إنّني أرتعبُ إن زارتني سعادةٌ عظيمة من تعاستهِ أعظم تنتظرني؟ أفسدَت الحربُ طعمَ استمتاعي بكلّ شيء، أشخاصٌ نعرفهم يسقطون أمامنا، عائلاتٌ بأسرها ترحلُ عن الحياةِ، هكذا يختفون دفعةً واحدةً، أعلم... هو قدرنا حمل هذا الجرح النازف، لكنْ ألا تعتقدُ أنّه من حقنا أيضًا أن نعيشَ كما يعيشُ الناسُ في أوطانهم، لكنْ قل ليّ عن أيّ وطنٍ أتحدّث؟ هذا الوطنُ الذي نعرفُ عنه كلّ شيءٍ إلا هو، نعيش على رقعة ضيّقة من أرضه، لكنّنا لن نشعر أنّه لنا إلا إذا امتلكناه. عندما يحدثونني عن الوطن، أتخيّلُ الموقف كالتالي.. كما لو فتحتُ عينيّ على الحياةِ يتيمةً! لي أبٌ لم أرَه بأمّ عيني، فكيفَ تتعرّفُ على الغائب من خلال أفّواهِ الآخرين؟ لا أعرف من فلسطين سوى قطاع غزّة! الباقي كله ملقّن، أنا بحاجةٍ لاكتشّافِ وطني بنفسي، أتلمّس وجهه شبرًا شبرًا، ولا أرغب بأن يحدثني عنه أحد بعد اليوم.

يحدث كلّ يوم... نقذفهم بمائة صاروخ، تتهشّم نوافذ وأبوابٌ وأعمدةُ إنارةٍ. يحلقون في سمائنا، فيهدمون البيوت فوق رؤوسنا ويخسرون الحجر والحديد ونخسر الدم والأطفال! فعن أيّةِ مقاومةٍ تتحدّث؟ تلكَ الليلة.. كنّا نتحدّثُ عبر السكايب حين بدأت الإذاعة تبثّ أناشيد حماسيّة، بعدها بقليل، سمعتُ صوتَ تحليق الزنانة فوق بيتنا، كنتُ مشغولة بتدخين سيجارتي ونفخ دخانها، تعوّدنا على رتابة القصف ورائحة الموت، دائمًا في لحظةٍ كتلك تتساوى عندي كلّ من

الحياة واللاحياة، يتوقّف عقلي تلقائيًا عن التخطيط للمستقبل. أنا لن أموت، هذا ما قلتُه لنفسي. لن أموت، لأنّي لم أكن على قيدِ الحياة أصلًا، يولد حيًا من يولدُ حرًا، وأنا - هذه الحرّيّة لم يحدث أن قابلتُها ولو عن طريق المصادفة.

أحاولُ ألّا أفكّر بالموت! لا أفتحُ نوافذ البيتِ كي أتجنّبَ رؤية الخراب حولي، لا أهتمّ بمتابعةِ الأخبار المحليّةِ كما يفعلُ والدايْ ليعرفا من رحل ومن ما زال باقيًا. أحيانًا، أحدّثك على الهاتف أو أشاهدُ فيلمًا على التلفزيون عندما لا تخذلني الكهرباء، تخيّل امرأةً باردةَ القلبِ مثلي! الناس يموتون حولها، أمّا هي، فتغلق على نفسها بابَ غرفتها لتشاهدَ فيلمًا خفيفًا فيه زخّات من الحبّ والضحك، هل أشعر بالذنبِ؟ ولا حتى نادمة. إنّني أصدق الكذبة، أتماهى مع الأحداث لأتناسى حقيقة أنّني موجودة. أحيانًا أضيء شمعة لأقرأ كتابًا، كامرأة صمّاء لا تسمع صوتَ القصف، كامرأة بلهاء لا تطرح أسئلة وجودية في أوقات حرجة كهذه، كامرأةٍ بكماء لا أسأل عن أحدٍ كي لا يزفّوا إليها خبر استشهاده.. حينَ يتوقفُ القصف، أنامُ قليلًا نومًا خفيفا وقلِقًا، هل تعتقدُ أنني بفعل كلّ هذا أجيدُ الهروب؟ بل أقنع نفسي بذلك، لأنّ الحربَ عندما تندلعُ داخلك، كيف تخمِدها؟!

تعلّمتُ بضعةَ دروسٍ من الحرب، من بينها أنّه ليس المؤلمُ في كلّ ما يحدث فيها رحيلكَ أنتْ، بل مشاهدة أحبّائكَ يرحلون.. الوجع هنا يكمنُ في بقائكَ وليس في الرحيل، أنا في هذه اللحظةِ مثلًا لا أستعيد سوى ذكرى زيد، أتذكّر رحيله بتفاصيله المؤلمة، وبعدَ اختباري معنى خسارةِ عزيزٍ أحبّه، لم

أعّد أكترث سوى للذين أحبّهم. لعلي أكذبُ في هذا قليلًا.. لعلي أيضًا أشتهي الحياة ولا أرغبُ بالرحيلِ الآن! أمّا إذا كان الموتُ ما يجبُ أن يحدث، أتمنّى حدوثه بسرعةٍ أثناءَ نومي، ألّا يمهلني وقتًا كافيًا يفزعني فيه دويّ الصاروخ، أو أرى أثناءه أعضائي تتمزّقُ أمامي، لستُ أطّلبُ الوفاة بجسدي قطعةً واحدة.. ما أقصده ألّا أرى ولا أتألم، أنتقلُ من حالةِ الحياةِ إلى الحالةِ الأخرى في ثانيةٍ، أغمض عينيّ إلى الأبد وينتهي كلّ شيء.. يا لها من رسالةٍ سوداويّةٍ، لقد نبشتَ الجرح. تحمّل رؤية الدم.

(٥٦)

استشهدَ زيد للمرّةِ الثانية!! قصفوا بيتَ شقيقتي، وابنها زيد كانَ نائمًا في غرفةٍ أخرى، وضعته فيها هديل خوفًا عليهِ من الزكامِ ونزلاتِ البرد، لن تسامحَ نفسها لأنّها تركته ينامُ بعيدًا عنها، قالت كان علينا أن ننام كلنا في غرفةٍ واحدةٍ: إمّا ننجو معًا أو نموت معًا. وفي ظرفٍ كهذا، ثمّة دائمًا كلامٌ لا يقال للآخرين، فأنا مثلًا حزنتُ من قلبي على رحيل الصغير، ولكن كنتُ لأموتَ حزنًا لو أنّها أختي من استشهدَت، هل أمتلكُ الشجاعة للنظرِ في عينيها وقول هذا؟ لا يمكنني أن أقول، ولا يمكنها أن تفهم!

زيد الصغير كان دائمَ الضحك، وإن بكى لا يطيلُ البكاء، في غضونِ أربعةِ أشهر تغيّر كثيرًا من رضيعٍ ضئيلٍ إلى طفلٍ جميل، ازدادَ وزنه وطال شعرُه حتى غطّى أذنيه، أصبحَ يشبهُ خالهُ الوسيم الذي أصرّ على اصطحابه في رحلتهِ الأخيرة إلى السماء، هنالك قد يعثران على مدينة هادئة وبيت آمن! لن يشعرا بالوحشة ولن يقابلا الحزن، فقد اختبرا كلّ المرارةِ هنا. كثيرًا ما أفكّر بأنّه إذا كانت الحياة شديدة التعقيد بهذا الشكل، إذا كانت الأرضُ تعرفُ كلّ هذهِ الحرّوب وهذا الخراب، قل لي بالِله عليك كيفَ سيكونُ الجحيم؟ تألمنا جميعًا لرحيلهِ المُبكر، لكنْ هل سأكونُ قاسيةً إن اعترفتُ بما يدور في ذهني: «ربّما كانَ هذا أفضل ما حدث له، ماتَ قبل أن يفهم، قبلَ أن يقرأ التاريخ! وقبل أن يخّسر ضحكته الجميلة، لتلاحقهُ الحياة بهراوة وتلقنه الدروسَ كلها دفعةً

واحدةً».

أقرّت هديل بندمِها على تسميةِ طفلها تيمّنًا بزيد، قالت: «لم يكن فألًا جيّدًا، ما كان ينبغي أن أهبَ ابني اسم رجل ميّت!» بالنسبةِ لي، تفهّمتُ الحالةَ النفسيّة المجنونة التي تعيشها، لكنْ ما قالته كان جارحًا لأمّي على وجهِ الخصوص، أمّي لم تتمكّن من كبتِ انفعالها: «أنتِ لم تمنحِه اسمَ ميّت بل اسم شهيد! ولم يطلب منكِ أحدٌ أن تسمّيه زيد»؛ أضاف والدي: «لا علاقة لاسمهِ بتاريخ موته، نحنُ المسلمين نؤمنُ بأنّ حياة الإنسان مسيّرة وتواريخ الرحيل محدّدة ونحن أجنّة في أرحام أمّهاتنا، لذلك سواء كان اسمه زيدًا أو ليثًا كان ليموتَ في ذلك التاريخ والساعة والدقيقة»؛ أمّا أنا، لم أجد أن أقول سوى «ما زلتِ شابّة وبإمكانك إنجاب عشرة أطفال إن شئتِ». رمقتني بنظراتٍ حادّة وردّت بقسوةٍ: «أنتِ لا تفهمين معنى أن تكوني أمًا». قلتُ لها بمرارة «صحيح أنا لم أنجب بعد وقد لا أنجبُ أبدًا، لكني أعرف معنى أن يموت شخص نحبّه!»

تدخلت أمي مجددا، وقد انهارت أعصابها: «أنت أم، لكنك لم تشاهديه يخطو خطواته الأولى! لم يعد من المدرسة ليردّدَ أمامكِ الأبجديّة من الألفِ إلى الياء، لم يرفع لوحته بعد أن كتبَ عليها اسمكِ، لم يكبرُ أمامكِ يومًا بعد يوم لتلاحظي أن هذه القطعة منكِ أصبحت تفوقكِ طولًا تنحني لتقبّل جبينكِ.. كان زيد يعودُ كلّ مساء، ويطلبُ منّي أن أعدّ لهُ القهوةَ التي يحبّها، وكان يقولُ لي أشربُ القهوة في كلّ مكان ولا قهوة تتفوّقُ على القهوة التي تعدّينها يمّا.. كنتُ كلما قابلتُ صبيّةً جميلةً أقول في نفسي هذهِ عروس زيد، وأخبرهُ عن اسمها

وعمرها وأصفها له، فيضحك ولا يهتمّ. لم تختبري يا هديل سوى آلام الولادة وبضعة أشهر من الرضاعة ومسحِ الخراء، فلا تعايري أختكِ بنصيبٍ لم يتمّ». كلّ منهما جرّحت الأخرى، هديل لم تقل كلمة بعدَ أمّي، استسلمَت للنحيب، ربّما لأنّها تمنّت لو عاشت كلّ هذا مع ابنِها.

تّوقّفَتّ هديل عن الحديثِ عن ابنها منذ ذلكَ الحوار، لكنّها ظلت تتألمُ في صمت، تتناول الأكل على مضض، لا تشاركنا الحديث، لا تهتمّ بنفسها، فقدت الكثير من الوزن وشحب وجهها.. حاولنا كثيرًا إخراجها من تلك الحالة، لكنّها أعند من أن تصغي، تعتقد أن لا أحد منّا يستوعب حزنها. يقولونَ هذه الحرب لن تستمرّ كحرب نهاية ٢٠٠٨، أسمع من محللين سياسيين أنّ الأطراف سيتوصّلون إلى هدنة قريبًا بشروطٍ مقنعة، لا أحدَ سواهم يعلم!

(٥٧)

هذا القلب داخلي ينبض.. حواسّي ليست عاطلة، أنا أرى وأسمع وأشمّ! وجسدي أيضًا يتحرّك، كلّ شيء فيّ يوحي إلى أنّني حيّة، فلماذا لا أشعر بأنّي كذلك؟ أستيقظ من سباتي صباحًا كعجوز فقدت نصف ذاكرتها، إنّه لشقاءٌ أن تفقدَ نصفَ ذاكرتك، فالذاكرة من الأشياء التي إمّا أن تحتفظ بها كلّها أو تخسرها كلّها، أغسلُ وجهي بالماءِ البارد، آكل من مائدة الإفطار أيّ شيء يسدّ الجوع، طعمُ الأكل تشابه في فمي، لا فرق بين مرارة شاي أو مرارة قهوة، ولا بين حموضة حبّة زيتون أو كرز! كي أرتدي ملابسي لا أنتقي، ما هو الحدث المهمّ إن ارتديتُ الفستان الأحمر بدلًا من الأخضر، ما دمتُ في كلّ الحالاتِ لن أحتفل بلقاءِ حبيبٍ أو وطن؟

قضيتُ نصف عمري في النوم، لذلك إن رغبتُ بحساب عمري رياضيًا كما حسبهُ صديقُ غسّان، سأجدني لم أعش سوى ثلاث عشرة سنة! أي بالتقويم الإلهي، لم أعش سوى بضع ثوانٍ.. أشعر أنّني كائن تواجد على هذا الكوكب عن طريق الخطأ أوّ المصادفة، مجبرٌ على التأقلم مع ما وجده، لأنّه لا يملك حلا آخر. بعيدًا عن متاهتي، أنت تعلم أن الحربَ توقفت بعد هدنة جديدةٍ، يمنحوننا كلّ مرّة فاصلًا قصيرًا للحياة، لنستأنف لعبة الموت من جديد..

لا أرى قطاع غزّة سوى لوح شطرنج، لا أرانا سوى بيادق في المقدمة، دائمًا يضحّي بنا الصفّ الأماميّ كي تستمرّ اللعبة! نحنُ لا نعني للكبار شيئًا، لذلك نخسرُ أوّلا. ما يعجبني في

أسلوب الخصم أنّه حريصٌ على كلّ بيدق، يهمّه أن تكونَ الخسارات أخفّ كلّ جولة. لو يتعلمُ كبارنا من كبارهم فقط هذا الحرص، ربّما كانت اللعبة لتأخذ منحى آخر. غزّة جميلة وليس فيها شيء جميل! امرأة واقفة بفتنتها وحشمتهُا، لكنّها معطوبة في كلّ طرف، مختنقة بغصّاتها، من يراها يخالها بلا وجع! لكنّها محاصرة بالألم من كلّ صوب، مسكونة بالجروح على أعمارها، جروح بعمر الأجداد وجروح بعمر الأحفاد. لكلّ جرح تاريخ في غزّة، فعن أيّ الجروح أحدّثك؟ الناس الذين يعرفونها يحسدونها على نعمة الوقوف، لا أحد منهم يعلم كم هو مرهق الوقوفُ لوقتٍ طويلٍ، حتى المدن تهّترئ إن أدمنت الحروب.. ستقولُ لي كلّ هذا الاكتئاب هو ما خلفته الحرب من آثار، ستتعافين شيئًا فشيئًا، لا يعقلُ أن تستأنفي حياتكِ بين ليلة وضحاها! ستقول امنحي نفسكِ بعضًا من الوقت، وسأجيب أيّ وقتٍ أملكه لأمنحنَي إيّاه وأيّةُ حياة سأستأنفها؟ أنا مثل مدينتي متعبة.

سأعتزل الكتابة.. المُخْلِصونَ للحياةِ لا يكتبون

(٥٨)

يبدو أنّنا لن نلتقي أبدًا! في (الحقيقةِ)، لستَ بعيدًا جدًا، في (الواقع)، أنتَ أبعدُ بكثيرٍ. إنّ المسافةَ التي تفصلنا عن بعضنا بعضًا على الأرض لا تقدّرُ بغير عشراتِ الكيلومترات، في وطنٍ حُرّ لن يلزمَ شابّ من الخليل سوى ساعة ونصف الساعة من الزمنِ ليصلَ إلى خان يونس ويلاقي حبيبتَه! نملكُ كلّ الزمن، لسنا نمتلكُ شيئًا عداه، لكنْ ما الذي يمكننا فعلهُ بالزمنِ وحدهُ قبلَ نفادهِ منّا؟ ألا تخشى مثلي أن ينتهي كلّ شيءٍ ولم يبدأ بعد؟ بسببِ هذا الحصارِ، يخيّلُ إليّ أنّك تعيشُ على قارّةٍ بعيدةٍ لا أحلمُ بزيارتها، لأنّ الحلمَ نفسه سيهزأ بي، إنّني أحدّثكَ في هذا المكتوبِ عن الزمنِ والمسافات والهوّة الفادحة بينَ الحقيقةِ والواقع!

لم تصارحني بعد بقرارِ ترككّ يا فارس، لكنْ كلّ شيءٍ في حديثكَ وتصرّفاتكَ يوحي إلى أن اليومَ الذي ستتركني فيهِ آتٍ!

وقد غدا قريبا جدا، أشم رائحته، أحس به يزحف نحوي وأنا امرّأةٌ لا تخونُها حواسّها.. يحدثُ أن تقولَ لي أحبّكِ، والمحزنُ أن سماعَ هذهِ الكلمة منكْ لم يعد كافيًا، تعلمُ جيّدًا أنّني أحبّكَ مثلما تحبّني وأكثر، لكنْ ماذا بعد؟ هل سنمضي ما تبقّى لنا من عمرٍ في كتابتها وقولها؟ أرهقتني كتابتها أيّها العزيز! هذهِ الأصابعُ التي ورّمتها الأقلامُ ولطّخها الحبر بحاجةٍ إلى استعادةِ ألقها بينما تلامسُ أصابعكَ، تتحسّسُ جسدك، تغسلُ قمصانك، تطهو لكَ الأكل الذي تحبّ.. هذا القلبُ الذي أنهكهُ الاشتياقُ على وشكِ التحوّل إلى ثمرةٍ ذابلةٍ ينخرها دودُ

اليأس من الداخلِ، ألا تعتقدُ مثلي أنّنا بحاجةٍ ماسّةٍ إلى ذلكَ اللقاءِ المستحيل؟

أنتَ لا تدري كم يؤلمني تجاهلكَ كلّما خضنا هذا الموضوع! تهربُ من الحديثِ فيه، كما لو كنتَ تبعدُ ذبابةً عنيدةً تحومُ حولَ وجهك بذلكَ النزقِ والانزعاج! كأنّ الغدَ لا يعنيكَ، وحدي المعنيّةُ بهذا المستقبلِ الغامض، كما لو كنتَ رجلًا وهميًا أنجبتهُ مخيّلتِي! كلّا أنتَ حقيقيّ وموجودٌ في هذا العالمِ بالفعل، وبما أنّنا نتقاسمُ هذا الألم، علينا التفكير بجدّيّة لنقرّر ما الذي علينا فعلهُ. أشاهدكَ تعيشُ حياتكَ بواقعيّةٍ مقنعة وهدوءٍ مدهش، إن كنتُ أحسدكَ على شيء فهو هذا البرود الذي تتحلى بهِ، أريدكَ فقط أن تقولَ لي، أما عدتُ جزءًا من حياتك؟ تلك القطعة الحسّاسة والهشّة من قلبك التي تخشى عليها من العطبّ؟ ستجيبني: أنتِ حياتي كلها يا سلُمى، وسأردّ: لم أعد أشعرُ بأني كذلك، أنا امرأةٌ من ورقٍ تحترق بنارِ المستحيل، كلّ ما عاشتهُ من أيّامٍ، كلّ ما نسجته من أحلامٍ، سيتحوّلُ إلى رمادٍ يتطايرُ بنفخة واحدة من فمك!

تأمّل ما آلت إليهِ علاقتنا، كلّ ذلكَ الحبّ العظيم أراهُ يتضاءلُ يومًا بعد يوم، وأنتَ في السجنِ، كنتَ أقرب إليّ من دمعةٍ تنسكبُ من عيني.. ربّما هناك لم تكن تمتلكُ سواي، الآن وأنتَ حرّ، منشغلٌ بحياتكَ وعملك ورفاقك وصديقاتكَ الفاتنات، أنتَ تشفقُ على امرأةٍ انتظرتكَ كلّ هذا الوقت، فتتصدّقُ عليها بساعةٍ أو اثنتين قبلَ أن تنام، لا أريدُ منكَ شفقةً ولا صدقة، إمّا أن تكونَ حبيبي أو لا تكون، إنّكَ تطردني من حياتك بلباقةٍ جارحة! لستُ غبيّةً كي لا ألاحظ أنّ عدد

مكالماتك قلّ من عشرة إلى واحدة يوميّا! وعبر الإنترنيت يحدث أن تنتهي السهرة بعدَ دقائق من بدايتها، تقولُ تودّ لو سهرتَ بصحبتي، لكنّه جسدك مرهق وبحاجةٍ إلى النوم، أكتمُ غصّاتي وأمنحكَ ابتسامةً زائفة، أكابرُ فقط كي لا أحرجَ نفسي. وفي العتمة.. أبكي حتى يتبلل قماش الوسادة. لا أحبّ أن أكونَ عشيقةً يفرضها عليكَ الماضي، لا تروقني رؤيتكَ تفي بعهدٍ ما عدتَ تؤمنُ به.. افتح عينيكَ جيّدًا إذن لتقرأ ما سأقوله:

«قلبك بوصْلتكَ، تلكَ البوصلة، إذا كانت لا ترشدكَ إليّ، لا تعاند.. فقط قلها، ما عدتُ أحبّك، وارحل! سأكون بشجاعتك وأتحمّل اعترافكَ، لن أناقشك في مشاعرك، فالمشاعر لا تناقَش. أعدكَ أنّني لن أبكي ولن أثّرثر، سأغلق تلك الكاميرا إلى الأبد، وأغيّر رقم هاتفي، وأتوقف عن الذهاب إلى مكتب البريد لمراسلتك.. ببساطة سأختفي من حياتك كما يختفي الموتى».

هل ما زلت تحبني؟ سؤال أطرحه على نفسي كل دقيقة، وأجيب بربّما. لكنْ، بإمكاني الجزم ليس كما كنتَ تحبّني أمس، الحّبّ يتسرّبُ من قلبك المثقوب كلّ يوم قليلًا، يومًا ما سأكتشف أن قلبك أصبح فارغا منّي، جاهزًا لاستقبال أخرى، ما أثقل الكلمة الأخيرة على لساني! كلّما تصوّرتُك تستأنفُ الحياة مع أخرى، يبدأ رأسي في الغليان، كما لو أنّ شعري يبدأ في الاحتراق وفروتي بالذوبان على جمجمتي. أغارُ عليكَ من امرأةٍ لم تدخل حياتكَ بعد! أغارُ عليك من كلّ النساء اللاتي التقينك أو قد يلتقين، فالحبّ الذي يتضاءل في قلبكَ، يتدفّق

من قلبي بعنفٍ مثل شلّال!

(٥٩)

ما الذي فعلتَهُ أيّها الغبيّ؟ أيّ الرجالِ أنت؟ لا أصدّقُ أنّكَ الرجلُ الذي أحببت! كلّا لستَ البطل الذي استحقّ عناءَ انتظاري، كانَ ممكنًا أن تنهي قصّتنا بشجاعةٍ عهدتها فيكَ، برصاصةٍ واحدةٍ تطلقها على رأسِ الحبّ. قلتُ لك كن رجلًا وانظر إلى عينيّ، وقلها. كنتُ لأرحلَ كما وعدتك، لأنّ حبًا عظيمًا يستحقّ نهايةً عظيمة، وإن تمثّلت في دفنهِ! حبّ عظيمٌ يستحقّ وداعًا جميلًا، جنازةً لا يمشي فيها سوى العشيقين، تستحقّ حدادًا صامتًا بلا ثرثراتٍ تفسدُ قداسةَ الحزن، لكنّكَ أفسدتَ كلّ شيءٍ.. كنتَ جبانًا، أكثر جبنًا من فأرٍ ضئيل لا يجيدُ سوى الهروب إلى جحرهِ المظلم، اخترتَ لنا خاتمةً سخيفة، لا تليقُ لا برجلٍ مثلك ولا بامرأةٍ مثلي.

كنتَ تستمرّ بروتينِ تجاهلك حتى وصلتك رسالتي الأخيرة، يبدو أنّكَ مللتَ تذمّري وحديثي عن لقاءٍ لن يحدث، عندما قطعتَ بسكين الغياب حبال التواصل، ابتلعت الشبكة خط هاتفك، كلما اتّصلتُ بكَ تخبرني تلكَ المرأةُ بتبجّح أنّ هاتفك مغلقٌ أو خارجٌ نطاق التغطية، أكرهُ صوتَها أكثر من أيّ صوتٍ آخر، تبلغني بأن هاتفكَ مغلقٌ بسعادةٍ مستفزّة، كأنها تشمتُ بي وتسخرُ من إلحاحي. حتى والدتي وقفت في صفّكَ، وقالت: «بكفّي.. أنتِ غبيّة؟ بتفهميش؟ الله يعينه ويعينّا على راسِك اليابس، والله حرام عليك يا بنتي! ليش بتحمّلي الزلمة ذنب الحصار والاحتلال؟» صديقي خليل كتبَ لي: «ما زلتِ تنتظرينَ من هذا الرجلِ معجزةً! أسبابُ تركهِ واضحة كالشمس،

ليست مشكلته إن كنتِ لا ترين يا سلمى».

تحوّلتُ إلى امرأةٍ لا تطاق، تّشاجرُ كلّ من يطيلُ التحديقَ بها، أو يتفوّهَ بكلمةٍ ليست في محلها.. أنا أفقدُ صوابي بسببكَ أيّها المعتوه، مرّ أسبوعانِ كاملان وما زلتَ غائبًا، كلّ محاولاتي للاتّصالِ بكَ باءت بالفشل، أنتظرُ ظهوركَ الأخضر على السكايب، لكنّكَ ما زلتَ مختفيًا. أضعُ يدي على خدّي وأحدّق إلى جدرانكَ الافتراضيّة علك تكتبُ سطرًا، تنشرُ صورةً جديدةً، تشاركُ خبرًا أو أغنية أو أيّ شيء، لكنّكَ غائبٌ عن كلّ الأمكنة...

احتمالُ أسْركَ مجدّدًا لم يخطر ببالي، لماذا قد يتزامنُ اعتقالك مع وصولِ رسالتي تحديدًا؟ لكنْ، رغمًا عن أنفِ المنطق، ثمّة خوفٌ ساورني، وتساءلت ماذا لو أن مكروهًا أصابكَ؟ وكلّ هذه الظنون كانت باطلة، اتّصلتُ بوالدتكَ اللئيمة، ويا ليتني ما اتصلت. نعم، أمك لئيمة وبلا قلب يا فارس، كم كانت مذلة تلك المكالمة الهاتفيّة، حدّثتني بجفاءٍ.. حتى أمّك تغيّرت! سألتُها عن حالها أوّلا، أجابتني بـ «الحمدُ لله»، ثم سكتت لتضيفَ بتكلف: «وأنتِ؟» قلتُ لها بخير، وكي أنقذ نفسي من ورطةِ الإحراج، سارعتُ بالسؤالِ عنك، أضافت بالبرود ذاته: «فارس بخير تقلقيش عليه! بس بعرفش إيمتى بيرجع، انتبهي لحالك يا حلوة.. طيّب؟». أنهَت الاتّصال كما لو كنتُ أحدّثها منذ ساعة، وأنا التي لم آخذ من وقتها أكثر من دقيقتين، شعرتُ بنفسي مزعِجة، امرأة غير مرغوبٍ فيها، لا شكّ أنّك أوصيتَها كي تعاملني هكذا، وهي نفّذت وصيّتكَ بحذافيرِها.

ما زلتَ حيّا. هذا كلّ ما استنتَجتُه من كلام والدتك! ليتكَ فارقتَ الحّياة لتحافظ على بريقكَ فيَ عينيّ بدلا من هذه الخيبةِ المُرّة. إن هذا القلبَ الذي لا كرامة له، الذي يتحمّلُ الإذلال فقط لأنّه يحبّك، من الأفضلِ له أن يحترقَ في الجحيم أو يرمى لحيوانٍ جائع يلتهمهُ في ثانيةٍ واحدةٍ! حسبتُ أنّ أقلّ ما أستحقّه منكم هو احِترام، لكنْ حتى الأخير لم تقدّموه لي. آه، أيّها الجاحد، أفسدتَ فرحة تخرّجي، كلّ أهلي سعداء بي إلّا أنا، هذه الفرحة لا تعني لي شيئًا، مجرّدُ إنجازٍ آخر استحققتُه بعد اجتهادٍ دام أربع سنوات، لا أعتقد أنّ ثمّة طالبة متخرّجة تفوقني تعاسةً..

أقول لكَ الكلام الأخير.. رغم كآبتي، أفكّر بكلّ الحماقاتِ إلا الانتحار، ليس لأني وعدتكَ ذات رسالة ألا أفكر بخيارٍ كهذا، بل لأنك رجل لا تستحق أن تموت من أجله امرأة مثلي، لن أشبعَ غرورَكَ وأمنحكَ فرصةَ عرض صوري على أصدقائكَ، قائلًا: هذهِ امرأةٌ قتلت نفّسها من أجلي، كلّا ليس عادلا أن أموت لتواصلَ حياتكَ، كأن شيئًا لم يحدث، ولا تقديم جسدي للديدان بينما تقدّم جسدك لامرأة غيري. سأكون قويّة.. أنتَ جرحٌ حديث في الذاكرة، اليومَ ينزف، غدًا يلتئم، وبعد غدٍ أقشره ليتلاشى أثره بالنسيان.

أكرهك!

(٦٠)

في أعماقِ أعماقنا، ثمّة صوتٌ يهمسُ في دواخلنا دائمًا بالحقيقةِ إلّا أنّنا لا نصغي إليهِ إلّا نادرًا، ثمّة كائنٌ صغير يشبهُ جنينًا أعمى لا يرى سوى ببصيرتِه، أصمّ لا يسمعُ إلّا صوتَ الحقّ، ولا يستيقظُ إلّا في الأحداثِ الكبيرة ليقول ما عليهِ قوله ثم يعود إلى نومِه. قد يوحي إليكَ بأنّك بنيتَ كلّ شيء على خطأ، وكلّ ما بنيتَه سينهدّ قريبًا على رأسكَ. لهذا، في غمرةِ فرح، سيراودكَ قلقٌ غريبٌ يتنبّأ بكارثةٍ قريبة، وقد يوحي إليكَ بأن تؤمنَ بما تؤمن بهِ حتى النهاية، قد يعلنُ عن ساعةِ الرحيل. لهذا كثيرًا ما نستغربُ كيف يوّدع بعضُ الناسِ العالمَ على طريقتِهم؟ يرتبون تفاصيلَ رحيلِهم بأنفسهم، وينجزونَ الأحلامَ على عجلٍ في آخرِ لحظاتِهم! إذن ما جعلني أؤمنُ بهذا الحُبّ هو ذلكَ الصوتُ الذي كان يؤكّدُ لي أن كلّ هذا العذاب ليس سوى ثمن سعادةٍ آتية. فالحياةُ لا تمنحُ الفرحَ مجّانًا؛ أمّا في هذهِ الساعة المبكّرة من الصباح، يبدو لي أن الرسالة التي أخطها الآن لا تبدو الأخيرة فحسب، بل آخر ما قد أكتبُهُ!

أعتقدُ أنّ الوجع أكثرُ ما قد يدفعنا للكتابة.. نحنُ أنانيّون في الفرحِ، نفضّلُ عيشَه على تخيّلِه أو الثرثرةِ عنه، وقد عشتُ حياةً بائسة كنتُ أرقعها بالورق وأخيطها برؤوس أقلّامي، كنتُ أهربُ من الحرب فأدفن رأسي بينَ طيّتيْ كتاب، وأرتبُ الخرابَ حولي بكتابةِ قصّةٍ قصيرة، أخترعُ فيها جزيرةً منسيّةً لا ترسو على شواطئها سفنٌ ولا تحطّ عليها طائرات ولا تراقبها أقمارٌ صناعيّة، مدينة لي ولمن يشبهوني وكلّ الذينَ أحبّهم،

لستُ أقولُ لن أعرفَ الحزنَ بعد اليوم، فالحياةُ كما يراها جبران أرجوحة بينَ دمعةٍ وابتسامة. نعم، سأختبرُ أكثر من وجعٍ. لكنْ لن يكونَ أقسى ممّا مررتُ به، قد أكتُب بعدَ اليومِ نصوُصًا بعددِ شعرِ رأسي، لكنّها لن تكونَ كهذه الرسائلِ، لأنّها أصدق ما كتبت! كنتَ الملهمَ الأوّل والوحيد، وستظلّ..

قبلَ ستّةِ أشهر..

كنتُ أعدّ القهوةَ لضيفٍ زارنَا، وقفتُ شاردةً أشاهدُ غليانَ القهوةِ في الركوة، سألتُ أبي كيفَ يحبّها ضيفكَ؟ أجابني بكلمتين قاطعتين ومضى: «واحد ونصف» تذكّرتكَ. كنتَ دقيقًا في تحديدِ السكّر في الملعقة، وعندما تشربُها تبتسمُ لي راضيًا: «هكذا أحبّها واحد ونصف!» عندما سمعتُ ردّ والدِي، تساءلت لماذا قال واحد بالنصفِ تحديدًا؟ لماذا لم يقل ببساطة يحبّها وسط؟ طردتُ الفكرةَ من رأسي، فالناسُ ينطقون بجُملٍ متشابهة، واحد ونصف ليست جملة بديعة لهذا الحد كي أحتكرها على فارس، هذا ما تمتمتُ بهِ لنفسي، أيّة قداسةٍ هذهِ التي وهبتُها له؟ فارس الميكانيكيّ الذي يعيشُ في الخليل، ربمّا هو مجرّدُ شابّ عاديّ كغيرِه، جعلني الحُبّ أراهُ بعينٍ مختلفة. انزعجتُ من والدي، لأنّه ذكّرني بكَ بطريقةٍ ما، أنا التي تبذلُ أيّامَها لنسيانك، وقفتُ وراءَ الباب المغلق أحاول أن أسمع شيئًا، لكنّ الضيف كان يتحدّث بصوتٍ خفيض. عدتُ إلى غرفتي، واستلقيت على السريرِ أبدّل القنوات علني أجدُ فيلمًا يستحقّ المشاهدة، اقتحمَ والدي غرفتي مجدّدًا، وبلا مقدّماتٍ، قال:

«لقد قرأتُ فاتحتكِ للتوّ يا سلمَى! أريدكِ أن تقابلي زوجكِ

الآن». أصابني الذهول. لم تخرج كلمةٌ واحدة من فمي المفتوح، لم تنزل دمعةٌ واحدة من عينيّ المدهوشتين، لم تكن كالفاجعةِ التي عشتُها من قبل، وكي أكونَ صادقةً لم أكن أعارضُ فكرةَ أن أحبّ من جديد وأقابلَ رجلًا يمحوكَ من ذاكرتي.. كلّا، لم أعد أرتعبُ من فكرةِ الزواجِ من غيركَ ولكن ليسَ هكذا.. كيفَ يرتكبُ والدي الخطيئةَ نفسها في حقي مرّتين؟ كيفَ لا يستشيرني ويمنحني حقّ اختيارِ الرجل الذي أرغبُ بأن أكونَ معه؟ كلّ شيءٍ حولي توقّفَ عن الحركة. وأبي لم يمنحني دقيقة للتوازن، أمسكَ يدي وساقني إلى الصالون مثلَ امرأة يسوقونها إلى حبل مشنقتها. هناكَ في الصالون، رأيتكَ، كنتَ أنتَ الضيفَ! وجدتكَ جالسًا، وعندما رأيتني وقفتَ، كنتَ أنتَ حقًا بملامحك وطولك وتفاصيلك واقفا وسط الصالون تبسمُ لي.

اقتربت منك خطوة فخطوة، أجر ساقين خدرهما الفرح، ولستُ قادرةً على التصديقِ بعد! وصلتُ إليكَ حتى تسنّى لي شمّ عّطركَ، لم أمدّ يدي لمصافحتك بل أمسكتُ بذراعكَ، لأصدّق أنك حيّ وحقيقيّ أمامي، تلمّستُ وجهكَ الحليق، خطفتني إلى صدرك، لم يكن عناقًا، لا! بل التحامًا بعد غيابٍ طويل. لم يطل العناق، فقد أطلقتني لتتأمّلَ وجهي مجدّدًا، وضعتَ شفتيكَ الطريّتين على شفتيّ وضغطتَ عليهما قليلًا، ابتسمتَ بينما تداعب وجهي بكفّيك، قبّلتَ يدي اليمنى ثم اليسرى، سرعان ما عاد والدي ليتفاجأ بكَ قريبًا منّي، انسحبَ وأغلق علينا الباب، إنّها أوّلُ مرّة يجمعنا المكانُ ذاته، ويغلق علينا بابٌ واحدٌ.

ركعتَ على ركبتيك وقبّلتَ قدميّ: «ثلاثةٌ لا يكابرُ الرجلُ على تقبيل أقدامهنّ يا سلمى.. الأمّ والأرض وحبيبةٌ مخلصة، لقد منحتِ كلّ شيءٍ لرجلٍ لا يملكُ شيئًا!»

دخلت أمّي الصالون تزغردُ احتفالًا بلقائنا، هذا اللقاء التاريخيّ الذي سيتحدّث عنه لاحقًا كلّ سكّان القطاع شيوخًا وأزواجًا وأطفالا، شرحَت والدتي بأنّها علِمت بقدومَكَ منذ البداية، فقد استشارهَا أبي قبل أن يقرأ الفاتحة، فطلبت منهُ رؤيتَك أوّلا. عندما سلمَت عليكَ، أدركَت بذاكرتِها ويقينِ حدسِها أنّه أنتَ فارس نفسه الذي شاهدتهُ في الصُور التي طالما أريتُها لها، أبي بدا شديد الإعجاب بكَ، يحدق إليكَ كما أحدق أنا، يراك بعينه بطلًا يستحقّ ابنته البكر. قالَ أبي بعد أن أحاط ذراعه بكتفك: «هل تعلمين كيف وصل فارس إلى خان يونس؟» حرّكتُ رأسي نافية: «سافر إلى الأردن عبر الجسر ومن عمان إلى القاهرة بالطائرة ثم إلى معبرِ رفح برّا، ومكثَ هناكَ أسابيع طويلة حتى فتحوا المعبر وسمحوا لهُ بدخولِ القطاع».

أجبتَ أنتَ: «كانَ السفرُ مؤلمًا، إذ كان عليّ عبورُ كلّ هذه المدنَ كي أصلَ إليكِ، وجدتُ نفسي مضّطرّا لمغادرة الوطنِ لأدخله من الجهةِ الأخرى، مثل لصّ يتسللُ من النافذة بدلا من دخول بيته من الباب». لم يجب سؤالكَ أحد، تقاسمنا جميعًا الرغبة ذاتها في البكاء، كنتَ تتحدّث بعفويّةٍ أحبّها، ما قلتَه أثار إعجابَ والديّ اللذين توقّفا عن الحديث عن الوطنِ منذ زمنٍ! أمّا أنا، فقد خجلت حينَ أدركت أنّك أثناء كلّ هذا الغياب كنتَ منشغلًا بإيجاد طريقٍ يوصلك إليّ، قلتَ: «منذ خرجتُ

من السجن وأنا أعملُ على أن نجتمع، تواصلتُ مع السلطات، وبرّرتُ لهم سببَ سفري بأنّني ذاهبٌ إلى قطاعِ غزّة لأتزوّجَ المرأةَ التي أحبّها، والآن عليّ أن أعود وأقدم لهم الوثائق التي تثبّتُ أنّكِ زوجتي ليمنحوكِ التصريح لدخول الضفّةِ الغربيّة».

***

كنّا نتعشّى في مطعمٍ يطل على البحر قبلَ سفركَ بليلةٍ، حينَ قرّرتُ أن أطرحَ عليكَ سؤالا طالما شغلني وأجّلتهُ حتى أقرأ إجابتهُ في عينيكَ، لم تكن شهيّتي مفتوحة للأكل، انشغلتُ عنهُ بمراقبتكَ، رأيتكَ تثبّتُ شريحةَ اللحمِ بالشوكة لتقطّعها بالسكّين، عندما اقتربتُ منكَ، وسألتكَ بصوتٍ واضحٍ وبلا مقدمات: «هل أنتَ كرم؟»

توقفت يداك عن الحركة، ابتسمت وهززت رأسك بطريقة تعبّرُ من خلالِها بأنّ ما سألّتكَ بشأنهِ كانَ آخر ما توقّعتَ سماعهُ منّي. وضعتَ الشوكة والسكين على الطبق، ورفعتَ عينيكَ إليّ:

- ما الذي سيتغيّرُ بيننا إن كنتُ كرم أو لم أكنه! إذا قلتُ لا، هل سأخذلكِ، لأنّني لستُ البطلَ المجهولَ الذي تمنّيتِ أن أكون؟ وإذا قلتُ نعم، هل ستحزنين لأنّني أخفيتُ عنكِ حقيقةً كهذهِ. أنتِ الصافية والشفافةُ كصفحةِ الماء؟

- لن يتغيّر شيءٌ بيننا، ما يهمّني معرفة من تكون!

- عدا ما تسألينَ، ثمّة أشياءُ كثيرة تجهلينَها عنّي يا سلمى، قد تكونُ أقل أهمّيّة من هذا، وقد تكونُ أسرارًا صادمة تجعلكِ تكرهينني إلى الأبد!»

- إمّا أنّكَ تقولُ الصدق.. وهذا يخيفني، وإمّا أنّكَ تحاولُ

إلهائي كي أنسى سؤالي.

- أنا ألهيكِ دونَ أن أكذب، ستعرفينَ كلّ ما ترغبينَ بمعرفتهِ، لكنْ ليسَ الآن».

حصلنا على وثيقةِ الزواج، وكانَ عليكَ أن ترحلَ مجدّدًا وتتركني هنا من أجلِ انتظارٍ أخير، رحيلكَ كان مؤلمًا كالاستيقاظ من حلمٍ جميل، بكيتُ وأنتَ تغادرُ بابَ بيتنا، أزعجكَ بكائي، وضعتَ حقيبتكَ على الأرض، وحملتَ وجهي بين كفّيك: «لا يا سلمى.. تبكيش! لك مجنونة وحياتك لأرجع»، عانقتني طويلًا وهمسَتَ في أذني: «بحبّك».

بعد ستة أشهر..

قدِمتَ إلى بيتنا كي تأخذني معكَ، عجبتَ كيفَ تحوّلَ ذلكَ الفرحُ على وجوههم إلى حزنٍ عميقٍ! تلكَ الفوضى قتلها السكونُ الكئيب والحيرة، الكلامُ كان يخرجُ من فمِ أبي متعثرًا بالغصّات، يكابرُ كي لا يبكي في حضرةِ ابنتِه وزوجِها. قال يائسًا: «هل تدركينَ أنّكِ إذا رحلتِ الآن قد لا تعودين إلى هنا مرّةً أخرى؟» كان يفضّلُ بقاءَكَ معي على رحيلي معك، أمّا أنت ما كان بوسعكَ فعل أكثر ممّا فعلت، تعتقدُ أنّ الخليل هي المدينةُ المقدّرة لك، بالإضافةِ إلى التزامكَ بعملِك وعالمِك وعهد قطعتَهُ لوالدتك، كنتُ مدركة أنّكَ لن تتمكّن من الانسلاخ عن حياتِك السابقة من أجلي، بينما كنتُ أشتهي حياة جديدة ومختلفة في مدينةٍ أخرى مع الرجلِ الذي أحبّ..

يا الله، سأشتاقهم حتمًا! صدر أمّي، رائحتها، عينيها الدامعتين ويديها الدافئتين أبدًا! سأشتاقُ حتى نوبات غضبها وسخريتها الجارحة وضحكتها الخافتة.. وأبي، سأشتاق عنادهُ

وعصبيّتهُ ومناقشاتهُ الطويلة للأسعارِ مع الباعة، سأفتقدُ غرفةَ زيد وأماكنه، أمّا هو، فسيرافقني أينما ذهبت. سأشتاقّ هديل، ثرثرتها، نكاتها، وفوضاها الجميلة التي تحدثها أينما حلت، ولينا التي كنتُ لها أمّا ثانية، طالما أطعمتُها، مشّطتُ شعرها، ورويتُ لها الحكايات قبل أن تنام، سأفتقدُ الطرق إلى السوق والجامعة ومكتب البريد، هذا المنزل وفناءه، غرفتي، سريري، وسادتي، سأفتقد حتى غزّة وكآبتها!

وضبت حقيبة واحدة فيها ثلاثة فساتين، قميصان وسروال واحدٌ، ملابس داخليّة، أوراقي الثبوتيّة، شهادة تخرّجي، منديل أمّي، قميص زيد، كوفيّة أبي، دمية لينا، رسائلك، دفترُ مذكّراتي كي لا أنسى، ووقفتُ عند عتبةِ الباب أستعدّ للرحيل، قبّلتُ جبين أمّي ويديها، والدي لأوّل مرّة أراه يذرفُ الدموعَ من أجلي، هديل عانقتني ولم تفلتني، لينا تشبّثت بعباءتي السوداء، لكنّي أفلتّها بلطف، أمسكتُ يدك ورحلت: ها أنا أحصل على الرجل الذي أحبّ، علّني أحصل يومًا على وطن!

(٦١)

رسالة إلى القارئ

علّمتني شخصيّة سلمى الكثير من الصبر والشجاعة والتمسّكِ بحقّ الحلم، كانت امرأة قويّة تحلمُ بحياة جميلة في مدينةٍ منكوبة! منحتني فرصة عيش الفانتازيا الخاصّة بي، فرصة أن أكونَ فلسطينيّة، وأعيش في بلادٍ طالما قرأتُ عنها في الروايات ورأيتُها في الصورِ والأفلام، دون أن أتمكّن من التواجدِ هناكَ بنفسي.. أمّا فارس، فكان رجلًا ورقيّا نابضًا بالحياة، تركَ تأثيرًا كبيرًا عليّ كإنسانة وكاتبة، كان رجلًا تخيّلته كتبتُه وأحببته، وكنتُ كثيرًا ما أنتهي من كتابةِ رسالةٍ وأخلدُ إلى نومي، لأراهُ في حلمي واضحًا بملامحهِ يتّصلُ بي من السجن ويحدّثني بصوتهِ العذب ولكنتهِ الخليليّة الجميلة ليخبرني كم يشتاقني وكم يرغبُ برؤيتي..!

الأماكن والمدن المذكورة في هذا الكتاب موجودة بالفعل، أمّا أحداث وحوارات هذهِ الرواية فمعظمُها متخيّلة، على الرّغم من أنّها تختصرُ الكثيّر من قصصٍ واقعيّة يعيشُها الناسُ في قطاعِ غزّة وآخرون في الضفةِ الغربيّة. هنالكَ ثغرات سيكتشفها القارئ المُلمّ بتفاصيلِ السجون الإسرائيليّة، قد يلومني عليها ويتّهمني بعدمِ التحلي بالمصداقيّة. وعلى سبيلِ المثال، بعضكم يعرف بأنّ الأسيرَ لا يقابلُ أحدًا من أهله، ولا حتى المحامي وجهًا لوجه، إلّا عبر زجاجٍ عازل؛ ولكن أحداث هذهِ الرواية ليست بالضرورة مرآةً تعكس الواقع بحذافيره، سيتساءل القارئ أيضًا، لماذا لم يرسل فارس رسائله عبر بريد السجن

فحسب؟

لأنّ الرسائل كلّها تراجعُ وتُراقبُ من قبل السلطات، جميع الرسائل التحفيزيّة، والتي تحمل روحًا وطنيّة تعبّر عن فلسطين كوطن واحد تتمّ مصادرتها، ولهذا لفّقت وتحايلت على الواقع بأنّ الأسير يقابل محاميه وجهًا لوجه، ويمرّر له الرسائل.. وإلّا ما كانت لتُكتَب ولا لترسل وما كان لهذا الكتابِ أن يكون! وإذا عجز الأدب أو الفنّ عن التلفيق والتحايل وتغيير الواقع، بحيث يجعل المستحيل ممكنًا والممكن مستحيلًا، كان ليفقد سطوتَه وسحره وإمّكانيّاته في الإبهار، حتى إنّنا قد نختار النهاية التي تناسبُ تطلعاتنا، ولو لم توافق طموحات القارئ الواقعيّ الذي يطلبُ نهاية بائسة تحاكي الواقع كما هو، ولكنْ لا.. بإمكاننا أن نحلم على الورق كما نشاء، ولا يحقّ لأحدٍ أن يمنعنا عن الحلم.

تتبادلُ سلمى، المقيمةُ في مدينةِ خان يونس، الرسائلَ مع فارس، المعتقَلِ في سجن عسقلان، تدوّنُ له هذيانها وأحلامَها بالتنقُّل حرّةً داخل فلسطين، الرازحةِ تحت احتلالٍ مريع وصراعٍ داخليٍّ مدمِّر. تَعْلَق مع مرورِ الأيّام في شِباكِ حبّه وقضيّتِه، وتحاول اكتشافَ هويّته: أهو فعلاً المقاوم «كرم» الذي تبحث عنه السلطاتُ الإسرائيليّة، أم أنّه «فارس» كما عرفته، الميكانيكيُّ البسيط الذي لم يتعلّم يومًا كيفيّةَ استخدام البندقيّة؟

سارة النمس: قاصّة وروائيّة جزائريّة، صدرتْ لها رواية **الحبّ بنكهة جزائريّة**، ومجموعة قصصيّة بعنوان **الدخلاء**.

تصميم الغلاف: ربيع الجندي

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
بيروت - لبنان

t.me/twinkling4

ISBN: 978-9953-89-534-5